لا تلوموا الخريف

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

د. يوسف عز الدين

لا تلوموا الخريف

رواية

دار الشروق

ينبتُ الزهرُ فى الربيع ويُلقى   عند باب الخريفِ بعضَ ظلالهْ
لا تلوموا الخريفَ لو عشق الزهرَ وتاقت عيونُه لجمالهْ

دكتور يوسف عز الدين عيسى

- ١ -

كانت أسراب العصافير ترتفع ثم تهبط على الأشجار وكأنها ألعابٌ ناريَّة . والأحبة يتهادون ويتهامسون فى نشوة وقد تشابكت أيديهم ، والأشجار التى جردها الخريف من أوراقها بدأت تدب فيها الحياة كان كل شىء فى حديقة الأندلس على شاطئ النيل فى ذلك اليوم من عام ١٩٣٨ يحتفل بمقدم الربيع ، وانطلق طفل يعدو فى إحدى يديه قوس وفى الأخرى سهم .

فى مهرجان الربيع هذا بدا مختار بدر الدين الطالب بكلية العلوم وكأنه نغمة نشاز . فهو جالس بمفرده منزويا فى ركن منعزل من أركان الحديقة على مقعد خشبى تظلله شجرة عجوز محفور على جذعها قلب يخترقه سهم وقد أدار ظهره للربيع كما أدارت له ظهرها زهرة كبيرة صفراء واتجهت نحو قرص الشمس ، وفى يده كتاب « علم الحيوان » يحاول أن ينقل إلى مخزن ذاكرته كل ماهو مدوّن فى صفحاته ، فهو لم يحضر للحديقة للتنزهة وطلب المتعة كغيره من خلق الله ، ولكنه اعتاد زيارتها من آن لآخر ليذاكر دروسه ، كان هو الإنسان الوحيد فى الحديقة الذى لا يشعر بمتعة الربيع ، الحياة فى نظره معمل ومحاضرة وكتاب .

وبينما هو مستغرق فى قراءة كيفية تكوين جنين الدجاجة ونموّه من خلية واحدة ملقَّحة حتى يصبح كتكوتا مكونا من ملايين الخلايا انتفض بغتة على أثر شىء اصطدم بصدره . نظر فإذا ذلك الشىء الذى أفزعه سهم خشبى صغير انطلق من القوس الذى يلهو به الطفل . أقبل الطفل والتقط السهم الذى سقط أمام مختار وجرى مبتعدا عنه .

اعتبر مختار ذلك السهم تنبيها له ليطوى الكتاب ويستريح قليلا ليرى ما حوله ، فإذا على مقعد قريب منه تجلس فتاة رائعة الجمال . شعر كأن قلبه كان متوقفا وبدأ يدق ، كما تدق الساعة عندما تُهز هزَّة عنيفة بعد أن كانت عقاربها متوقفة عن الدوران .

أمرت هذه الفتاة الطفل أن يذهب إلى مختار ويعتذر له عن السهم الذى أصابه . فذهب الطفل ووقف أمام مختار صامتا . ثم جرى يلهو بقوسه وسهمه . فأومأت الفتاة برأسها إلى مختار مبتسمة وقالت :

ـ أنا متأسفة بالإنابة عنه . لم يكن أخى يقصد أن يصيبك بالسهم .

نظر إليها مختار وقد احمر وجهه وقال :

ـ لم يحدث ما يدعو للأسف . إنه طفل صغير يلهو . عندما رأيته وهو يعدو بالقوس والسهم ظننته « كيوبيد » ! .

ضحكت الفتاة وقالت :

ـ كيوبيد ؟ ! أرجو ألا يكون قد أزعجك هذا الكيوبيد .

قال مختار :

ـ إنه أول سهم يصيبني .

قالت الفتاة مبتسمة :

ـ أتعشم أن يكون آخر سهم .

قامت وعينا مختار تتابعها . وسارت نحو أخيها فسحبته من ذراعه واتجها معا نحو الباب الخارجي للحديقة واختفت بين ملايين البشر الذين يعيشون فى مدينة القاهرة . ولكن صورتها لم تغب عن عينيه بوجهها الناصع البياض وعينيها الخضراوين المبتسمتين وشعرها الكستنائى المتهدل . ظل مطرقا للأرض يفكر فى هذا الجمال العابر الذى يخفق له القلب ثم تبتلعه أمواج البشر فلا تراه العين بعد ذلك . إنه النوع من الجمال الذى يستهويه .

استولى عليه شعور عجيب لم يشعر به من قبل . شعر كأنه كان يبحث عن شىء مجهول لا يعرفه ثم وجد هذا الشىء عندما رأت عيناه تلك الفتاة . واستبد به إحساس غير مريح . إذ اعتقد انه أضاع فرصة كان من الواجب أن ينتهزها ولا يتركها تفلت من يده

لماذا أتركها تبتعد عنى وتغيب عن بصرى دون أن أحاول تتبعها لمعرفة مسكنها أو سؤالها لمعرفة أى شىء عنها ؟.

وكان على استعداد للاسترسال فى هذه الأفكار إلى ما لا نهاية لولا أن حانت منه التفاتة فوجد كتاب علم الحيوان ملقى بجواره وكأنه يعاتبه على انشغاله عنه بشىء آخر . فأخذ الكتاب ووضعه تحت إبطه وغادر الحديقة عائدا لمنزله .

هذا الربيع الذى يملأ الدنيا لا يعرف طريقه إلى حارة البحرى المتفرعة من شارع جزيرة بدران بشبرا . يعيش مختار فى هذه الحارة ويعيش معه اثنان من زملائه بكلية العلوم هما شريف المنصورى ورشاد زهدى . ورجل ثالث فى نحو الخمسين هو عبد الحميد غريب . وهو شاعر موهوب عاطفى رقيق المشاعر . كان مدرسا فى إحدى المدارس الابتدائية وفصل من عمله عندما أساء استعمال الكراسى فى أثناء مشادة نشبت بينه وبين ناظر المدرسة عندما أصر عبد الحميد على تدريس التاريخ بطريقته الخاصة ضاربا بمقرر وزارة المعارف العمومية عرض الحائط ! .

ـ أجل ، التاريخ لابد أن يدرَّس بهذه الطريقة . يجب الاهتمام بتدريس تاريخ الذين خدموا الحضارة وخففوا آلام البشر . تاريخ باستير فى رأيى أحق بالدراسة من تاريخ شخص مجرم مثل نابليون الذى سفك الدماء وعذب الناس .

ـ أنت ياأستاذ مقيَّد بمقرر وضعته الوزارة وسيمتحن فيه التلاميذ .

ـ (ثائرا) المقررات يجب أن تتغير . دراسة التاريخ ينبغى أن تتطور . ماذا استفادت البشرية من نابليون وجنكزخان وهولاكو التتارى وأمثالهم ؟ لماذا يحشون أدمغة التلاميذ بتاريخ أمثال هؤلاء السفاحين الذين يتَّموا الأطفال ودمَّروا المدن وأبادوا القرى وأشاعوا الرعب والتعاسة ؟ لماذا لا ندرس بدلا من هذا تاريخ

العلماء الذين خففوا آلام البشر وكفكفوا دموعهم . والأدباء والفنانين الذين جمّلوا الحياة بأفكارهم وفنونهم ؟

ـ أنت يا أفندى مجنون ويجب وضعك فى مستشفى المجانين .

ـ أنت المجنون . أنا أعقل شخص فى المدرسة .

ـ اخرس يامجرم .

ـ أنت المجرم . أنا لا أقبل الإهانةَ من أحد ، أنا لى كرامة .

ـ هل بلغ بك الإجرام أن تضربنى بالكرسى ؟ اخرج يامجرم . أنت مرفوت . لن تقبلك أية مدرسة للتدريس فيها بعد اليوم . سأدخلك السجن . سأجعلك متشردا فى الشوارع .

عطف مختار على هذا الرجل ، فلقد كان مختار تلميذه فى يوم من الأيام ، فطلب منه أن يشاركه المسكن ولا يشترك فى دفع النفقات . بل كان يعطيه بعض النقود لمصروفه الخاص ، فهو لا يملك من حطام الدنيا سوى حصيرة ينام عليها فى أحد أركان الغرفة .

ركب مختار الترام عائدا لمنزله . كانت عجلات الترام تحدث ضجة فى أثناء دورانها على القضبان ، وبجوار مختار جلس رجلان يتناقشان بصوت مرتفع وكأنهما يتعاركان ، والكمسارى يصرخ فى وجه بعض الأطفال الذين ركبوا على سلم الترام من الجهة اليسرى بدون تذاكر ، ولكن مختارا لم يكن يسمع شيئا من هذه الضجة ولا يرى مايدور حوله من أحداث . لم يكن يسمع سوى صوت تلك الفتاة التى رآها فى حديقة الأندلس وهى تقول : «كيوبيد» ؟ . ولم يكن يرى سوى وجهها .

وصل إلى شارع جزيرة بدران ، وكان يتحتم عليه أن يجتاز حارة البحرى حيث يقع منزله قرب نهايتها . وجد الحارة ، كعادتها ، غارقة فى بحر من محتويات المجارى التى تفور وتثور من آن لآخر كما يثور البركان ، واتخذ طريقه فى حذر شديد لكى يتفادى السقوط فى البالوعة المكشوف عنها الحجاب دائما . كان السائر الغريب الذى يجتاز هذا الطريق لأول مرة فى حاجة شديدة إلى مرشد تفاديا للأخطار كما يحدث للسفن عند دخولها الميناء أو عند اجتيازها قناة السويس .

وقف مختار أمام باب شقته بالدور الرابع وأخرج مفتاحه وفتح الباب ودخل ، كان شريف جالسا على الكنبة البلدى التى فى البهو مرتديا جلبابا يقرأ فى أحد كتب علم النبات . قال :

ـ أين كنت يامختار ؟ لقد تأخرت كثيرا .

قال مختار وهو شارد الذهن :

ـ كنت فى الجنّة !.

ـ الجنّة ؟ ! أيّة جنة هذه ؟

ـ كنت فى حديقة الأندلس أذاكر كالعادة . أين عبد الحميد ورشاد ؟.

ـ رشاد نائم وعبد الحميد جالس فى الشرفة التى تجرى من تحتها المجارى ينظم قصيدة جديدة .

قال مختار ساخرا :

ـ ياللوحى الرائع !.

ونادى على عبد الحميد فأقبل على مضض وفى يده الورقة والقلم وقال :

ـــ الله يجازيك يامختار . قطعت سلسلة أفكارى . ماذا تريد ؟

ـــ أريد أن آكل .

ـــ كل يوم أكل ؟ ! ألا نرتاح من الأكل يوما واحدا ؟

ضحك مختار وقال .

ـــ ماذا أعددت لنا اليوم ياعبد الحميد ؟

ـــ دمعةً وفاصوليا وأرزا بلسان العصفور وسلاطة خضراء وسلاطة طحينة . والفاكهة موز

قال شريف :

ـــ هل تَبَقّى شىء من الخمسة قروش ؟.

قال عبد الحميد :

ـــ تبقت نكلة .

قال شريف :

ـــ ليتك اشتريت بها ليمونا .

فى هذه اللحظة انبعث من غرفة رشاد صوت كزئير الأسد . فعلم الثلاثة أنه صحا من نومه وأنه غضب . صاح رشاد قائلا :

ـــ ماهذه الضجة ؟ ألا تستطيعون التحدث بهدوء ؟ أيقظتمونى من أحلى نومة ، من أحلى حُلم .

وقام من فراشه وجلس معهم فى البهو وهو لايزال يتثاءب ويفرك عينيه . فقال له شريف بسخرية :

ـــ وماذا حلمت هذه المرة ياترى ؟ اللهم اجعله خيرا .

قال رشاد مبتسما :

ـــ لا ، هذه أسرار لا أبوح بها .

قال شريف :

ـــ أعرف أحلامك جيدا ، حتى أحلامك قليلة الأدب .

قال رشاد :

ـــ لا والله . ليست قليلة الأدب جدا فى هذه المرة . حلمت أنى جالس مع بنت حلوة على شط النيل فى عزيرة .

قال شريف :

ـــ وماذا كنت تعمل ؟.

ـــ كنت آكل ترمسا .

كان عبد الحميد قد انتهى من إعداد المائدة . فصاح قائلا :

ـــ تعالوا كلوا .

فأسرعوا بالجلوس حول مائدة الطعام وبدأوا يملأون معداتهم . وسادت فترة صمت قطعها مختار عندما قال :

ـ ألن ننتقل من هذا البيت المقرف ؟

قال عبد الحميد .

ـ وأين نذهب ؟

قال مختار :

ـ ننتقل إلى الشقة الخالية التى فى المنزل المقابل لمنزلنا

قال شريف :

ـ لا داعى للانتقال . إنه لا يتميز عن منزلنا .

قال مختار :

ـ إنه أمتن وأرخص . إيجاره ينقص عشرين قرشا عن إيجار منزلنا .

توقف عبد الحميد عن الطعام ونظر إليهم قائلا :

ـ ما هذا الكلام ؟ الشقة التى أمامنا سكنت .

قال شريف :

ـ فى ستين داهية ، لكن متى سكنت ؟ كانت خالية حتى أمس .

قال عبد الحميد :

ـ سكنت صباح اليوم . أنا لا أجلس فى الشرفة عبثا .

قال رشاد :

ـ ومن سكنها ؟

قال عبد الحميد :

ـ سكن فيها قمر . قمر سبعة عشرا !.

قال مختار :

ـ قمر سبعة عشر ؟ ! ما معنى هذا ؟.

قال عبد الحميد :

ـ سنها لا يزيد على سبعة عشر عاما .

قال رشاد :

ـ علام تتحدثون ؟.

قال عبد الحميد :

ـ لم أر أجمل منها فى حياتى ولم تر مثلها حارة البحرى ولا حتى الزمالك أو جاردن سيتى ! ولكن المؤلم فى الموضوع أنها لا تحب الشعر والغناء !.

قال رشاد :

ـ وكيف عرفت أنها لا تحب الشعر والغناء ؟

قال عبد الحميد :

ـ عندما لمحتها وهى تطل من النافذة أصبت بحالة انبهار وظننتها تمثالا من النور . ولما هدأ انبهارى وعدت إلى حالتى الطبيعية أسرعت ونظمت قصيدة أصف فيها محاسنها ثم أخذت أدندن ملحنا القصيدة . فإذا بها تقفل النافذة فى وجهى . فانسحبت وأتممت تلحين القصيدة

قال شريف :

ـ يبدو أن مهمتك الوحيدة الآن هى تطفيش جميع الجيران

لم يسمع مختار شيئا من هذا الحوار . فلقد كان شارد الذهن يفكر فى الفتاة التى رآها فى حديقة الأندلس . ولاحظ رشاد أن مختارا صامت على غير عادته . فسأله :

ـ مابك يامختار ؟ لماذا لا تأكل ؟ فيم تفكر ؟

أجاب مختار متلعثما :

ـ أفكر ؟ لا شىء . أنا لا أفكر فى شىء .

قال رشاد :

ـ أقسم برحمة خالى حسن أن فكرك مشغول فيم تفكر ؟

قال مختار :

ـ سرحت قليلا فى الكلام الذى يقوله عبد الحميد .

قال رشاد :

ـ فى قمر سبعة عشر الذى أقفل النافذة فى وجهه ؟.

قال عبد الحميد :

ـ إنها أجمل بنت فى الدنيا

فقال مختار على الفور وكأنه يصحح خطأً جسيما :

ـ كلا . بل يوجد أجمل منها بكثير .

قال عبد الحميد متعجبا :

ـ وهل رأيتها لتحكم إذا كان يوجد أجمل منها ؟.

قال مختار :

ـ رأيت اليوم أجمل بنت خلقها ربنا . لايمكننى تصور وجود من هى أجمل منها .

قال رشاد :

ـ وفى أية داهية كنت أنا فى هذه الأثناء ؟.

قال شريف ضاحكا :

ـ كنت نائما .

قال رشاد :

ـ هل يحدث كل هذا فى الساعة التى نمتها ؟

قال عبد الحميد :

ـ لم يضع نومك سدى . ألم تكن تحلم أنك مع بنت حلوة ؟.

قال رشاد :

ـ وأين رأيت ملكة الجمال هذه يامختار ؟

ـ فى حديقة الأندلس تحفة جميلة لم يخلق ربنا أجمل منها . النوع من الجمال الذى يعجبنى . منذ رأيتها وصورتها لم تغب عن عينى .

قال شريف :

ـ ماذا جرى لك يامختار ؟ كنت عاقلا

ـ لو رأيتها لعذرتنى

ـ أنا لا أريد أن أراها ولا أرى أمثالها . سأقوم لأصلى العصر .

قال مختار :

ـ التأمل فى الجمال الذى خلقه الله نوع من العبادة .

صاح رشاد قائلا :

ـ صح . مضبوط التأمل فى الجمال نوع من العبادة .

قال شريف بسخرية :

ـ التأمل فى الجمال ؟ ! تأمل كما تريد .

انسحب عبد الحميد إلى الشرفة وأخذ يترنم بأغنية «كلنا نحب القمر والقمر بيحب مين ؟ » .

قال شريف وهو يبسط سجادة الصلاة :

ـ يبدو أن عبد الحميد ذهب هو أيضا ليتأمل فى الشرفة .

أطرق مختار نحو الأرض برهة ثم قال :

ـ لن يهدأ لى بال حتى أعلم كل شىء عن هذه الفتاة . سأبحث عنها فى كل مكان !

قال رشاد :

ـ ماذا تقول ؟ كانت فى يدك سمكة نادرة المثال تركتها تنزلق منك فى مياه المحيط وتريد أن تبحث عنها فى البحار السبعة . هل تعلم كم عدد سكان القاهرة يا أستاذ ؟.

ـ لا أعلم عدد سكان القاهرة . ولكن لابد أن أرى هذه الفتاة مرة أخرى .

قال رشاد :

ـ عندى فكرة تنسيك هذا التفكير الذى لا فائدة منه .

قال مختار وهو شارد الذهن :

ـ ماهى ؟.

ـ سينما حديقة الأزبكية تعرض فيلما لجريتا جاربو . ما رأيك لو نذهب لنشاهده معا ؟.

ـ لم تعد معى فلوس تكفى للفسحة ومشاهدة الأفلام .

ـ المسألة لن تكلفك أكثر من خمسة قروش . خمسة مليمات ذهاب فى الأوتوبيس وخمسة مليمات رجوع بالأوتوبيس . وأربعة قروش ثمن تذكرة السينما بما فيها طاجن خشاف فيلمان وطاجن خشاف بأربعة قروش

ـ ادفع لى ثمن تذكرة السينما وأدفع أنا أجر تذاكر الأوتوبيس . أنت غنى يارشاد .

ـ لا مانع

ـ قد أجدها فى السينما !.

ـ تجدها فى السينما ؟ ! هذا ما لا أضمنه . الذى أنا متأكد منه هو أنك ستأكل طاجن خشاف وترى جريتا جاربو فى فيلم « الملكة كرستينا » .

ـ الفتاة التى رأيتها اليوم فى حديقة الأندلس أجمل من جريتا جاربو وأجمل من جميع كواكب السينما .

كان شريف قد انتهى من الصلاة . وفى أثناء عودته التقطت أذناه الجملة الأخيرة من هذا الحديث . فقال لمختار :

ـ ألا تزال تهلوس بهذا الكلام الفارغ ؟ قم ذاكر كلمتين يفيدانك .

فى هذه اللحظة أقبل عبد الحميد حزينا منكس الرأس وقال :

ـ أقفلت النافذة فى وجهى مرة أخرى .

فصاح شريف قائلا بانفعال :

ـ لا . الحياة معكم أصبحت لا تطاق . سأبحث عن مسكن آخر . كفى فضائح ياعبد الحميد

قال رشاد :

ـ ياخائن العيش والملح ياعبد الحميد لماذا لم تنبهنى لأراها قبل أن تقفل الشباك ؟

ظل عبد الحميد ناظرا نحو النافذة المغلقة مترنما بأغنية : « اللى يحب الجمال يسمح بروحه وماله . قلبه إلى الحسن مال . مال العوازل وماله ؟ » . بينما التفت رشاد لمختار وقال :

ـ هل تعلم يامختار أنك شخص متقلّب ؟.

فقال مختار بدهشة :

ـ متقلب ؟ لماذا ؟.

ـ حتى أمس . أمس فقط . كانت نبيلة هى المثل الأعلى فى نظرك .

ـ نبيلة جميلة ولا عيب فيها . أنا معترف بذلك . ولكن البنت التى رأيتها فى حديقة الأندلس لم أر فى حياتى أجمل منها .

ـ ألهذه الدرجة ؟.

وهنا صاح شريف قائلا :

ـ ومن أوصلكما أنتما لنبيلة ؟.

قال رشاد :

ـ ماذا جرى لك ياشريف ؟ لماذا كل هذا الحماس لنبيلة ؟ لماذا تدافع عنها ؟

ـ أنا ادافع عن بنت ممتازة .

قال رشاد ساخرا .

ـ وماذا تعرف عنها ؟

ـ نبيلة تحترم نفسها وتجبر أى إنسان على احترامها

ـ لا احترام ولا غيره . البركة فى سيارتها . السيارة هى التى تحيطها بهالة من الاحترام .

أقبل عبد الحميد مهرولا نحو رفاقه وقال :

ـ اسمع أنت وهو . كل إنسان فى الحياة له وجهة نظر . أنت مثلا ياشريف . ما هى أوصاف البنت التى تحب أن تتزوجها ؟

ـ أن تكون متوسطة الجمال وطيبة وتقية تعرف ربنا

قال عبد الحميد :

ـ وأنت يارشاد . ماهى أوصاف البنت التى تحب أن تتزوجها ؟.

ضحك رشاد وقال :

ـ ومن قال لك إننى سأتزوج ؟.

ـ هل ستعيش طوال حياتك بدون زواج ؟

ـ وهل يوجد ماهو أجمل من الحرية ؟

ثم صاح مغنيا :

ـ « احب عيشة الحرية زى الطيور بين الأغصان » .

قال عبد الحميد :

ـ عدم زواجك فى مصلحة البنات لو تزوجت فستكون هذه الزوجة المسكينة أتعس امرأة فى الوجود وأنت يامختار . ماهى أوصاف الفتاة التى تحب أن تتزوجها ؟

ـ أحب أن تكون بالضبط مثل الفتاة التى رأيتها اليوم بحديقة الأندلس .

ثم غمغم قائلا وكأنه يحدث نفسه :

ـ أتمنى أن أراها مرّة أخرى

قال رشاد :

ـ وأنا أيضا . أتمنى أن أراها .

قال مختار :

ـ ولماذا تريد أن تراها أنت ؟

ـ من باب حب الاستطلاع ياأخى .

قال مختار غاضبا :

ـ لو قُدّر لى أن أتزوج من هذه البنت فلن تراها .

قال رشاد :

ـ وأنا لو رأيتها لن تتزوجها .

انتفض مختار واقفا وصاح منفعلا :

ـ أنا لا أسمح لك بالتحدث عنها .

وهجم مختار على رشاد وأمسكه من ذراعه وكادت تنشب بينهما معركة لولا تدخل عبد الحميد الذى أسرع بفض الاشتباك قائلا :

ـ لا داعىَ للغضب . لن يراها أحد منكما . لا أنت ولا هو .

كان شريف فى هذه الأثناء جالسا فى هدوء ينظر إليهما وكأنه يشاهد فيلما سينمائيا . ثم قال :

ـ هل هذا وقت تفكير فى الزواج . أليست المذاكرة أجدى من هذا العبث ؟.

ساد الصمت . وسار عبد الحميد نحو الشرفة ثم عاد وقد بدا على وجهه الاكتئاب وقال :

ـ أنا الذى ينبغى أن أتزوج . أريد قلبا يعطف علىَّ تفكيركم فى الزواج سابق لأوانه . أما أنا فلقد بلغت التاسعة والأربعين .

اغْرَوْرَقَتْ عيناه بالدموع وهو ينطق هذه الكلمات ، فضحك رشاد ونظر إليه قائلا :

ـ تتزوج ؟ ! ومن تقبل الزواج من عاطل ؟.

صاح عبد الحميد قائلا :

ـ اخرس . أنا عاطل غصباً عنى يامغفل وليس بإرادتى .

ثم تهدج صوته وهو يقول :

ـ أنا إنسان مسكين . ضائع فى الدنيا . لم يعد لى أمل فى أى شىء .

فتأثر مختار وقال :

ـ ماذا جرى ياعبد الحميد ؟ أنت شاعر عظيم وستنال حقك من التقدير فى يوم من الأيام .

قال عبد الحميد :

ـ البنات لا يهمهم الشعر ، تهمهم الفلوس .

قال مختار :

ـ ستجد عملا قريبا إن شاء الله ، لن تظل عاطلا للأبد .

قال عبد الحميد بصوت مرتجف :

ـ أنا إنسان منحوس ، مسكين . لا أمل لى فى الحياة . كل أملى أن أحصل على وظيفة بخمسة جنيهات فى الشهر . لا أطمع فى أكثر من ذلك أنا إنسان من دم ولحم ولى إحساس وشعور . أنا لا أطلب الكثير خمسة جنيهات فقط يارب . خمسة جنيهات

وانزوى فى ركن البهو وأجهش بالبكاء .

- ٢ -

بدأ ضوء النهار يتسلل من خلال النوافذ . ودبّت الحياة فى حارة البحرى . وتصاعدت أصوات أبواب الدكاكين وهى تفتح . واستيقظ شريف وصلّى . وفتح كتاب علم الحيوان . وماكاد ينتهى من قراءة بعض صفحاته حتى سمع عبد الحميد يترنم بصوته الأجش .

خرج عبد الحميد ليشترى الفول . وعندما عاد كان مختار ورشاد قد استيقظا . فتناول الجميع فطورهم . ثم غادر مختار وشريف ورشاد المنزل متوجهين نحو كلية العلوم بالعباسية . وبينما هم يهمون بالدخول من باب الكلية سمعوا صوت بوق سيارة جعل مختارا ينتفض . وأسرعوا بإفساح الطريق ، وإذا بها سيارة نبيلة . الطالبة الوحيدة التى معهم بالسنة النهائية . انطلقت نبيلة بسيارتها دون أن تلتفت يمينا أو يسارا .

قال مختار :

ـ كانت ستقتلنى بسيارتها .

قال رشاد :

ـ ليتها تصدمنى أنا . ستكون ألذ ميتة مرت علىَّ فى حياتى . شرف عظيم أن تصدمنى سيارة أجمل بنت فى الكلية . قل لى بالصراحة يامختار . هل البنت التى رأيتها فى حديقة الأندلس أجمل من نبيلة ؟

ـ طبعا أجمل ، جمال لم أر له مثيلا فى حياتى .

انتفض رشاد وكأنه تذكر شيئا هاما وقال :

ـ نسيت أن أخبركم بأهم خبر فى تاريخ الكلية . رأيت نبيلة أمس تأخذ كراسة من حسين صالح .

قال شريف :

ـ كلام فارغ . هذا غير معقول . نبيلة لا تكلم أحدا ولا تسمح لنفسها أن تأخذ كراسة من أحد الطلبة .

قال مختار :

ـ كل شىء جائز . حسين صالح يحسن كتابة المحاضرات . ونبيلة لا مانع لديها من استغلال شخص مثله لتستكمل محاضراتها

قال رشاد :

ـ حسين ياجماعة مغرم صبابة بنبيلة .

قال شريف :

ـ حسين يحب جميع البنات . يحب الجنس الآخر بأجمعه .

قال رشاد :

ـ لكن نبيلة فى نظره متميزة عن كل البنات .

قال مختار :

ـ هناك شخص لا يخطر على البال ينافس حسين فى حب نبيلة

قال رشاد بلهفة :

ـ من هو؟ من ؟

قال مختار :

ـ سعيد عزَّت .

قال شريف :

ـ غير معقول . سعيد شخص منطوٍ على نفسه ولا يبدو عليه مطلقا أى اهتمام بأية طالبة .

قال مختار :

ـ هل من الممكن أن يتصور أحد منكما أننى رأيته فى العام الماضى واقفا فى معمل الكيمياء منهمكا فى إجراء التجربة وقد وضع أمامه مرآة حلاقة أحضرها من منزله ليرى نبيلة وهى واقفة خلفه دون أن يشعر أحد ؟! .

قال شريف :

ـ ألهذه الدرجة ؟.

وصاح رشاد قائلا :

ـ غير معقول :

فقال مختار :

ـ رأيته بعينىَّ ، مع أنه لم يحاول مطلقا التحدث مع نبيلة أو مجرد الاقتراب منها طوال هذه السنين . فرق كبير بين سعيد وحسين ، حسين يتكلم كثيرا ، ولكن سعيد كتوم .

قال رشاد :

ـ فكرة جهنمية فكرة المرآة هذه لم تخطر على بالى ، ورحمة خالى حسن لأحضرن معى مرآة غدا . لكن حسين وسعيد مساكين جدا ، نبيلة من الممكن أن تأخذهم إلى النهر وترجعهم عطاشى .

قال شريف محاولا إنهاء هذا الحديث :

ـ كفى خوضا فى سيرة الناس وهيا بنا إلى المعمل .

جلس الثلاثة ، مختار وشريف ورشاد متجاورين فى معمل علم النبات كعادتهم ، وبالقرب منهم فى أقصى اليمين كان يجلس سعيد عزت ، أما نبيلة فكانت تجلس خلف سعيد عزت ولم يكن يجرؤ أحد من الطلبة على الجلوس بجوارها .

دخل الأستاذ أحمد بدوى المعيد الذى اتجه مباشرة نحو السبورة وبدأ درس اليوم ، وكاد كعادته يتكلم ونظره يتنقل ما بين السبورة ووجه نبيلة وكأنه لا يرى غيرها فى المعمل ، وكلما ينتهى من شرح فقرة ينظر إلى نبيلة قائلا « مفهوم ؟ » فتجيبه بالإيجاب بانحناءة خفيفة من رأسها .

كان عدد الطلبة فى ذلك اليوم لا يزيد على العشرين ، وكانت عواطفهم جميعا تتجمع حول زميلتهم نبيلة كما يتجمع الضوء عند قاع العين بعد نفاذه من العدسة ، وكان بعضهم يقاوم تلك العاطفة بالابتعاد عن نبيلة وتحاشى التحدث معها ، وكانت تتعالى على زملائها الطلبة ولا تعيرهم اهتماما ولا يجرؤون على التحدث

معها إلا إذا دعت إلى ذلك ضرورة قصوى . عند ذلك يكون الحديث موجزا ومقتضبا ، إذ أن طريقتها فى الرد على من يكلمها لم تكن تشجع على الاستمرار فى التحدث معها لمدة طويلة .

كان زملاؤها الطلبة يشعرون بحسد وغيرة من المعيدين الذين بحكم مناصبهم يملكون حرية التحدث مع نبيلة كلما أرادوا ذلك وقف الأستاذ بدوى جنب نبيلة وتصفح كراستها ، ثم جلس بجوارها يرشدها إلى مواضع الخطأ فى رسمها . همس رشاد فى أذن شريف قائلا :

ـ هاهو ذا المعيد قد التصق بجوارها وكأنها الوحيدة فى المعمل .

فأجاب شريف قائلا :

ـ لو كنت أنت مكانه لفعلت أكثر من ذلك .

فضحك رشاد وقال :

ـ ياولد أنت يافاهمنى .

لم يشعر مختار بتلك الغيرة الخفيفة التى كان يشعر بها فى مثل تلك الأحوال ، ولكنه شعر بمقت شديد للمعيد الذى يولى نبيلة كل هذا الاهتمام لمجرد أنها أنثى جميلة ، وقفزت فى خياله صورة الفتاة المجهولة التى رآها فى حديقة الأندلس وأخذ يقارن بين جمالها وجمال نبيلة ، واكتشف لأول مرة عيوبا فى وجه نبيلة لم يكن يدركها من قبل ، وانحنى على الميكروسكوب الذى أمامه مركزا كل انتباهه لفحص الشريحة الرقيقة التى قطعها بالموسى من ساق النبات الذى وُزِّع عليهم لدراسته .

انتهى المعيد من إرشاد نبيلة فتركها وأخذ يجول فى أنحاء المعمل ، وساد السكون ، وانهمك معظم الطلبة فى قطع شرائح رقيقة بالموسى ثم فحصها تحت الميكروسكوب .

وبغتة دوت فى المعمل صرخة حادة ، فانتفض الجميع واتجهت أبصارهم إلى مصدر تلك الصرخة ، فإذا بالدم يسيل من أحد أصابع نبيلة ، فقد توغل الموسى فى إصبعها فى أثناء محاولتها قطع شريحة النبات .

ترك الطلبة كراساتهم وأمواسهم وميكروسكوباتهم والتفت أنظارهم جميعا نحو نبيلة وهم جالسون فى أماكنهم وانتفض سعيد عزت واقفا بحركة شبه انعكاسية لا سيطرة للإرادة عليها وكأنه يريد أن يسعفها وقد شحب لونه ولكنه لايجرؤ على التقدم نحوها ، فجلس متوتر العضلات والأعصاب ، وهرع المعيد إليها وطلب منها أن تفتح صنبور الماء فوق أصبعها ، ثم أمسك به وضغط على الجرح ، وطلب منها أن تظل ضاغطة على الجرح ، وخرج مسرعا من المعمل وعاد ومعه شاش وقطنة مشربة بصبغة اليود وضمد جرحها وقام بعمل الشريحة التى كانت تحاول قطعها من ساق النبات ، ووضع لها الشريحة تحت الميكروسكوب وبدأت ترسم فى كراستها ماتراه تحت عدسات الميكروسكوب .

نظر مختار إلى سعيد عزت فوجده لايزال شاحب الوجه مضطربا غير قادر على التركيز فقال له مهدئا :

ـ لا تقلق ياسعيد ، إنه جرح بسيط .

فشعر سعيد بالخجل وخشى أن تكون عاطفته نحوها التى يمعن فى إخفائها قد افتضح أمرها ، فانتابه شعور غير مريح ، وانحنى على الميكروسكوب قائلا وكأنه يحدث نفسه :

ـ شىء مؤلم أن ينزف من إصبعها كل هذا الدم .

- ٣ -

لم يكن الأوتوبيس مزدحما عند عودة مختار ورشاد بعد انتهاء اليوم الدراسى فجلسا متجاورين صامتين حتى وصل الأوتوبيس إلى تقاطع شارعى الملك والملكة نازلى . كان رشاد يفكر فى شىء فارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة والتفت نحو مختار قائلا :

ـ أرأيت كيف اصفرّ واخضرّ وجه سعيد عزت عندما رأى الدم يسيل من أصبع نبيلة ؟.

ولكن مختارا كان يفكر فى شىء آخر فتجاهل حديث رشاد وقال :

ـ أنا متألم من أجل عبد الحميد الشاعر ، إننا نتركه بمفرده فى المنزل طوال النهار .

ـ وهل هو طفل صغير؟ إنه رجل طويل عريض .

ـ ليس عريضا ، إنه طويل فقط .

ـ تجده الآن جالسا فى الشرفة يدندن بصوته الذى يشبه نقيق الضفدع .

ـ هذا الرجل فنان ، فنان أصيل ، لا يوجد واحد فى المليون ينظم أشعارا فى مثل جمال أشعاره .

ـ فليبلّها ويشرب ماءها .

عندما وصلا إلى البيت لم يكن شريف قد وصل ، ولم يكن عبد الحميد جالسا فى الشرفة ينظم قصيدة شعر ، بل كان جالسا مكتئبا مطرقا للأرض فى أحد أركان البهو ، فسأله مختار :

ـ ماهى الأخبار ياعبد الحميد ؟ قصدى أقول كيف أحوالك ؟

قال عبد الحميد دون أن يرفع بصره عن الأرض :

ـ أحوالى زفت وقطران . الدنيا بالنسبة لى يوم مكرر . سئمت هذه العيشة المهببة . أنا طوال النهار جالس هذه الجلسة المؤلمة .

ـ ولماذا لم تخرج ؟.

ـ أخرج ؟ وإلى أين أذهب ؟.

ـ ماذا جرى لك ؟ هل حدث ما كدّرك ؟

ـ هأنذا دعيش كالكلب ، عيشة مقرفة خالية من الأمل قد يكون الكلب أسعد منى حالا . هل تصدقا أن بنتا تافهة كهذه تبصق فى وجهى ؟!.

أطلق رشاد ضحكة مدوية واقترب من عبد الحميد وقال :

ـ من هى البنت التى بصقت فى وجهك ياعبد الحميد ؟.

ـ البنت التى سكنت أمامنا .

ـ وما الذى جعلها تبصق فى وجهك ؟.

وهنا دخل شريف فوجد عبد الحميد جالسا ورشادا ومختارا واقفين أمامه فقال :

ـ ماذا حدث ؟.

قال رشاد :

ـ بنت الجيران الذين سكنوا أمامنا . بصقت فى وجه عبد الحميد .

قال شريف بدهشة :

ـ أبهذه السرعة ؟ ولماذا بصقت فى وجهك ياعبد الحميد ؟ لابد أنك عملت عملة سوداء .

قال عبد الحميد وكأنه ماثل أمام أحد رجال النيابة :

ـ لم أعمل شيئا كنت جالسا فى الشرفة فى أمان الله . وكنت أدندن .

صاح شريف قائلا :

ـ ألن تتوب عن هذه الدندنة ؟.

قال عبد الحميد بانفعال :

ـ أنا حر ياأخى . هل يوجد قانون يمنع الدندنة ؟.

قال مختار محاولا تهدئة الموقف :

ـ أنت حر طبعا . لا يوجد قانون يمنع الدندنة . وماذا حدث بعد ذلك ؟

قال عبد الحميد :

ـ بينى وبينك صدرت منى كلمة .

قال مختار :

ـ ماهى ؟.

ـ البنت جميلة جدا ، وعن غير قصد وبدون وعى وجدتنى أقول لها « متى الوصال ياقمر ؟ » ، فبصقت فى وجهى وأغلقت النافذة .

ضحك رشاد وقال :

ـ خيرا فَعَلَت . تعيش وتأخذ غيرها .

التفت عبد الحميد نحو نافذة المحبوبة وقال فى همس كأنه يخشى أن تسمعه :

ـ على أية حال ، لقد عرفتُ اسمها .

فقال رشاد بلهفة :

ـ ما اسمها ؟.

قال عبد الحميد وكأنه يتذوق كل حرف من حروف اسمها كما يتذوق قضمة تفاحة شهية :

ـ اسمها روحية .

صاح رشاد قائلا :

ـ ياروحى . وكيف عرفت اسمها ؟.

ـ سمعت أمها تناديها .

صاح شريف قائلا :

ـ أنا لا تعجبنى هذه الفضائح .

ـ أنا لم أفعل شيئا معيبا ولم أتسبب فى أية فضائح لا سمح الله ولا قدر.

قال مختار محاولا تغيير مجرى الحديث :

ـ هل نظمت قصائد جديدة ياعبد الحميد ؟

قال عبد الحميد باقتضاب :

ـ كلا .

فى هذه اللحظة فتحت النافذة . أحسَّ عبد الحميد بهذه الحركة فانتفض واقفا وقد تلاشى الاكتئاب الذى كان يكسو وجهه وحلت محله ابتسامة مشرقة . كانت روحية مرتدية قميص نوم أصفر وممسكة بصينية للقلل بها قلتان يتوج كلا منهما غطاء نحاسى لامع . وضعت الصينية على حافة النافذة ، فطار لب عبد الحميد وأخذ يترنم بصوت منخفض قائلا :

ـ عطشان ياصبايا دلونى على السبيل .

والتفت الجميع نحو النافذة لرؤية هذه المخلوقة الجميلة التى سبق أن بصقت فى وجه عبد الحميد ، ولكن الابتسامة التى ارتسمت على شفتى عبد الحميد لم تدم طويلا ، فلقد أسرعت روحية بإغلاق النافذة وانبعث من إغلاقها صوت سمعه عبد الحميد وكأنه دوىّ المدافع .

فصاح رشاد قائلا :

ـ خسارة ، لولاك ياعبد الحميد لما أغلقت النافذة .

تفرس عبد الحميد فى الوجوه الثلاثة الناظرة إليه وقال :

ـ ما رأيكم فيها ؟.

لم يتلق أية إجابة عن سؤاله ، فعاد يقول :

ـ ما رأيك فيها يامختار ؟ ألا تلتمس لى العذر إذا خفق لها قلبى ؟.

قال مختار :

ـ أنا شخصيا لا أرى فيها أىّ جمال .

فصاح عبد الحميد قائلا :

ـ أعمى ! وأنت يارشاد ، ما رأيك فيها ؟.

ـ ليست قبيحة .

قال عبد الحميد :

ـ على أية حال ، أنا غرضى شريف ، قررت أن أخطبها وأتزوجها .

قهقه رشاد طويلا وقال بسخرية مريرة :

ـ تتزوجها ؟ أنت تتزوج ؟ اشرح لى كيف ستتزوجها ياعبد الحميد ياشاعر .

فصاح عبد الحميد فى غضب :

ـ هل تريد أن أشرح لك كيف سأتزوجها ؟ شىء بارد . هذه مسائل خصوصية ، أتزوجها كما يتزوج الناس ، ألستُ إنسانا كباقى البشر؟ أليس من حقى أن تهفو نفسى للزواج ؟.

قال شريف :

ـ المسألة مسألة ممكنات . الإنسان لايفكر فى الزواج إلا إذا توافرت لديه ممكناته تزوج عندما تجد عملا .

ـ سأجد عملا . هل سأظل عاطلا للأبد ؟ أنا مدرس ممتاز . ومسألة الزواج من روحية فرصة لا ينبغى أن أتركها تفلت من يدى فرصة لن تتكرر .

قال رشاد :

ـ من حيث كونها فرصة . هى فرصة حقيقةً . ليس من السهل أن تصادف فتاة غيرها تبصق فى وجهك .

انتفض عبد الحميد وقال :

ـ لقد أسعدتنى هذه البصقة فهى دليل على نقائها وطهرها . ولهذا السبب قررت الزواج منها .

قال رشاد :

ـ إذا كانت البصقة أسعدتك فإننى أتمنى لك مزيدا من السعادة . لكن قل لى ، أريد أن أسألك سؤالا لا أحب أن يغضبك .

ـ مادمت خائفا أن يغضبنى فلابد أنه سيغضبنى ، تفضل اسأل .

ـ كم سنك الآن ؟

ثار عبد الحميد قائلا :

ـ أكلما رأيت خلقتى تسألنى عن سنى ؟ أنا فى عز شبابى ، تسع وأربعون سنة هى عز الشباب .

قال رشاد :

ـ وهى . كم سنها ؟.

قال عبد الحميد :

ـ حوالى سبع عشرة سنة ، عز الطلب .

قال رشاد :

ـ وهل من المعقول أن تكون فى التاسعة والأربعين وتفكر فى الزواج من بنت فى السابعة عشرة ؟ أليس هذا حراما يارجل ؟.

أطرق عبد الحميد للأرض فى حزن وقال :

ـ ليس هذا ذنبى ، لم تسنح لى فرصة الزواج قبل ذلك .

قال مختار :

ـ وما ذنبها هى ياعبد الحميد ؟.

فصاح عبد الحميد قائلا :

ـ وماذا أصنع ؟ هل أقتل نفسى ؟ كلكم تحاكموننى كأننى مجرم ، حتى أنت يامختار ؟.

قال مختار :

ـ أنا لم أقصد ذلك .

قال رشاد :

ـ أنت حر فى نفسك . تقتل نفسك أو لا تقتلها هذا شىء يخصك أنت ، ولكن حرام أن تفكر فى إتعاس فتاة صغيرة بريئة وأنت عاطل وفى هذه السن . هذا لو افترضنا موافقتها على هذا الزواج المطيّن .

انتفض عبد الحميد غاضبا وقال :

ـ ولماذا لا توافق ؟ أنا قوى كالحصان وما زلت بخيرى . لم أعرف فى حياتى أية فتاة ، والعبرة ليست بما مضى من العمر بل بما تبقى منه . أليس من المحتمل أن أعمّر إلى التسعين أو المائة ويموت شاب فى الخامسة والعشرين أو الثلاثين ؟.

قال شريف :

ـ أنت حر . أعمل ما يحلو لك ، ولكننى أعتقد أنه من الأفضل تأجيل مثل هذا الحديث وتقوم لنتعشى .

ـ ٤ ـ

كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة بعد الظهر فى ذلك اليوم من أيام الجمعة وقد جلس رشاد فى البهو مسترخيا ممسكا فى يده كراسة علم الحيوان وعيناه تراقبان شباك روحية منتظرا اللحظة السعيدة التى سيُفتح فيها وتطل منه . ولكنه ظل مغلقا . كان شريف معتكفا فى غرفته منهمكا فى مذاكرة علم النبات ، ولما طال انتظار رشاد ويئس من فتح الشباك وضع الكراسة على منضدة بجواره وتثاءب وتمطى ، ثم قام واقتحم غرفة شريف الذى لم يعره انتباها وظل مشغولا بالمذاكرة .

جلس رشاد على حافة سرير شريف وقال :

ـ هل نويت الاشتراك فى رحلة برج العرب ؟.

قال شريف دون أن ينظر إليه :

ـ المفروض أن نذهب جميعا فى هذه الرحلة ، الدكتور أوليفر قال إنه سيضع سؤالا فى الامتحان عن نباتات هذه المنطقة .

فقال رشاد مبتسما ابتسامة خبيثة :

ـ ونبيلة ، هل ستأتى معنا فى هذه الرحلة ؟.

قال شريف وهو لايزال ناظرا للكتاب الذى أمامه :

ـ يخيّل إلىّ ذلك .

ـ ولكن كيف تشترك بنت فى رحلة بها ثلاثة وعشرون طالبا وتمضى معهم أكثر من أسبوعين فى استراحة برج العرب ؟ هل هذا معقول ؟.

ـ وما المانع ؟ طبعا ستبيت بمفردها فى غرفة مستقلة وسيكون معنا مشرفون على الرحلة من الأساتذة .

ـ يبدو أنها ستكون رحلة رائعة .

ـ أجل ، ستكون رحلة مفيدة . سنرى مجموعة من النباتات لم نرها من قبل .

ضحك رشاد وقال :

ـ أنا لا أقصد ذلك .

ـ وماذا تقصد ؟.

ـ أقصد أن الدكتور منير سيكون ضمن المشرفين على الرحلة .

ـ وما الشيء الغريب فى ذلك ؟ مابه الدكتور منير؟

ـ الدكتور منير يستلطف نبيلة .

التفت شريف نحو رشاد وصاح بعصبية قائلا :

ـ ياناس حرام عليكم ، كفى أفكارا حقيرة .

نظر شريف إلى ساعته فوجدها قد توقفت . فهز يده هزّة عنيفة لكى تستأنف عقارب الساعة الدوران وقال لرشاد :

ـ كم الساعة الآن ؟.

ـ ثلاثة ونصف وخمس دقائق .

ـ ولماذا لم يرجع مختار حتى الآن ؟.

ـ تجده جالسا فى حديقة الأندلس متمنيا رؤية الحبيبة المجهولة .

ـ ولماذا لا يكون جالسا يذاكر ؟ أفكارك دائما حقيرة .

قام شريف ليصلى العصر ثم خرج إلى البهو فوجد رشادا جالسا وعيناه متجهتان نحو شباك روحية . فى هذه اللحظة دخل عبد الحميد مبتسما على غير العادة . فابتدره شريف قائلا :

ـ أين كنت ياعبد الحميد ؟ لماذا تأخرت ؟ كنت أخشى أن تكون مت .

فقال عبد الحميد والفرحة تكسو وجهه :

ـ كلا ، لم أمت ، وعندى لكم مفاجأة لا تخطر على البال .

عندما سمع رشاد هذه الجملة قام واقترب من عبد الحميد وقال بلهفة :

ـ ماهى هذه المفاجأة ياعبد الحميد ؟.

قال عبد الحميد :

ـ أنا أدعوكم الليلة للعشاء فى أفخم مطعم فى البلد .

نظر إليه رشاد بدهشة وقد انفرجت شفتاه وقال :

ـ غير معقول . أخشى أن تكون نشلت محفظة فى الترام .

اكفهر وجه عبد الحميد وتلاشت ابتسامته وقال :
ـ أنا أنشل محفظة ؟ وهو كذلك . لن أقول لكم شيئا . لستم أهلا للنعمة . فلتتعشوا هنا فولا وطعمية .
استاء شريف من تلك الإهانة التي وجهها رشاد لعبد الحميد الشاعر وقال محاولا ترضيته :
ـ حقك عليَّ أنا ياعبد الحميد . أنت تعلم أن رشادا لا يقصد إهانتك . قل لى ، ماذا حدث ؟.
عادت الابتسامة إلى وجه عبد الحميد ولمعت الفرحة فى عينيه من جديد كطفل صغير وقال :
ـ أنا معى ثلاثة جنيهات !.
قال شريف بدهشة :
ـ ثلاثة جنيهات ؟ ! تعال اجلس ، قصّ علينا كيف هبطت عليك تلك الثروة .

جلس عبد الحميد عند منضدة الطعام التى فى البهو وتحت إبطه لفافة لم يشأ أن يضعها أمامه على المنضدة بل ظل محتفظا بها ضاغطا عليها وكأنه يخشى أن تهرب منه ، وجلس شريف ورشاد فى الجهة المقابلة له بآذان صاغية لمعرفة تفاصيل هذه القصة العجيبة ، قال شريف :

ـ ماذا حدث ياعبد الحميد ؟ قصى علينا .
قال عبد الحميد :
ـ أنا تجرأت ودخلت جروبى » !.
شهق رشاد شهقة هائلة وقال :
ـ غير معقول ! جروبى ؟ ! أنت تدخل جروبى ؟!.
وقال شريف :
ـ كيف حدث هذا ؟.
ـ رأيت عبد الرازق باشا يدخل فمرقت خلفه .
قال رشاد بلهفة :
ـ ثم ماذا ؟.
فى هذه اللحظة فتح الباب ودخل مختار ، فابتدره شريف قائلا :
ـ تعال يامختار اسمع ، أخبار عجيبة جدا .
قال مختار :
ـ أخبار؟ ماهى هذه الأخبار؟.
قال رشاد :
ـ حدثت معجزة ، عبد الحميد الشاعر معه ثلاثة جنيهات .
قال مختار :
ـ ثلاثة جنيهات حقيقية ؟.
قال عبد الحميد :
ـ طبعا حقيقية ، أتظنها مزيَّفة ؟.

قال رشاد بلهفة :

ـ أكمل ياعبد الحميد ، ماذا حدث بعد ذلك ؟.

قال عبد الحميد :

ـ كنت أقول إننى رأيت عبد الرازق باشا داخلا جروبى فتسللت ودخلت خلفه .

قال مختار بدهشة :

ـ جروبى ؟ ! ألم تخف ؟.

قال عبد الحميد :

ـ كلا ، لم أخف لأننى كنت أحتفظ فى جيبى بتعويذة .

قال مختار :

ـ تعويذة ؟ كيف ؟.

قال عبد الحميد :

ـ كانت فى جيبى قصيدة من أجمل الأشعار التى نظمتها فى حياتى .

نظر رشاد إليه بدهشة وقال ساخرا :

ـ هل يدخلون جروبى فى هذه الأيام بالأشعار ؟.

قال عبد الحميد :

ـ القصيدة مدح فى عبد الرازق باشا وفى حزب الأحرار الدستوريين .

قال رشاد :

ـ ولكننى أعلم أنك متحمس لحزب الوفد .

قال عبد الحميد :

ـ فى جيبى قصيدة أخرى أمدح فيها حزب الوفد ، أحتفظ بها فى جيبى الآخر ، جيبى الأيسر.

قال شريف :

ـ ثم ماذا حدث ؟.

قال عبد الحميد :

ـ صافحت عبد الرازق باشا ، فدعانى للجلوس معه .

قال رشاد فاغرا فمه دهشة :

ـ وجلست ؟.

قال عبد الحميد :

ـ طبعا ، جلست فى الحال ، ومددت يدى فى جيبى فأخرجت القصيدة وجدتها قصيدة الوفد فأسرعت بدسِّها فى جيبى الأيسر ومددت يدى فى جيبى الأيمن فأخرجت قصيدة الأحرار الدستوريين وقرأتها لعبد الرازق باشا .

قال مختار :

ـ وهل أعجبته القصيدة ؟.

قال عبد الحميد وقد شعر بأنه يمتلك شيئا يمكنه أن يفخر به :

ـ كيف لا تعجبه ؟ لولا وجود الناس الأكابر الذين كانوا جالسين حولنا لقام وحضننى وقبلنى إعجابا .

قال مختار :

ـ ألهذه الدرجة ؟ اقرأها ، اقرأ لنا القصيدة .

قال رشاد متهكما :

ـ يقرأ القصيدة ؟ وهل هذا وقت قراءة قصائد ؟ أكمل ياعبد الحميد ، ماذا حدث بعد ذلك ؟.

قال عبد الحميد :

ـ بعد ذلك وضع عبد الرازق باشا يده فى جيبه وأخرج المحفظة ، محفظة (متختخة) مثل البطة (المتزغطة) ، وأخرج منها ثلاثة جنيهات أعطاهم لى مكافأة على القصيدة .

قال مختار مبديا إعجابه :

ـ شيء رائع .

قال عبد الحميد :

ـ وهل تظن أن الأمر اقتصر على ذلك ؟.

قال رشاد بلهفة :

ـ ماذا حدث ؟.

قال عبد الحميد :

ـ طلب منى أن أحضر إلى جروبى لأجلس معه ، تصوروا ، أنا أجلس مع عبد الرازق باشا فى جروبى !

قال مختار :

ـ غير معقول . اسمع ياعبد الحميد ، يخيل إلىَّ أن مسألة الجلوس معه فى جروبى من اختراعك .

صاح عبد الحميد قائلا بانفعال :

ـ كل شيء غير معقول ، غير معقول ؟ ألست إنسانا مثله ؟.

قال رشاد :

ـ إنسان ، ولكنك لست مثله . هل يجلس مع الباشوات كل من هب ودب من الناس ؟.

قال عبد الحميد وقد سحقته الإهانة محاولا السيطرة على أعصابه :

ـ وهل أنا فى نظرك كباقى الناس ؟ مثلك لا يستطيع أن يفهم أو يقدر قيم الناس . أنا شاعر . شاعر موهوب ، عبد الرازق باشا أقر بذلك ، قال لى « أنت موهوب » ، وإذا قال عبد الرازق باشا عنّى إنى موهوب فلابد أن أكون موهوبا ، هل تفهم أكثر من الباشوات ؟.

قال مختار :

ـ طبعا موهوب . ثم ماذا ؟ ماذا حدث بعد ذلك ؟.

قال عبد الحميد :

ـ وقال لى إن بدلتى هذه غير لائقة ، ولكى أدخل جروبى وأجلس معه لابد أن يكون مظهرى لائقا ، فأخرج المحفظة ...

صاح رشاد مقاطعا :

ـ أخرج المحفظة (المتختخة) مرة أخرى ؟ .

قال عبد الحميد :

ـ نعم ، أخرج المحفظة مرة أخرى وأعطانى جنيهين .

قال مختار :

ـ جنيهان غير الثلاثة جنيهات ؟.

قال عبد الحميد :

ـ أجل ، ألا تفهمون ؟ ألم أقل لكم إنه أخرج المحفظة مرة أخرى ؟.

قال مختار :

ـ ولماذا أعطاك هذين الجنيهين ؟.

قال عبد الحميد ويده تضغط بقوة على اللفافة التى تحت إبطه :

ـ طلب منى أن اشترى بهما قطعة قماش صوف انجليزى وأفصّلها بدلة ، ليكون مظهرى لائقا عندما أجلس معه .

قال رشاد :

ـ أهيَ الملفوفة فى تلك الورقة التى تحت إبطك ؟.

قال عبد الحميد :

ـ نعم هى .

قال رشاد :

ـ أرنى ، أريد أن أعرف ذوقك فى الاختيار .

وضع عبد الحميد اللفافة على المنضدة وأخرج منها قطعة القماش وقال :

ـ هاهى ذى ، ما رأيكم فى ذوقى ؟.

قال رشاد :

ـ هائل ، لم أكن أتصور أن ذوقك رفيع المستوى لهذه الدرجة . هل تعلم أن هذا اللون بالذات كنت أبحث عنه منذ زمن بعيد ؟.

قال عبد الحميد على الفور بلهجة جادة :

ـ خذها إذا كنت تريدها .

قال رشاد :

ـ هذا غير معقول .

قال عبد الحميد :

ـ قسما بالله العظيم لتأخذنها .

قال شريف :

ـ ماهذا الذى تقوله ياعبد الحميد ؟ إنها قطعة قماشك التى اشتريتها لتلبسها فى جروبى . كيف تتنازل عنها بهذه السهولة ؟.

قال عبد الحميد :

ـ ما دامت اعجبته فليأخذها ، أليس من واجب الإنسان أن يساعد أصدقاءه ؟.

قال شريف :

ـ أجل ، يساعد أصدقاءه عندما يكون قادرا على المساعدة ، أما أنت ففى أشد الحاجة إليها .

قال عبد الحميد :

ـ ولكننى أقسمت أن يأخذها .

قال مختار :

ـ هذا كلام غير معقول .

قال رشاد :

ـ يقول لك إنه أقسم ، هل تطلب منه أن يحنث بيمينه ؟ هل تحرضه على دخول النار ؟.

قال مختار :

ـ أنت الذى ستدخل جهنم . هل يسمح ضميرك بالاستيلاء عليها ؟ هل تستبيح قبول هدية من إنسان محتاج ؟.

قال عبد الحميد :

ـ مبروك عليه . أنا مصمم على إهدائها له .

قال رشاد :

ـ الله يبارك فيك ، ولو أنى غير مرتاح لتصميمك هذا .

قال مختار وكأنه يحدث نفسه :

ـ عجائب .

وقال شريف :

ـ شىء غير معقول .

فقال عبد الحميد :

ـ هذا شأنى أنا . أنا حر فى ممتلكاتى .

قال شريف :

ـ ياعبد الحميد أنت لا تملك سوى حصيرة قديمة ، فكيف تفرط فى شىء ثمين كهذا ؟.

قال عبد الحميد :

ـ إنها نعمة كبرى أن يكون لدىَّ ما يمكننى إهداءه لأحد الأصدقاء ، خذها يارشاد ، خذها .

أعاد رشاد لفَّ قطعة القماش فى ورقتها بعناية ووضعها تحت ذراعه وقال لعبد الحميد :

ـ كنت تتحدث عن الطعام فى أفخم مطعم .
قال عبد الحميد :
ـ نعم ، أنا أدعوكم الليلة للعشاء فى أفخم مطعم تختارونه
قال مختار متململا :
ـ لا داعى لهذا العشاء ياعبد الحميد ، أنت فى أشد الحاجة لهذه الفلوس . فصاح عبد الحميد قائلا بحماس شديد :
ـ قسما بالله العظيم لابد من العشاء الليلة فى « شبرد » .
قال مختار :
ـ ولماذا لا نتعشى فى مكان متواضع مثل ... مثل مطعم « الوردة البيضاء » مثلا ؟.
قال عبد الحميد ساخرا :
ـ مطعم الوردة البيضاء ؟ ! لا بيضاء ولا حمراء . لماذا لا نذوق طعم النعمة ليلة فى العمر ؟ لا أحد يضمن عمره ، لن نأخذ من الدنيا شيئا .
قال رشاد :
ـ هل أنت مصمم ؟.
قال عبد الحميد :
ـ طبعا مصمم ، ألا ينبغى أن يُكْرِمَ الإنسانُ أصحابَه ؟ منذ أربعين عاما وأنا فى انتظار فرصة كهذه .
قال رشاد :
ـ ياجماعة أليست فى قلوبكم رحمة ؟ لا تضيّعوا هذه الفرصة منه .
قال عبد الحميد :
ـ أنتم أفضالكم علىَّ .
قال مختار :
ـ عيب ياعبد الحميد ، لا تقل هذا الكلام .
قال عبد الحميد :
ـ هيا بنا إلى شبرد .
قال مختار مترددا :
ـ أنا لم أدخل شبرد فى حياتى .
وقال شريف :
ـ ولا أنا .
وقال رشاد :
ـ ولا أنا .
فقال عبد الحميد :
ـ وهل دخلته أنا ؟ لا داعى للخوف فهو لا يخيف .

- ٥ -

فى نحو السابعة مساء وصل الأربعة إلى فندق شبرد ووقفوا عند الباب فترة قصيرة مترددين فى الدخول . ولكن عبد الحميد تقدم واقتحم المكان ، وبحركة لا إرادية تحسس النقود التى فى جيبه ، وسار الثلاثة خلفه . جلس الجميع حول منضدة فى أحد أركان المطعم ومد عبد الحميد يده فتناول قائمة الطعام وحاول أن يفهم ما فيها فلم يستطع ، فناولها لمختار قائلا :

ـ خذ يامختار فك لنا هذه الطلاسم ، إنها تشبه جداول اللوغاريتمات .

بعد مداولات أمكنهم التعرف على أنواع الطعام التى بالقائمة ، واستقر رأيهم على أن يطلبوا شوربة ودجاج ومكرونة ، وأخذوا يتناولون طعامهم فى صمت رهيب وكأنهم فى معبد ، وبعد الانتهاء من تناول الطعام قال عبد الحميد :

ـ هل شبعتم أم تريدون مزيدا من الطعام ؟ أنتم ضيوفى الليلة .

قال مختار :

ـ لا ياعبد الحميد ، نشكرك على هذا العشاء اللذيذ .

فقال رشاد :

ـ أنا شخصيا كنت أفضل العشاء عند الحاتى ، أحب الكباب .

فصاح شريف قائلا :

ـ ماهذا الكلام يارشاد ؟.

قال عبد الحميد :

ـ غدا نتعشى كبابا عند الحاتى ، أنتم ضيوفى غدا .

قال مختار :

ـ لا ياعبد الحميد ، لا داعىَ لذلك ، شكرا لك .

قال عبد الحميد :

ـ أنا مصمم على دعوتكم غدا للعشاء عند الحاتى ، لن نأخذ معنا شيئا إلى القبر ، إنه خير جاء من عند الله يجب أن نتمتع به جميعا .

تصرف عبد الحميد وكأنه مليونير ، فدفع الحساب وترك للجرسون منحة ضخمة ، وغادروا الفندق .

لمح عبد الحميد إحدى سيارات الأجرة فلوح بيده صائحا :

ـ تاكسى ، تاكسى .

ولكن السيارة لم تتوقف . قال مختار بانفعال :

ـ ماذا جرى ياعبد الحميد ؟ هل سنركب تاكسيا ؟.

قال عبد الحميد :

ـ وهل يليق أن نخرج من شبرد ونركب الترام أو الأوتوبيس ؟ هل هذا معقول ؟ إنها ليلة مفترجة .

أقبلت سيارة أجرة أخرى فصاح عبد الحميد بأعلى صوته قائلا :
ـ تاكسى ، تاكسى .
لم تتوقف السيارة فى هذه المرة أيضا فقال عبد الحميد مندهشا :
ـ التاكسى لا يريد أن يقف ، كأنه يعرفنى !.
حانت منه التفاتة نحو مختار فوجده مضطربا زائغ النظرات فسأله بلهفة :
ـ مابك يامختار ؟ هل تشعر بتعب ؟.
قال رشاد :
ـ من اعتاد الغذاء فى مطعم الوردة البيضاء يمرض لو أكل فى شبرد .
صاح مختار قائلا :
ـ هاهى ، هاهى !.
لم يفهم عبد الحميد شيئا وظل محملقا فى وجه مختار وسأله رشاد :
ـ من هى ؟.
ـ البنت التى رأيتها فى حديقة الأندلس .
قال عبد الحميد :
ـ ولماذا انزعجت هكذا ؟ هل رؤيتها تسبب لك كل هذا الفزع ؟.
قال مختار وكأنه لم يسمع شيئا :
ـ لم أكن أتصور أننى سأراها مرة أخرى .
شعر رشاد برغبة قوية فى رؤية هذه الفتاة فقال بلهفة :
ـ أين هى ؟ أين هى ؟.
أشار نحوها مختار قائلا :
ـ هاهى ذى ، المرتدية الثوب الأزرق . لقد خرجت لتوها من المحل ، لابد أنها كانت تشترى شيئا .
قال رشاد :
ـ هل هى الواقفة عند محطة الأوتوبيس ؟.
ـ نعم ، هى .
قال رشاد :
ـ ولماذا تضيع الوقت فى الكلام معنا ، لماذا لاتذهب وتكلمها هى ؟.
ـ لا أظن أنها تذكرنى ، لا يمكننى التحدث مع فتاة لا تعرفنى .
قال رشاد وهو يُهم بالاندفاع نحوها :
ـ إن لم تكلمها فسأكلمها أنا .

أقبلت فى هذه اللحظة سيارة أوتوبيس فأسرعت إليها الفتاة واختفت بداخلها ، فصاح رشاد قائلا وكأنه هو الذى فقدها :

ـ خسارة . اركب الأوتوبيس معها ، هيا أسرع وإلاّ فسأذهب أنا وأتعرف بها .
تحرك الأوتوبيس فهمَّ رشاد بالجرى ليلحق به ولكن مختارا جذبه من يده قائلا :
ـ تعال هنا . هل جننت ؟.
قال عبد الحميد :
ـ هل تحب يامختار أن نستقل تاكسيا ونجرى خلف الأوتوبيس ؟.
قال شريف غاضبا :
ـ ماذا جرى لك ياعبد الحميد ؟ ماهذا الكلام الذى تقوله أنت أيضا ؟.
قال رشاد :
ـ أنا متأكد أن مختارا لن ينام فى ليلته . لكنك على حق يامختار . البنت حلوة جدا . أجمل بنت رأيتها فى حياتى .
ثم التفت إلى عبد الحميد قائلا فى سخرية :
ـ ما رأيك ياعبد الحميد ؟ أيهما أجمل . هى أم روحية ؟.
قال عبد الحميد :
ـ روحية على قدر حالى . مثل هذا الجمال كثير علىَّ . رحم الله امرأً عرف قدر نفسه .
قال رشاد :
ـ نسيت أن أقول لك ياعبد الحميد إن الشباك الذى كان مغلقا فُتح اليوم
قال عبد الحميد وقد انتابه شعور غير مريح :
ـ شباك ماذا ؟.
ـ شباك روحية .
ـ غير معقول ، ومن الذى فتحه ؟
ـ هى التى فتحته .
ـ هل رأيتها وهى تفتحه ؟.
ـ نعم رأيتها . كانت تطل من النافذة وقد شبكت يديها وركنت عليهما بذقنها .
ـ ذقنها ؟ ياحلاوة ، وفى أية داهية كنت أنا فى هذه اللحظة ؟.
قال رشاد بسخرية مريرة :
ـ كنت مع عبد الرازق باشا تقرأ له القصيدة .
وضحك ضحكة عالية وقال :
ـ أنا متأكد أنها لم تفتح النافذة إلا بعد أن تأكدَتْ من عدم وجودك فى البيت .
قال عبد الحميد وقد اعتصر الحزن قلبه :
ـ هكذا حظى . أنا أدرَى الناس بحظى .

نظر شريف إلى مختار فوجد نظراته الشاردة وحركاته المضطربة تنم عن انتقاله بفكره إلى دنيا غير الدنيا ، فسأله :

ـ ما بك يامختار ؟

ـ لست أدرى ما الذى جرى لى ، منذ رأيت هذه البنت الليلة وأنا لا أستطيع التوقف عن التفكير فيها .

فى هذه اللحظة رأى عبد الحميد تاكسيا مقبلا . فرفع صوته بكل قوته مناديا :

ـ تاكسى ، تاكسى .

وقف التاكسى بالقرب منهم . فهرولوا واستقلوه وانطلق بهم نحو حارة البحرى .

ـ ٦ ـ

بعيدا عن الشرفة . احتل رشاد مكانا استراتيجياً يسمح له برؤية شباك روحية دون أن يثير الانتباه ، وأصبح هذا مكانه المفضل يقضى فيه الساعات الطوال متظاهرا بقراءة إحدى الكراسات أو أحد الكتب مختلساً النظر من آن لآخر إلى الشباك الذى لم يعد يفتح إلاّ نادرا . بعد نحو أسبوعين من وليمة شبرد كان جالسا فى هذا المكان عندما خرج شريف من غرفته مرتديا ملابس الخروج . لم يلاحظ نظرات رشاد المصوَّبه نحو نافذة روحية وظنه مندمجا فى المذاكرة . قال له :

ـ ألم تلاحظ التغيير الذى طرأ على عبد الحميد الشاعر ؟.

ـ لا ، لم ألاحظ شيئا .

ـ يبدو أنه أقلع عن الدندنة والجلوس فى الشرفة المقابلة لنافذة روحية .

ـ هذا شىء طبيعى ، فلقد اكتفى ببصقة واحدة ولا يرغب فى المزيد .

ـ ربنا يهديه ويعقِّله ويبعد عنا الفضائح .

ـ آمين يارب .

ـ ألا تعلم أين ذهب ؟.

ـ لم يخبرنى .

ـ وأين ذهب مختار ؟.

ـ خرج وأنت نائم ، لابد أنه ذهب إلى حديقة الأندلس .

ـ سأذهب لشراء ورق وكراسات ، هل تحب أن تأتى معى ؟.

ـ أشعر اليوم بتعب وأفضل الاعتكاف فى البيت .

وبينما يهم شريف بالخروج قاله رشاد :

ـ خذ هذين القرشين وأحضر لى معك كشكولا كبيرا للمحاضرات واحتفظ لنفسك بالخمسة مليمات الباقية .

خرج شريف وأقفل الباب وانبعث من راديو فى مكان قريب صوت محمد عبد الوهاب يغنى أغنية . « مريت على بيت الحبايب » ، وبينما ينصت رشاد للأغنية سمع جرس الباب فصاح قائلا :

ـ من ؟ من بالباب ؟.

لم يسمع ردا قام وفتح الباب ففوجئ برؤية رجل تذكر أنه رآه ذات مرَّة من خلال نافذة روحية . قال :

ـ من حضرتك ؟.

ـ أنا جاركم ، هل تسمح لى بالدخول ؟ أريد التحدث معك فى أمر هام .

لابد أنه والد روحية ، ولكن ماذا يريد منى ؟ هل جاء ليؤنبنى على النظر إلى روحية عندما تفتح النافذة ؟ اللهم اجعله خيرا .

ـ حضرتك والد ....

قبل أن يكمل جملته قال الرجل :

ـ أجل ، أنا والد روحية .

بذل رشاد أقصى مايمكنه من ترحيب قائلا :

ـ أهلا وسهلا ، أهلا وسهلا ، تفضل

دخل الرجل . إنه فى نحو الخمسين طويل أحمر الوجه ذو شارب كث مُعتَنى به يرتدى بدلة زرقاء أنيقة جلس على طرف الكنبة البلدى التى فى البهو وأطرق للأرض ملتزما الصمت مجهدا ذهنه فى كيفية بدء الحديث وصياغته فى أقل عدد من الكلمات .

قال رشاد وقد اشتاق لمعرفة سبب قدوم الضيف :

ـ خطوة عزيزة ، أهلا وسهلا .

ـ أهلا بك يا ابنى .

ـ قهوة حضرتك ...

قاطعه الضيف قائلا :

ـ لا يا ابنى ، لا داعى للقهوة فلن أمكث طويلا . جئت للاستفسار عن بعض الأمور وسأقوم على الفور .

ـ خير .

ـ خير إن شاء الله . أعلم أن مدرسا يسكن معكم هنا اسمه عبد الحميد غريب .

ـ أجل ، هل حدث له مكروه ؟.

ـ لا يا ابنى ، لاقدَّر الله . رأيته من نافذة منزلى عندما خرج من بيتكم ويخيل إلىَّ أنه لم يرجع حتى الآن ، أليس كذلك ؟.

ـ لا ، لم يرجع بعد .

بعد فترة صمت قصيرة قال والد روحية وعيناه متجهتان نحو أرض الغرفة .

ـ الأستاذ عبد الحميد تحدث معى بشأن روحية ؟.

قال رشاد بدهشة :

ـ هل حضر الأستاذ عبد الحميد لزيارتكم فى بيتكم وطلب يد روحية ؟

ـ أجل ، ألم يذكر لكم شيئا عن هذا الموضوع ؟.

ـ لا ، لم يذكر شيئا .

ـ الأستاذ عبد الحميد يقول إنه مدرس ويتقاضى مرتبا كبيرا ، وروحية عزيزة علىَّ ، وهى ابنتى الوحيدة ، ولا نعرف شيئا عن الأستاذ عبد الحميد . يقول إنه من عائلة كبيرة .

ضحكَ رشاد ضحكة مكتومة ولكنه حاول أن تكون واضحة . قال والد روحية :

ـ علام تضحك يابنى ؟ إنها مسألة على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لنا وأكون شاكرا لك فضلك لو زودتنى بكل ما تعلمه عن الأستاذ عبد الحميد .

ـ كان مدرّساً .

ـ كان مدرسا ؟ وماذا يعمل الآن ؟.

ـ لا يعمل شيئا ، فهو عاطل .

بدت الدهشة الممزوجة بالألم فى ملامح وجه الضيف وقال :

ـ عاطل ؟ ! وكيف يعيش ؟.

ـ يعيش معنا .

ـ هل يمت بصلة القرابة لأحد منكم ؟.

ـ لا يمت بصلة لأىٍّ منا ولا نعرف له أقارب ، ولكن زميلنا مختار يعطف عليه لأنه كان معلمه فى يوم من الأيام .

ـ وبأية صفة يعيش معكم ؟.

ـ رجل مسكين نعطف عليه ونؤويه بالمجان ، وفى مقابل ذلك يؤدى لنا بعض الخدمات ، يطبخ وينظف المنزل ويحضر لنا الطلبات من الخارج .

ـ أى أنه يعيش معكم كخادم .

ـ ليس بالضبط ، إنه نوع من التعاون .

ـ وكان يريد الزواج من روحية لتخدمكم هى أيضا .

صاح رشاد قائلا :

ـ لا ، هذا غير معقول ، إنه غير قادر على الزواج ولا أدرى كيف تجرأ وزاركم ليطلب يد روحية ، وعلاوة على ذلك ...

ـ وهل يوجد ماهو علاوة على ذلك ؟.

ـ أجل ، إنه فى الخمسين وروحية يخيل إلىَّ أن سنها ...

ـ سبع عشرة سنة .

ـ وحتى لوكان يتقاضى مرتبا ضخما فليس من المعقول وهو فى الخمسين أن يتزوج فتاة فى السابعة عشرة .
قال والد روحية وهو يستعد للقيام :
ـ شكرا لك يابنى على هذه المعلومات ، وأرجو أن تخبره أن يصرف النظر عن هذا الموضوع ، عن إذنك .
وقف استعدادا للخروج فقال رشاد :
ـ سعادتك لم تسترح من السلم ولم تشرب قهوتنا .
ـ أشكرك ، السلام عليكم .
انتهت أغنية « مريت على بيت الحبايب » المنبعثة من راديو أحد الجيران وبدأت أغنية « أذكرينى » لأم كلثوم . قام رشاد ودخل غرفته . شعر بالباب يُفتح ويغلق ، فصاح قائلا :
ـ من الذى دخل ؟.
ـ أنا شريف .
ـ لقد عدت سريعا .
تناول رشاد الكراسة التى طلب من شريف شراءها ، ثم قال شريف :
ـ ألم يرجع مختار وعبد الحميد حتى الآن ؟.
ـ لا ، لم يرجعا ، ولكن شخصا آخر زارنا .
ـ شخص آخر ؟ من ؟.
ـ شخص لايخطر على بالك .
فُتح الباب ودخل مختار وعبد الحميد . قال رشاد بسخرية :
ـ حمد الله على السلامة ، أين كنتما ؟ أين كنت يامختار ؟.
ـ كنت أينما كنت ، وما شأنك أنت ؟.
ثم التفت إلى عبد الحميد وقال مبتسما :
ـ وأنت ياعبد الحميد ، أين كنت ؟.
أوحت لهجة رشاد لعبد الحميد بخوف يشبه ذلك الذى يشعر به شخص بالقرب من قنبلة على وشك الانفجار ، قال :
ـ هل من المفروض أن أقدم لك تقريرا عن خط سيرى ؟ هل هو تحقيق ؟.
قال مختار :
ـ وجدته سائرا كالمذهول بالقرب من البيت فأحضرته معى .
قال رشاد وكأنه يجد لذة فى إطالة فترة الغموض القاتل كما يلعب القط بالفأر قبل أن يفترسه :
ـ لابد أنه كان ينظم قصيدة ، أسمعنا القصيدة الجديدة ياعبد الحميد أسمعنا .
قال عبد الحميد غاضبا :
ـ ماذا تقصد ؟ هل تسخر منى ؟.

قال شريف :
ـ قلتَ إن زائرا جاء ونحن فى الخارج ؟.
قال رشاد ناظرا لعبد الحميد بطرف عينه :
ـ أجل . زارنا شخص عزيز جدا . لم يخرج إلا منذ دقائق .
قال عبد الحميد بلهفة :
ـ من هو؟ رجل أم سيدة ؟.
قال رشاد :
ـ فى هذه المرة .. رجل .
قال مختار وقد نفد صبره :
ـ من هو؟.
ـ شخص لا يخطر على بال أحد منكم .
قال عبد الحميد وقد بدأ يشعر بالاطمئنان :
ـ لا يهمنى ما دام رجلا .
قال رشاد ناظرا إلى عبد الحميد تلك النظرة غير المريحة :
ـ لا ، إنه يهمك جدا .
قال عبد الحميد بانفعال :
ـ من هو؟ تكلم . فقأت مرارتى
قال رشاد وكأنه يلوك كل كلمة فى فمه :
ـ حماك العزيز .

انهار عبد الحميد . كان هو الوحيد الذى ظل واقفا طوال هذه المدة فأسرع بالجلوس على أحد الكراسى مغمغما :

ـ حماى ؟.
قال مختار بدهشة :
ـ من هو حماك هذا ياعبد الحميد ؟ هل لك حما ونحن لانعرف ؟.
بدأ شريف يفقد أعصابه فصاح قائلا :
ـ هل تقصد تعذيبنا ؟ إذا لم تخبرنا بلا لفٍّ ولا دوران فلا نريد أن نعرف .
قال رشاد بهدوء استفزازى :
ـ قلت لكم إنه الحما المنتظر ، والد روحية .
انتفض عبد الحميد واقفا وقال بصوت ضعيف :
ـ والد روحية جاء هنا ؟.
ـ وخرج قبل أن يشرب القهوة .

قال شريف :
ــ قهوة ؟ وهل عندنا بن ؟
قال عبد الحميد بصوت مرتعش :
ــ ولماذا جاء ؟.
قال رشاد :
ــ عبد الحميد ياجماعة ذهب إلى بيت روحية وقابل أباها وخطبها منه .
شعر عبد الحميد كأن كل كلمة من كلمات رشاد رصاصة اخترقت جسده ، ودهش شريف ومختار لهذه المفاجأة العجيبة . قال شريف :
ــ هل هذا صحيح ياعبد الحميد ؟.
قال عبد الحميد وهو مطرق للأرض :
ــ أجل ، صحيح . وهل ارتكبتُ عملا فاضحا لا سمح الله ؟ أليس لى الحق فى الزواج مثل جميع خلق الله ؟.
قال شريف :
ــ وكيف تعمل هذه العَمْلة السوداء دون أن تأخذ رأينا ؟ هل جننت ؟.
قال عبد الحميد ومازال مطرقا للأرض :
ــ وهل جاء أبوها لزيارتى ؟.
قال رشاد :
ــ لا ، جاء لزيارتى أنا ، ويبدو أنه لم يجئ إلا بعد أن تأكد من عدم وجودك فى البيت .
ــ ولماذا يزورك أنت ؟.
ــ ليستفسر عنك ، أليس من واجب الأب أن يعرف كل شىء عن عريس ابنته ؟.
شعر عبد الحميد بيأس مدمِّر وحزن عميق وخجل شديد لم يشعر بمثله فى حياته ، وبذل مجهودا ليقول :
ــ وماذا قلت له عنى ؟.
ــ قلت الحقيقة .
انتاب عبد الحميد دوار خفيف ولكنه تمالك نفسه وقال بصوت خافت :
ــ قلت له الحقيقة ؟ ماذا قلت ؟ تكلم ، ماذا قلت له يارشاد ؟.
ــ قلت له إنك كنت مدرسا ؟.
قال عبد الحميد وكأنه يحدث نفسه :
ــ كنت مدرسا ؟
ــ أليست هذه هى الحقيقة ؟.
ــ أجل ، هى الحقيقة ، وماذا قلت أيضا ؟.
ــ قلت إنك عاطل ولا تمتلك مليما واحدا .

ـ وماذا قال ؟.

ـ طلب مني إبلاغك أن تنسى هذا الموضوع

ـ أشكرك . قمت بالواجب .

ثم أردف قائلا بصوت متهدج :

ـ لم يعد لى بقاء هنا سآخذ حصيرتى وأترك هذا المكان . الأرزاق على الله . لا أحد يموت من الجوع . الكلاب الضالة فى الشوارع تحصل على رزقها . لا تموت من الجوع . كل جريمتى أننى ظننت نفسى إنسانا كباقى البشر شكرا لك يارشاد أشكركم جميعا .

انسحب منكّس الرأس دامع العينين ودخل إحدى الحجرات لإحضار حصيرته . شعر مختار بضغط الدم فى رأسه ، قال لرشاد :

ـ ولماذا قلت هذا الكلام لوالد روحية ؟.

ـ وماذا كنت تريدنى أن أقول ؟ هل من المعقول أن أغش الرجل وأجعله يزوج ابنته من شخص عاطل لا أمل فيه ؟.

قال مختار غاضبا وقد علا صوته :

ـ عبد الحميد أفضل منك ألف مرّة . إنه أرق وأنبل إنسان رأيته فى حياتى . لا تنس أن هذا الشخص الذى لا يمتلك مليما كما تقول ، أهداك قطعة القماش ، وقبلت أن تأخذها منه وأنت تعلم شدة حاجته إليها .

ـ وأنتم أيضا قبلتم دعوته للعشاء فى شبرد ، أمرك عجيب ياأخى ، ومادخل هذا فى الموضوع ؟ هل أغش الرجل من أجل قطعة قماش ؟.

خرج عبد الحميد من الغرفة حاملا حصيرته على كتفه بعد أن طواها . مسح بكم سترته دموعا انسابت من عينيه متجها نحو باب الشقة قائلا بصوت مرتجف :

ـ السلام عليكم .

صاح مختار فى فزع :

ـ إلى أين أنت ذاهب ياعبد الحميد ؟

ـ أذهب أينما أذهب . الدنيا واسعة . لا أحد يموت من الجوع .

تشبث مختار بيد عبد الحميد محاولا منعه من الخروج قائلا :

ـ اعقل ياعبد الحميد ، اركن هذه الحصيرة وتعال ، أريد التحدث معك .

انتزع عبد الحميد يده من مختار قائلا :

ـ لا . لا بقاء لى هنا . أشكركم .

قال رشاد :

ـ وإلى أين تذهب ؟

ـ الدنيا واسعة .

قال مختار محاولا ثني عبد الحميد عن عزمه :

ـ أطعني ياعبد الحميد . تعال معي ، تعال

حاول مختار جذبه مرَّة أخرى . ولكن عبد الحميد صاح قائلا :

ـ من المستحيل أن أبقى بعد الآن . أنا شخص فقير مِسْكين ولكنني ذو كرامة . أنا إنسان ذو شعور وإحساس . اتركوني وشأني .

اندفع بقوة خارج الشقة حاملا حصيرته ماسحاً دموعه وصفق الباب خلفه . أسرع مختار إليه وهو يهبط السلم محاولا إرجاعه إلى الشقة ، ولكن عبد الحميد أصرَّ على مغادرتها . وكادت تنشب بينهما معركة فاضطر مختار إلى تركه خوفا عليه من الانهيار .

دخل مختار الشقة شاحب الوجه وصاح قائلا لرشاد :

ـ استرحت الآن يارشاد وارتاح ضميرك . رجل فنان ، شاعر حساس مثل عبد الحميد هل كان من اللائق أن تكلمه بهذه القسوة ؟.

ـ وبأية طريقة كنت تريدني أن أكلمه ؟ والد روحية طلب مني أن أبلغه رسالة فبلغتها ، هل في هذا مايعاب عليَّ ؟.

ـ لم يكن هناك مايدعو لذكر ما قلته لوالد روحية . أنا أعرف عبد الحميد جيدا ، إنها نزوة كانت ستنتهي من تلقاء نفسها .

ـ وهل أسأتُ إليه ؟ أنا لم أقل مايدعو لكل هذا الغضب .

ـ وماذا كنت تريد أن تقول أكثر مما قلت ؟ إنه إنسان شديد الحساسية ، أقل شيء يجرح مشاعره .

قال رشاد باستهزاء :

ـ يجرح مشاعره ؟ كلام فارغ . وأين سيذهب ، إنه سيرجع كالكلب ، لن يجد مكانا يؤويه غير هذا المكان .

بلغ غضب مختار ذروته وود لو يطيح برشاد من النافذة وصاح قائلا :

ـ لا يارشاد ، لن يرجع لأنه ليس كلبا كما تقول . أنت غبي لا تعرف عبد الحميد .

قال شريف :

ـ ربنا لن يغفر لك هذا يارشاد .

صاح رشاد قائلا :

ـ كفى ، أنا غير مستعد لسماع كلام في هذا الموضوع ، فليذهب في ستين داهية ، هل هو طفل صغير ؟.

– ٧ –

سار فى الشوارع على غير هدى حاملا حصيرته على كتفه وكأنه يحمل جميع هموم البشر ، منكّس الرأس يجر ساقيه بصعوبة ، وحذاؤه المثقوب النعل يحك فى الأرض .

الدنيا ليل . « فى الليل لما خلى » أجمل ماكتب أحمد شوقى لمحمد عبد الوهاب . أنغامها ترن فى أذنى ترى ماذا ستقول روحية عندما تعلم أننى غادرت المكان ؟ إنها لن تشعر بغيابى كما لم تشعر بوجودى . ربما تشعر براحة لغيابى . أين أذهب الآن ؟ لابد أن روحية احتقرتنى سامحك الله يا رشاد . ليتنى احتفظت بالنقود التى كانت معى لتنفعنى فى هذا اليوم الأسود . كل النوافذ مضيئة . لكل الناس بيوت . كنت أتمنى أن يكون لى بيت . ترى أين أقضى هذه الليلة والليالى التالية . أفرش حصيرتى فى مكان مظلم وأنام . لا أظن أننى سيغمض لى جفن . والطعام . كيف أحصل عليه ؟ كيف يعيش الإنسان الذى لايجد قرشا واحدا فى جيبه ؟ يموت أو يتسوَّل . أنا لايمكننى أن أمد يدى . أذهب لعبد الرازق باشا فقد يعطف علىّ . لا . لن أذهب إليه . لا أريد أن يحتقرنى هو أيضا . إنه يحترمنى ويقول عنى إننى شاعر عظيم . أكتب له قصيدة أخرى . لا . قد يجرح مشاعرى ويخجلنى . كل البيوت فيها ناس . لكل إنسان مكان ينام فيه . هذا الرجل مفرط البدانة ، سيتعب الناس فى حمله عندما يموت . وما شأنى أنا بهم ؟ فليتعبوا . كل ما فى الحياة عَبَث مادامت تنتهى بالموت . الموت هو المساواة الوحيدة فى الحياة هاهو ذا مكان لا بأس به ، أفرش حصيرتى هنا وأنام وربنا يفرجها فى الصباح .

ماكاد يضطجع فوق حصيرته بلا غطاء وقد وضع يده تحت رأسه واليد الثانية تخبئ عينيه حتى سمع صوتا متحشرجا يصيح قائلا :

ــ أنت يا أخينا النائم .

انتفض عبد الحميد مذعورا ونظر فوجد مصدر الصوت عسكرى نحيل تبدو فى جسده ووجهه آثار سوء التغذية والإرهاق ، لايعرف الإنسان أيهما أتعس من الآخر ، قال عبد الحميد :

ــ هل حضرتك تكلمنى ياشاويش ؟.

ــ طبعا أكلمك أنت ، وهل يوجد غيرك ؟ لماذا أنت نائم هنا ، قم ونم فى بيتك .

ــ هأنذا نائم فى بيتى !.

ــ نائم فى بيتك ؟! مامعنى هذا ؟.

ــ معناه أننى انتقلت اليوم إلى هذا البيت .

ــ هنا على الرصيف ؟.

ــ أجل ، الطبيب نصحنى بالنوم فى الهواء الطلق .

ــ ماهى مهنتك ؟

فكرّ فترة قصيرة ثم قال .

ــ مهنتى شاعر .

قال العسكرى بسخرية :

ـ شاعر؟ قم معى إلى قسم البوليس لنعمل لك محضر تشرد . كل المصائب التى فى البلد سببها الشعراء أمثالك .

ـ أنا أذهب إلى قسم البوليس؟ لماذا؟ هل أنا لص؟ أنا شاعر .

ـ قلت لك قم . أين ربابتك؟ .

ـ ليست لى ربابة ، لى حصيرة

ـ شيء جميل ، شاعر بحصيرة .

ثم أردف قائلا وقد رفع صوته :

ـ هيا انجر قدامى ياقليل الأدب . منذ يومين ، شاعر مثلك سرق دكانا فى هذا المكان . قم . هل تكلمنى وأنت نائم؟ .

انحنى العسكرى وجذب عبد الحميد من ذراعه بقوة فشعر بألم شديد بسبب الروماتيزم الذى أصاب كتفه فندت منه أنّةٌ ضعيفة وقال :

ـ حرام عليك ، خلعت ذراعى .

سارا معا نحو قسم البوليس الذى لايعرف عبد الحميد مكانه . وكان كل مايشغل باله فى هذه اللحظات خوفه من أن تراه روحية فى هذا الموقف المخزى .

لا ، لن ترانى ، إنها الآن تنعم بالنوم . ترى ما شكلها وهى نائمة؟ لابد أنها جميلة أيضا فى نومها .

قال له ضابط البوليس :

ـ اسمك؟ .

ـ عبد الحميد غريب .

ـ مهنتك؟ .

ـ شاعر .

نظر إليه الضابط بدهشة وقال :

ـ تقول إن مهنتك شاعر؟! .

ـ نعم ، شاعر ، أنظم الشعر .

قال الضابط ساخرا :

ـ تنظم الشعر؟! وهل هذه مهنة؟ ومن أين سرقت هذه الحصيرة؟ .

ـ لم أسرقها ، إنها حصيرتى .

وضع عبد الحميد يده فى الجيب الداخلى لسترته وأخرج حزمة من الأوراق أخذ يفتش فيها حتى عثر على ورقة سلمها للضابط قائلا :

ـ تفضل اقرأ ، هاهو نموذج من أشعارى منشور فى جريدة « السياسة » .

قال الضابط باستخفاف :

ـ أرنى ياسيدى .
ذهل عندما قرأ الأشعار وقال :
ـ غير معقول . هل أنت الأستاذ عبد الحميد غريب الشاعر المعروف ؟.
ـ أجل .
ـولماذا ترتدى هذه الملابس غير اللائقة ، هل أنت متنكرٌ ؟
ـ لا ، لست متنكرا ، أنا هكذا بصفة مستديمة .
ـ وما سبب نومك على الرصيف ؟.
ـ أحب تغيير مكان نومى من آن لآخر ! .

ـ يبدو أن للشعراء العباقرة أمثالك تصرفات غريبة لانستطيع فهمها ، تفضل اجلس يا استاذ عبد الحميد . هذه فرصة سعيدة لى ، فطالما تمنيت رؤياك ، أنا من المعجبين بك .

قال عبد الحميد وقد ترقرت الدموع فى عينيه :
ـ شكرا ياحضرة الضابط . هذه أول مرة أدخل فيها قسماً للبوليس .
ثم أردف قائلا بصوت متهدج :

ـ هل من الممكن أن تتصور ياحضرة الضابط أن فى جيوبى أكثر من ألفى بيت من الشعر من أجمل أشعارى ولا أجد بيتا أنام فيه ؟! .

دهش الضابط ولم يدر ماذا يفعل . مال على أذن عبد الحميد وهمس قائلا :
ـ هل تلزمك فلوس يا أستاذ عبد الحميد ؟.
ـ كانت معى ، أقصد معى فلوس كثيرة .
ـ إذا كنت محتاجا لأية نقود فأنا على أتم استعداد .
ـ شكرا لك ياحضرة الضابط ، هل يمكننى أن أنصرف ؟.
ـ كما تريد .
ـ أشكرك . السلام عليكم .

خرج عبد الحميد من القسم حاملا حصيرته والعسكرى الذى قبض عليه ينظر إليه مدهوشا . لم يشأ أن يعود إلى المكان الذى كان نائما فيه فظل سائرا يبحث عن مكان جديد مناسب . بدت الشوارع مليئة بالكلاب .

غريبة ، كيف تعيش كل هذه الكلاب المنطلقة فى الشوارع ؟ لابد أنها تجد ما تأكله ، فلماذا لا أجد أنا طعاما ؟.

لاذ بركن مظلم فى إحدى الحوارى . فرش حصيرته ونام نوما متقطعا مليئا بالكوابيس . صحا فى الفجر شاعرا ببرد شديد ولم يستطع النوم بعد ذلك . وجد ثلاث قطط يشاركونه النوم على الحصيرة عند قدميه فتركها بلا إزعاج وظل منبطحا على ظهره ناظرا للسماء ، ثم قام وركن بظهره على الجدار ومد

ساقيه . أخذ يتحسس جيوبه ليطمئن على قصائده خوفا من أن تكون قد سرقت منه فى أثناء نومه . فوجدها كما هى فى الحفظ والصون .

بدأت الحركة تدب فى المدينة وترامت إلى أذنيه أصوات سير بعض السيارات وعربات الترام والأوتوبيسات والعربات الكارّو . طوى حصيرته ووضعها جنب الجدار وقام وأصلح هندامه وسار على غير هدى . مر على دكان للفول والطعمية . كان صاحب الدكان منهمكا فى قلى الطعمية التى نفذت رائحتها إلى خياشيم عبد الحميد فسال لعابه وشعر بجوع شديد لم يستطع مقاومته . وقف أمام الدكان يلاحظ الرجل وهو يصنع الطعمية . طلب نصف رغيف وثلاث طعميات . أجابه الرجل إلى طلبه فوقف يلتهم الطعام ببطء شديد ولم يشعر بلذته فلقد كان طوال هذه المدة يفكر فى كيفية دفع ثمنه فجميع جيوبه خالية من كل أنواع العملة . انتهى من الأكل وظل واقفا ناظرا إلى صاحب الدكان دون أن ينطق . قال له صاحب الدكان .

ـ هل انتهيت من الأكل أم تريد المزيد ؟

ـ الحمد لله شبعت ، ولكن المشكلة هى عدم وجود فلوس معى

قال صاحب الدكان بفزع :

ـ لا فلوس معك ؟! .

خطرت لعبد الحميد فكرة اعتقد أن فيها خلاصه ، فقال :

ـ ولكن معى ماهو أثمن من الفلوس .

ـ ماهو ياترى ؟.

ـ قصيدة شعر من سبعة وستين بيتا ! .

وضع يده فى جيبه وأخرج القصيدة وناولها لصاحب الدكان قائلا ! .

ـ هذه هذه القصيدة ثمنا لشطيرة الطعمية . إنها أجمل قصيدة كتبتها فى حياتى .

نظر إليه صاحب الدكان باشمئزاز ولم يمد يده ليأخذ القصيدة وقال ساخرا :

ـ قصيدة ؟! قصيدة ماذا يا أستاذ ؟ اخرج النكلة من جيبك . الشطيرة ثمنها مليمان وأنا لا أتعامل بالقصائد .

ـ قصيدة من سبعة وستين بيتا من أجود الشعر لاتساوى فى نظرك نكلة ؟

قال صاحب الدكان بصبر نافد :

ـ يافتاح يا عليم يارزاق ياكريم ، اخرج النكلة من جيبك وإلاّ جعلته يوما كالزفت على دماغك .

ـ لايوجد معى سوى أشعار .

صاح البائع قائلا :

ـ اذهب فى ستين داهية ، إياك أن ترينى خلقتك مرة أخرى .

- ٨ -

كان الصمت سائدا فى معمل علم النبات وقد انهمك بعض الطلبة فى رسم قطاع فى ساق أحد النباتات والبعض الآخر مازال يحاول عمل قطاع رقيق بالموسى فى النبات لرسمه من خلال عدسات الميكروسكوب ، والمعيد ، بعد أن اطمأن على نبيلة ، يسير بين صفوف الطلبة ناظرا من آن لآخر فى أحد الميكروسكوبات ليرى ما إذا كان القطاع الذى صنعه الطالب رقيقا شفافا أم سميكا لايصلح للفحص .

همس مختار فى أذن رشاد قائلا :

- انظر يا رشاد لترى بنفسك مايعمله سعيد عزت .

- ماذا يعمل ؟

- هل ترى مرآة الحلاقة الموضوعة على يمين الميكروسكوب ؟.

لقد رأيته يعمل الشىء نفسه فى معمل الكيمياء فى العام الماضى ، ألم أقل لكم ذلك ؟ إنه بهذه الطريقة يمكنه رؤية نبيلة دون أن تشعر هى ولا يشعر أحد فى المعمل .

- مسكين . آه لو يعرف .

- يعرف ماذا ؟.

- شىء لو عرفه سيقع مغمى عليه .

- ماهو هذا الشىء ؟.

- حدث شىء غريب جدا يا أخى ، حسين صالح يذاكر مع نبيلة فى بيتها ! .

- كفى افتراء على الناس ، هل من المعقول أن تسمح نبيلة لأى طالب بالمذاكرة معها فى البيت ؟.

- حسين صالح اعترف لى بذلك .

- حسين هو الذى قال لك ذلك ؟

- أجل ، منذ شهرين وهو يذهب للمذاكرة معها فى بيتها ، وتعشى عندهم يوم الأثنين الماضى .

- وتعشى عندهم. أيضا ؟ لاتصدق هذا الكلام . .

- أقسم بالله العظيم أن هذا حدث ، تعشى عندهم كرنبا محشوا . اتضح أن المسألة لاتقتصر على تبادل الكراسات ، المسألة فيها مذاكرة وفيها عشاء وفيها كرنب محشو .

- وهل وصل هذا الخبر لسعيد عزت ؟.

- لا ، لم يصله خبر هذه المصيبة حتى الآن .

- يخيل إلىَّ أنك ستسرع بنقل الخبر إليه لتستمتع برؤيته وهو يتعذب .

- أريد أن أرى تأثير الخبر عليه عندما يسمعه . سيقع مغمى عليه أنه يعتقد أن نبيلة من الملائكة . ينظ اليها وكأنها فوق ، عند القمر .

- على أية حال اعتقد أن نبيلة لم ترتكب جريمة ، أنت تعلم أنها حريصة على تفوقها ، وحسين صالح من الطلبة الممتازين وترغب فى الاستفادة منه ، هذا كل مافى الأمر .

ـ أنا لا أدرى لماذا تنبرى دائما للدفاع عنها وكأنك محاميها الخاص

ـ اسمع يا رشاد . كل إنسان يرى الدنيا من خلال أفكاره . فإذا كانت أفكاره قذرة يخيل إليه أن كل الدنيا قذرة ، وإذا كانت أفكاره نظيفة فإنه يرى الدنيا نظيفة .

ـ هنيئا لك بأفكارك النظيفة . أنا لن أذهب للغداء فى فترة الظهيرة ، سأبقى هنا بالكلية لأرى تأثير هذا الخبر على سعيد عزت

شعر مختار باشمئزاز من رشاد . وعند انتهاء فترة العملى تركه مختار وذهب لتناول غدائه بصحبة شريف فى مطعم « الوردة البيضاء » وانطلق رشاد فى الكلية يبحث عن سعيد عزت . وجده كعادته جالسا بمفرده فى أحد أركان نادى الكلية يقرأ إحدى المحاضرات . جلس رشاد جنبه وقال له مبتسما :

ـ هل وصلتك آخر الأخبار ؟.

ـ أخبار ماذا ؟

ـ أخبار نبيلة ؟.

خفق قلب سعيد عندما سمع اسم نبيلة وشعر بارتباك وقال :

ـ ما بها ؟ ما بها نبيلة ؟

ـ ولماذا احمر وجهك واصفر عندما ذكرتُ اسم نبيلة ؟.

قال سعيد بارتباك :

ـ ماهذا الكلام الذى تقوله ؟ ما الذى يجعل وجهى يحمر أو يصفر ؟.

ـ قسما بالله العظيم لقد احمر وجهك واصفر فى آن واحد وهذا شىء عجيب لم أر له مثيلا من قبل . وعلى أية حال مادامت أخبار نبيلة تؤلمك فلا داعى لذكر أية أخبار عنها .

قال سعيد وقد ازدادت لهفته لمعرفة تلك الأخبار :

ـ ماذا كنت تريد أن تقول ؟.

ـ لاشىء ، لا داعى للحديث فى هذا الموضوع .

استبد حب الاستطلاع والقلق بسعيد فقال .

ـ ماذا كنت تريد أن تقول ؟ تكلم ، ما بها نبيلة ؟

ـ مادمت مصمما على سماع الخبر ، أقوله وأمرى لله .

ـ تكلم .

ـ لا فائدة من الكلام لأن ماستسمعه لايصدقه العقل .

صاح سعيد قائلا وقد نفد صبره :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ هل من الممكن أن تتصور أن حسين صالح يذهب للمذاكرة مع نبيلة فى بيتها ؟.

قال سعيد وقد أسرعت دقات قلبه ؟.

ـ وكيف عرفت ذلك يا شرلوك هولمز ؟.

ـ المسألة لاتحتاج لشرلوك هولمز . أو غيره ، حسين صالح هو الذى اعترف لى بذلك .

شعر سعيد بحزن عميق بذل مجهودا كبيرا لإخفائه وقال :

ـ لاتصدق هذا الكلام ، أى طالب لايجرؤ على مجرد التحدث معها ، فهل من المعقول أن تسمح لحسين أو غيره بالمذاكرة معها فى بيتها ؟.

ـ ما رأيك لو جعلتك تسمع منه ذلك بنفسك ؟ المسألة بسيطة .

قال سعيد محاولا أن يبدو هادئا :

ـ هذا الكلام غير معقول ، لايمكن أن يصدقه أحد .

ـ هيا معى نذهب لحسين .

قال سعيد وفى أعماقه رغبة قوية لمعرفة الحقيقة وقد بدأ يشعر بأن كل شىء جائز :

ـ وأين نجد حسينا ؟.

ـ لابد أنه الآن فى ملعب كرة السلة يمرّن الطالبات ، فهو شخص (سبور) يعجبك .

سارا معا نحو ملعب كرة السلّة .

هذا غير معقول ، جميع تصرفاتها تثبت كذب هذا الادعاء ، فلقد انسحبت بهدوء عندما لاحظت أن أحد الطلبة يستعد لالتقاط صورة تذكارية لطلبة السنة الرابعة حتى لاتظهر معهم فى الصورة ، وعندما طلب منها عبد المجيد استعارة كراس الكيمياء لاستكمال محاضراته قالت له دون أن تنظر إليه إنها لم تحسن كتابة المحاضرة وتركته غارقا فى خجله وعرقه ومضت فى سبيلها . وتجلس فى المدرج أو المعمل بعيدة عن الطلبة لاتنطق بكلمة ولا تلتفت يمينا أو يسارا ، ولكن من يدرى ، كل شىء محتمل . كل ما أتمناه أن ينكر حسين ما قاله رشاد حتى ولو كان صحيحا . لن أحتمل سماعه من حسين . لابد أن أبدو هادئا . لا أحب أن يكتشف أحد حقيقة مشاعرى نحو نبيلة . لو عرف أحد عاطفتى نحوها فمن المستحيل بعد ذلك أن أرى وجهى لأى مخلوق .

كان حسين مرتديا بدلته كاملة فى حين أن الطالبات اللواتى يدربهن يرتدين ملابس الألعاب القصيرة . صاح رشاد قائلا :

ـ ياحسين .

لم يكن حسين يحب أن يراقبه أحد من الطلبة فى أثناء تدريبه للطالبات . نظر فرأى رشادا وسعيدا فقال متظاهرا بانشغاله بالتدريب :

ـ ماذا تريد يا رشاد ؟.

ـ أريد التحدث معك دقيقة واحدة .

أقبل عليهما مسرعا وكأنه يوحى لهما بأنه مشغول ولا وقت لديه للحديث ، قال :

ـ خيرا ، ماذا تريد يا رشاد ؟.

ـ ألم تقل لى إنك تذهب للمذاكرة مع نبيلة فى بيتها ؟.

قال بدون اكتراث :

ـ أجل ، أذهب للمذاكرة معها . هل تهمك هذه المسألة لهذا الحد ؟
ـ المسألة لاتهمنى ، ولكن يبدو أنها تهم أناسا آخرين .
ـ مثل من ؟.
ـ مثل سعيد عزت
انفجر سعيد صائحا بانفعال :
ـ من قال إن هذا يهمنى ؟ مالى أنا ومال نبيلة ؟ هى حرّة تذاكر مع من تريد المذاكرة معه
أسرع سعيد الخطى مبتعدا عن الملعب محاولا اخفاء دموع طفرت من عينيه صاح رشاد قائلا :
ـ تعال ، إلى أين أنت ذاهب ؟.
ـ إلى المعمل ، أنسيت أن موعد عملى النبات قد حان ؟

فى دقائق كان خبر مذاكرة نبيلة مع حسين فى بيتها قد انتشر بين جميع طلبة السنة الرابعة وأنه تعشى عندها كرنبا محشوا . كانت نبيلة خالية الذهن ، وكعادتها جلست فى المعمل بعيدة عن الطلبة وفتحت أمامها كراسة النبات العملى فى انتظار حضور المعيد . صاح رشاد قائلا :

ـ اسمع ياحسين ، الكرنب من أى عائلة من عائلات النبات ؟
نظر حسين نحو الأرض واحمر وجهه ولم ينطق . صاح أحد الطلبة قائلا :
ـ لابد أن الكرنب من عائلة راقية .
قال طالب آخر :
ـ هل سَنَدْرس الكرنب فى هذه الحصَّة ؟.
قال آخر :
ـ لا ، سوف نحشوه .
قال آخر .
ـ نحشوه مرّة أخرى ؟ لقد أكلناه من يومين .
غمغم حسين قائلا :
ـ قلة أدب .

كان المعمل يضج بالضحك الذى توقف فجأة عندما دخل المعيد . لاحظ أن وجه نبيلة شاحب عابس بشكل ملفت للنظر فقال لها :
ـ مابك يا نبيلة ؟ أمريضة أنت ؟.
قالت بصوت مختنق بالبكاء :
ـ أشعر بتعب ولن أتمكن من حضور حصّة العملى اليوم . هل تسمح لى بالخروج ؟.
قال المعيد وقد بدت الدهشة من نظراته :
ـ تفضلى .
خرجت نبيلة فخيم الصمت على المعمل . همس رشاد لمختار قائلا :

ـ هاهى ذى قد غضبت . مؤكد ستخرب بيت حسين .

لم يستطع سعيدا استيعاب كلمة واحدة من شرح المعيد وفكر فى الخروج ولكنه رفض هذه الفكرة حتى لايفصح عن عاطفته وخيل إليه أن قلبه لن يتسع لكمية الحزن التى ملأته . استقلت نبيلة سيارتها وانطلقت بها نحو منزلها .

ماذا يقصدون بحديثهم عن الكرنب ؟ الكرنب من عائلة راقية ! حقيقة لقد تعشى حسين عندنا كرنبا محشوا . ولكن كيف عرفوا ؟ لابد أنه هو الذى قال للطلبة . هل هذا معقول ؟! هل يقول للطلبة مثل هذه الأشياء ؟ وما غرضه من ذلك ؟ لم أكن أتصور أن يطلع الطلبة على مثل هذه الأمور ، هل يتباهى بذلك أم يريد تشويه صورتى ويقلل من احترامهم لى ماذا يظن نفسه ؟ هل بلغت المهزلة الحد الذى أصبح فيه أضحوكة أمام الطلبة ؟ أنا نبيلة ابنة عبد العزيز باشا سرّى أصبح مادة لسخرية الطلبة الذين لم يكن يجرؤ أحد منهم على التحدث معى ؟ لقد أخطأت عندما سمحت لحسين هذا أن يدخل بيتى . ماذا يظن وماذا يظنون ؟ كل ما فى الأمر أنه يحسن كتابة المحاضرات وكنت أرغب فى الاستفادة منه . كان من الممكن أن أعتمد على نفسى ولا أحتاج لمثله . ماذا يظن ؟.

أدخلت سيارتها فى الجراج واخترقت حديقة فيلّتها ، فرأت أخاها عادل الطالب بكلية الهندسة فى أحد أركانها يحتسى فنجانا من الشاى . عند اجتيازها البهو متجهة نحو السلم الخشبى المؤدى إلى الدور العلوى رأت صورة أبيها الذى توفى منذ عامين . خيل إليها أن الابتسامة التى كانت على شفتى والدها اختفت صعدت السلم ودخلت غرفتها وألقت بحقيبتها وكراساتها فوق منضدة وجلست على الكرسى المجاور للأباجورة وطفرت من عينيها الدموع فأخرجت منديلا من حقيبتها ومسحتها .

فزع أخوها الأصغر سامى عندما أطل من باب غرفتها ورآها تبكى ، قال بلهفة :

ـ ما بك يانبيلة ؟ لماذا تبكين ؟.

ـ اتركنى وحدى ، لا أريد أن أكلم أحدا .

هُرع سامى إلى والدته وأخبرها أن نبيلة تبكى فى غرفتها ، ثم هبط إلى الحديقة وأخبر أخاه عادل . أسرعت إليها أمها وسألتها بلهفة :

ـ لماذا تبكين يا نبيلة ؟ مابك ياحبيبتى ؟.

انفجرت نبيلة باكية بصوت مسموع فأخذت أمها تربت على كتفها محاولةً تهدئتها قائلة :

ـ ماذا حدث ياحبيبتى ؟.

دخل الغرفة عادل وسامى ووقفا جنب أمها ناظرين إلى نبيلة فى صمت . ثم قال عادل الذى يكبر نبيلة بعامين :

ـ هل حدث ما أغضبك يانبيلة ؟.

قالت :

ـ لن أذهب إلى الجامعة بعد اليوم .

قال عادل :

ـ ماذا حدث فى الجامعة ؟

ـ حسين صالح الذى كنت أذاكر معه . نشر الخبر فى الكلية .

قالت والدتها :

ـ وهل فى مذاكرته معك مايدعو للخجل ؟.

ـ لم أكن أحب أن يتسرب هذا الخبر إلى الكلية . هؤلاء الناس أفكارهم حقيرة . لن يصدق أحد أننى سمحت له بالمذاكرة معى لأستفيد منه وأكمل محاضراتى . ليس بمستبعد أن يظن بعضهم أننى معجبة بخلقته .

قال عادل :

ـ هذا موضوع تافه لايستحق كل هذا الحزن .

قالت الأم :

ـ لاتعيريهم أىَّ اهتمام ، أنت لم ترتكبى أىَّ خطأ .

قالت نبيلة :

ـ لابد أنه قال للطلبة كلاما فارغا . ليس بمستبعد أن يكون قد ادعى أنه خطيبى أو بينه وبينى علاقة .

قالت الأم :

ـ هذا غير معقول ، هل يجرؤ شخص كهذا على الادعاء بأنه خطيب ابنة المرحوم عبد العزيز باشا سرّى ؟.

قال عادل :

ـ طبعا غير معقول ، ستذهبين غدا إلى الكلية مرفوعة الرأس وكأن لم يحدث أى شىء .

قالت الأم :

ـ هل يسبب لك هذا الموضوع التافه كل هذا الحزن والانفعال ؟ قومى اغسلى وجهك ولاتفكرى فى هذا الكلام الفارغ .

قالت نبيلة :

ـ حاضر .

فى هذه اللحظة دخلت الخادمة وقالت :

ـ ستى نبيلة .

ـ ماذا تريدين يابخيته ؟.

ـ واحد افندى بالباب اسمه سعيد عزت يريد مقابلة حضرتك ، يقول إنه زميلك فى الكلية .

غمغمت نبيلة قائلة بدهشة :

ـ سعيد عزت ؟! إننى لم أكلمه ولم يكلمنى منذ دخولى الكلية . وماذا يريد منى هذا أيضا ؟ ربما أتى ليذاكر معى ، المسألة أصبحت فوضى .

قالت الأم :

ـ انزلى ياخيته قولى له إن نبيلة غير موجودة

قالت نبيلة فى تحدٍّ غاضب :

ـ لا . ادخليه الصالون . سألقنه درساً لن ينساه طوال حياته .

ـ ٩ ـ

دخل سعيد الصالون شاحب الوجه يتعثر فى خطاه من فرط الخجل وجلس على أول كرسى صادفه . فى خلال خمس دقائق نظر فى ساعته تسع مرات . كانت عيناه مصوبتين نحو باب الغرفة منتظرا دخول نبيلة . ظل قلقه يزداد مع مرور الزمن الذى خيل إليه أنه توقف . أرهق ذهنه فى التفكير فى كيفية بدء الحديث وأخذ يغير ويبدل فى الألفاظ التى سينطق بها فى تلك اللحظة العصيبة عندما يلتقى بها ويتحدث معها لأول مرّة فى حياته بعد مضى نحو أربع سنوات من الصمت والنظر إليها خلسة عن طريق المرآة . بعد أن أضناه الانتظار الذى بدأ له وكأنه بلا نهاية دخلت نبيلة الغرفة ، فوقف بحركة لا إرادية وقد شعر برعشة خفيفة وخيل إليه أنه يسمع دقات قلبه التى أوشكت أن تصبح فى مثل سرعة دقات قلب العصفور . انتظر منها أن تجلس ولكنها ظلت واقفة فظل هو أيضا واقفا على الرغم من شعوره بإعياء شديد . لم تمد يدها لتصافحه ، بل نظرت إليه نظرة قاسية وقالت :

ـ أفندم . هل تلزم خدمة ؟.

قال متلعثما :

ـ أنا الحقيقة ، أنا كنت أريد ..

قاطعته قائلة :

ـ تريد ماذا ؟.

ـ أنا الحقيقة غير مصدق .

ـ غير مصدق ماذا ؟.

ـ الحكاية التى سمعتها .

ـ وماهى هذه الحكاية ؟.

أطرق للأرض وقد نضحت قطرات العرق من جبهته وفكّر فى الخروج ، ولكنه استجمع كل ماتبقى من شجاعته وقال :

ـ هل حقيقةً كنتِ تذاكرين مع حسين صالح هنا فى البيت ؟.

ـ هل جئت للتحقيق معى ؟.

ـ كلا . مطلقا .

ـ ماذا تريد إذن ؟

ـ أريد أن أطمئن لأدافع عنك وأنفى هذه الإشاعة الكاذبة .

ـ لست محتاجة لمحام يدافع عنى لأننى لم أرتكب جريمة . لقد حضر حسين إلى منزلى ثلاث مرات لأن كراسة علم الحيوان فقدت منى ، وأنا أعلم أنه يكتب كل كلمة ينطق بها الأستاذ . ولما أخذت كراسته لأنقل المحاضرات المفقودة لم أستطع قراءة خطه فسمحت له بالمجىء ليعاونني على فك رموز كلماته ، وانتهيت من كتابة المحاضرات والحمد لله ولم أعد فى حاجة إليه أو لأمثاله . هل تحب أن تعرف أى شىء آخر أنت أو غيرك ؟.

ـ كلا ، الحمد لله .

لاحظت شحوب وجهه ورعشة فى يده فقالت :

ـ تفضل اجلس .

انهار جسده فوق الكرسى وجلست هى على الكرسى المقابل لكرسيه وقالت :

ـ تقول الحمد لله على ماذا ؟.

ـ أحمد الله على أنك انتهيت من هذه المسألة ولم تعودى فى حاجة إليه ، على أية حال أنا أيضا أكتب المحاضرات بدقة ولا تفوتنى أية كلمة ينطق بها الأستاذ وعلى استعداد لإعطائك كل ماتطلبينه من كراسات أو أكتبهم لك بنفسى لو أردت .

قالت بسخرية مشوبة بالغضب .

ـ متشكرة جدا ، لاداعى لذلك ، لا أحب أن أتعب أحدا .

قال بلهفة تدل على الصدق :

ـ لكننى أحب وأتمنى أن أتعب من أجلك .

بصبر نافد قالت :

ـ هل يوجد شىء آخر تود أن تقوله ؟.

قال متلعثما :

ـ أنا ؟ لا ، الحقيقة ، أنا الحقيقة أحبك يانبيلة . أحبك أكثر من نفسى ومستعد للتضحية بنفسى من أجلك . منذ سنوات وأنا كاتم فى صدرى هذا السر لم أبح به لأى مخلوق إلا فى هذه اللحظة . وأكون أسعد إنسان فى الدنيا لو قبلت طلبى هذا الذى ...

قاطعته صائحة :

ـ يابخيته ، بخيته .

أسرعت بخيته بالدخول قائلة :

ـ نعم ياسيدتى ؟.

قالت نبيلة مشيرة بطرف إصبعها نحو سعيد :

ـ خذى هذا الأفندى ودليه على طريق الباب .

سار سعيد منكس الرأس جنب الخادمة نحو باب البيت وأسرعت نبيلة بصعود السلم مكفهرة الوجهه

دامعة العينين. سألتها أمها بلهفة :
ـ مابك يانبيلة ؟ ماذا حدث ؟.
ـ كما قلت لك ، لم تمض بضع ساعات وهاهوذا واحد منهم يجيء ليخطبني.
ـ هل وصلت الأمور إلى هذا الحد ؟
ثم أردفت أمها قائلة :
ـ لكن افرضي أن جميع شبان البلد جاءوا يطلبون يدك فهل في هذا مايدعو للحزن ؟ لا تعيرى الأمر أيَّ اهتمام.
ـ يا ماما لست معتكفة في البيت في انتظار الخُطَّاب. أنا أتعلم ، والوسط في الكلية لايسمح بهذا.
في صباح اليوم التالي ، اقتحمت نبيلة مدخل الكلية بسيارتها بسرعة غير عادية ، كان حسين يسير في هذا الممر الضيق وكادت تدهمه السيارة فقفز نحو السور في فزع.
قال مختار لشريف :
ـ هل تظن أن هذه الحركة مقصودة ؟ لا أعتقد أن نبيلة تقصد إصابته بسيارتها ، ربما تكون أعصابها أفلتت منها عندما رأته فاهتزت في يدها عجلة القيادة.
ـ يجوز ، الله أعلم.
ظل حسين صالح نحو أسبوع يحكي هذه الواقعة لكل من يراه ، حتى بائع الشطائر الذى عند باب الكلية حكاها له وهو يقضم شطيرة الكبد التي اشتراها منه بخمسة مليمات ، قائلا إن نبيلة تحاول قتله والبائع لايعرف من هي نبيلة هذه ، وفرح رشاد زهدى بالقطيعة التي حدثت بين حسين ونبيلة ، فهو يفرح لأى سوء تفاهم يحدث بين اثنين حتى ولو لم يكن في ذلك أية فائدة تعود عليه !.
في حصة علم الحيوان العملي قال مختار لشريف :
ـ ألم تلاحظ أن سعيد عزت متغيب عن الكلية منذ أسبوع ؟.
ـ لابد أن عذرا قهريا منعه ، من الحضور ، فهو لم يتغيب عن الدراسة يوما واحدا منذ التحاقه بالكلية.
ـ أنا قلق من أجله وأريد الاطمئنان عليه ، وكان قد استعار مني كراسة محاضرات علم الحيوان وأنا في حاجة إلى الكراسة.
ـ زره في منزله ، اطمئن عليه وخذ منه كراستك.
ـ لا أعرف عنوانه.
ـ خذ العنوان من إدارة الكلية ، أنا أعلم أن مسكنه في مصر الجديدة.
ـ مصر الجديدة ؟! كنت أعتقد أنه يسكن بالقرب من الكلية. أذهب إليه في مصر الجديدة وأمرى لله.
في صباح اليوم التالي ، وكان يوم الجمعة ، استقل مختار الأوتوبيس من ميدان المحطة متجها نحو مصر الجديدة لزيارة سعيد عزت. كان مسكنه في شارع اسكندر الأكبر. لم يكن لمختار أية خبرة بهذه الضاحية

ولم يكن قد زارها من قبل سوى مرتين. وصل إلى منزل سعيد بصعوبة واكتشف أنه فيلاّ فاخرة من طابقين تحيط بها حديقة واسعة معتنى بها وفوجئ بوجود لافتة معدنية بجوار الباب تحمل اسم « محمود بك عزت » ضغط على جرس الباب ، وبعد نحو دقيقة فتح الباب وأطل منه خادم يرتدى جلبابا أبيض نظيفا ، سأله مختار :

ــ هل هذا منزل سعيد عزت الطالب بكلية العلوم ؟.

ــ نعم .

ــ هل هو موجود ؟.

ــ نعم ، تفضل .

انبهر مختار بالأثاث الفاخر المتناثر فى البهو والتحف الثمينة التى تزيّن المكان . قاده الخادم إلى غرفة صالون لم ير مختار مثيلا لها إلا فى الأفلام السينمائية . جلس على أحد الكراسى فى انتظار صديقه سعيد .

ماهذه الروعة والفخامة ؟ لم أكن أتصور أن سعيد يعيش فى دنيا غير الدنيا التى نعيش فيها . فرق شاسع بين الحياة هنا والحياة فى حارة البحرى . المعيشة هنا تطيل العمر . يابختك ياسعيد ، أنت حقيقة سعيد ، لم أكن أعلم أن أباه يحمل رتبة البكوية ، لابد أنه رجل محترم جدا . العجيب أن سعيدا لايبدو عليه أى أثر من آثار النعمة ، إنه شديد التواضع سريع الخجل . يبدو أن القصة التى سمعتها عنه حقيقية مع أننى لم أصدقها عندما سمعتها ، لم أصدق أنه يحضر إلى الكلية فى سيارة فاخرة يهبط منها قبل وصوله إلى الكلية بمسافة طويلة حتى لايعرف الطلبة أنه يأتى فى سيارة . السيارة الضخمة التى رأيتها أمام منزلهم لابد أنها سيارتهم .

سمع مختار وقع أقدام فظن أن القادم صديقه سعيد ، ولكنه فوجئ بدخول رجل مهيب الطلعة يرتدى ملابس غاية فى الأناقة فوقف له مختار احتراما .

قال الرجل لمختار وهو يصافحه :

ــ أهلا وسهلا .

شعر مختار بخجل شديد وقال :

ــ أهلا بسعادتك ، أنا زميل سعيد فى الكلية جئت أطمئن عليه لأنه انقطع عن الكلية منذ نحو أسبوع .

قال والد سعيد وفى صوته نبرة حزن :

ــ سعيد مريض يا ابنى ، مريض جدا .

ــ لابأس عليه ، ممَّ يشكو ؟.

ــ من حوالى أسبوع دخل البيت فى حالة نفسية سيئة جدا . كان جسده يرتعش والدموع فى عينيه واتجه مباشرة نحو غرفته ونام فى الفراش ، ومنذ تلك اللحظة وحالته النفسية فى تدهور مطرد ، زاره حتى الآن أربعة أطباء ولم يعرف أحد منهم حقيقة مرضه . هل جرح مشاعره أو أهانه أحد فى الكلية .

ــ لا أعتقد أن أحدا أهانه أو جرح مشاعره فى الكلية .

هل من المعقول أن يكون هذا المرض بسبب مذاكرة حسين مع نبيلة فى بيتها ؟ ألهذه الدرجة يحب هذه الطالبة فى صمت ؟.

ـ سعيد ابنى حساس للغاية . أقل شىء يؤلمه ، وهو يحافظ على مشاعر جميع الناس لم يجرح فى حياته شعور أى إنسان . هل أهانه أحد الأساتذة ؟

ـ كل الأساتذة يحبونه ، فهو مهذب ومجتهد ، هل شكا لكم من أى شىء ؟.

ـ لايريد أن يصارحنى أو يصارح والدته ولكننى متأكد من أن شخصا ما أهانه وجرح شعوره . أمس فى الفترة القصيرة التى نام فيها . كان يهذى بكلمات غريبة فهمت منها أن شخصا أهانه إهانة بالغة .

ـ هل من الممكن أن أراه ؟.

ـ بكل تأكيد ، تفضل ، إنه فى غرفته . حاول يا ابنى أن تعرف منه مالم نستطع نحن أن نعرفه ، فقد يكون أكثر صراحة معك . سأتركَكما وحدكما .

فزع مختار عندما رأى سعيدا ممددا على السرير وقد شحب وجهه وغارت عيناه ، غير حليق اللحية . بدأ وكأنه شخص آخر . نظر إلى مختار بعينين مبتلتين دون أن يحرك رأسه . قال مختار محاولا الابتسام :

ـ ما بك يا سعيد ؟ سلامتك . جئت لأطمئن عليك عندما انقطعت عن الحضور إلى الكلية .

قال سعيد بصوت ضعيف وكأنه قادم من غرفة أخرى :

ـ أشكرك يامختار .

ـ ماذا حدث ؟.

قال سعيد متلعثما :

ـ أنا .. أنا .. أنا أستحق .

ـ تستحق ماذا ؟.

ـ استحق ماجرى لى . كان سوء تصرف منى ، لكننى لم أكن انتظر تلك المعاملة السيئة . لم أكن أتصور أن تهيننى فى بيتها .

بدت كلمات سعيد لمختار وكأنها ألغاز عسيرة الحل . قال :

ـ علام تتكلم ؟ من هى التى أهانتك فى بيتها ؟.

قال سعيد بعد أن بلع ريقه عده مرات :

ـ نبيلة .

كانت مفاجأة مذهلة لمختار . قال بدهشة :

ـ نبيلة ؟! وما الذى دفعك للذهاب إلى بيتها ؟.

ازدادت دهشة مختار عندما قال سعيد :

ـ ذهبت لأخطبها ! .

ظل مختار ناظرا إلى سعيد فترة فاغرا فه لايدرى ماذا يقول ، ثم قال :

ـ ذهبت لتخطب نبيلة ؟.

قال سعيد متحاشيا النظر إلى مختار :

ـ أجل ، خفت أن يسبقنى حسين ويخطبها لنفسه بعد مسألة المذاكرة معها . لكن أرجوك يامختار ألا تخبر أى إنسان بذلك . أنت الشخص الوحيد الذى ائتمنته على هذا السر . والدى ووالدتى لايعرفان شيئا عنه . إذا علمت أن أى إنسان عرف هذا الموضوع فسأقتل نفسى .

ـ كن مطمئنا كل الاطمئنان . تأكد أن الموضوع سيبقى سرا بيننا . ولكن ماذا حدث عندما زرتها ، هل فاتحتها فى الموضوع ؟.

قصَّ سعيد على مختار الحديث الذى دار بينهما منذ دخولها غرفة الصالون حتى خروجه من بيتها دون أن ينسى كلمة واحدة وكأنه يدير شريط جهاز تسجيل . ظل مختار طوال الحديث مطرقا للأرض صامتا ، ثم قال :

ـ لم أكن أتصور أنك تحبها لهذه الدرجة .

ـ لايمكننى الحياة بدونها . كانت أملى فى الحياة . لم يعد عندى أمل فى أى شىء . لم يخطر ببالى أنها سترفض طلبى ، ماذا تظن نفسها ؟ هل تظن أنها أعلى منى قدرا لأن أباها كان باشا ووكيل وزارة ؟ من الممكن أن يصبح والدى وزيرا .

قال مختار وهو يحتسى الشاى ويمضغ قطعة الكعك الذى أحضره الخادم :

ـ ليست المسألة كما تتصور ، يخيل إلىَّ يا سعيد أنك تسرعت فى ذلك الطلب ولم تختر الوقت المناسب . أنت تعرف أنها خرجت من الكلية فى ذلك اليوم متألمة أشد الألم وأعصابها مرهقة ، ألم تر كيف كان وجهها وهى تغادر المعمل ؟.

ـ كنت أظن أن زيارتى لها فى هذا الوقت بالذات قد تساعد على تهدئة أعصابها . كنت حزينا من أجلها ، متألما لحزنها .

ـ على العكس ، إنك بذهابك إلى بيتها فى هذا الوقت بالذات ومفاتحتها فى موضوع الحب والزواج نكأت جرحها وألهبت أعصابها المتوترة .

ـ هذا هو سبب حزنى . لم أكن أحب أن أكون سببا فى حزنها . أنا لا أحتمل رؤيتها وهى تعانى من أى حزن أو ضيق .

ـ كان من الأنسب أن تنتظر حتى ينتهى الامتحان وتطلب من والدتك أن تذهب لزيارتهم والتعرف بهم بدلا من تسرعك وذهابك بمفردك فى ذلك اليوم .

ـ لم أستطع التفكير بهذه الطريقة ، وجدت نفسى مدفوعا للذهاب إلى بيتها وكأننى منوم تنويما مغناطيسيا .

ـ على أية حال أنا لا أجد فى الموضوع مايستحق كل هذا الحزن العميق الذى ترزح تحت وطأته ، وأود أن أقول لك شيئا ، الشخص الذى لايبادلك الحب والإعزاز لايستحق منك أىَّ اهتمام .

ـ إنه شىء خارج عن إرادتى لاسيطرة لى عليه . إننى أحبها غَصْباً عنى .

ـ اسمع يا سعيد ، المستقبل مازال أمامك مزدهرا مليئا بالمفاجآت السارة التى لايمكن التنبؤ بها ،

وسوف ترى العديد من البنات ، والذى خلق نبيلة خلق كثيرين غيرها . لقد مررت أنا نفسى بهذه التجربة ، كنت أعتقد أن نبيلة هى أجمل بنت فى الدنيا ، ولكننى بعد فترة قصيرة رأيت ماجعلنى أغير اعتقادى هذا . أنت لاتدرى ماذا سيحدث غدا .

ــ عيناى لاترى سواها ، شيء لا يد لى فيه .

وأردف قائلا وقد دمعت عيناه :

ــ أنا لم أسئ إليها لتعاملنى هذه المعاملة القاسية . ليتنى مِتُّ ولم أسمع منها هذه الكلمات ، أنا خجلان من نفسى . لايمكننى تصور إمكان ذهابى إلى الكلية ورؤيتها لى . أريد الابتعاد بعيدا ، بعيدا جدا ، بعيدا عنها ، بعيدا عن كل الناس ، هذه الدنيا التى نعيش فيها دنيا بشعة ، دنيا ملعونة ، الناس فيها يعذب بعضهم بعضا .

ــ اطرد هذه الأفكار السوء من دماغك . أنت لم ترتكب جريمة . لاتهتم بها ولا بغيرها . اعتبرها غير موجودة .

ــ لابد أنها أصبحت تحتقرنى . أنا شديد الحساسية بدرجة غير معقولة ويهمنى جدا رأى الناس فى وشعورهم نحوى .

ــ لا توجد بنت فى العالم تحتقر شابا لمجرد أنه تقدم لخطبتها ، ولكن من الممكن أن تحتقره لو فشل فى دراسته أو لعيب فى أخلاقه أو سلوكه ، ولو ركّزتَ كلَّ اهتمامك فى دراستك ونجحت بتفوق وتمكنت من الوصول إلى مركز مرموق فسوف تنتزع احترام جميع الناس ، وأوّلهم نبيلة . اسمع ، مارأيك لو نذهب معا الليلة إلى السينما ؟.

ــ أنت يا مختار لايمكنك أن تتصور مقدار تعبى وإرهاقى ، أنا لم يعد فى استطاعتى السير بضع خطوات . لم أتناول طعاما منذ يومين ، ولا أنام سوى ساعة أو ساعتين على الأكثر . إن مجرد الكلام يتعبنى .

ــ على أية حال أنا لا أريد أن أسبب لك أىَّ تعب وأتمنى أن أراك فى الكلية قريبا فى أحسن صحة .

ــ أشكرك يامختار على هذه الزيارة .

لستُ أدرى ، هل أطلب منه كراسة علم الحيوان ؟ أخشى أن يظن أننى لم أحضر إلاّ لهذا الغرض ، ولكن لابد من أخذ الكراسة فأنا محتاج إليها .

ــ على فكرة ، هل من الممكن أن آخذ معى كراسة علم الحيوان التى استعرتها منى ؟.

ــ بلا شك ، تجدها هناك على هذا المكتب .

أخذ مختار كراسته وصافح سعيدا وخرج من الغرفة . وجد والد سعيد جالسا مطرقا للأرض فى بهو المنزل ، وما أن رأى مختارا حتى ابتدره قائلا :

ــ ألم تستطع معرفة الشيء الذى سبب له كل هذا الألم ؟.

ــ يبدو أن شيئا حدث ، ولكنه لم يشأ أن يبوح به على الرغم من المجهود الذى بذلته لانتزاع هذا السر منه .

قال الأب وقد شعر بحزن وخيبة أمل :

ـ كنت أظن أننى سأعرف شيئا . لست أدرى ماذا أفعل .

ـ يخيل إلىّ أنه سيجتاز هذه الأزمة بسلام .

قال الأب بصوت حزين :

ـ ربنا يشفيه .

وقف مختار عند محطة الأوتوبيس الموصل إلى ميدان المحطة . بدا وكأن الخط قد ألغى على الرغم من وجود لافتة المحطة ورقم الأوتوبيس ، فلقد مضى نحو ربع ساعة دون وصول أوتوبيس واحد .

ترى إلى متى أظل واقفا منتظرا الأوتوبيس ؟ شىء مقرف . الحمد لله ، هاهوذا قد وصل ، ولكنه مزدحم كالعادة ، لا داعى لركوبه ، انتظر الأوتوبيس التالى ، لا ، يوجد مكان خال بالدرجة الأولى .

عندما دخل من باب الأوتوبيس وكل انتباهه موجَّه نحو الكرسى الشاغر وهمَّ بالجلوس لاحظ شيئا هز كيانه وأصابه بارتباك شديد . رأى فتاة حديقة الأندلس جالسة فى الكرسى المجاور له .

لم أكن أتصور أننى سأراها مرّة أخرى فى يوم من الأيام وأجلس جنبها . لماذا يدق قلبى الأرعن تلك الدقات السريعة ؟ من المؤكد أن وجهى الآن قد اصفرَّ لونه . ترى هل تتذكرنى ؟ ليس من المعقول أن تتذكرنى بعد ذاك اللقاء الخاطف الذى لم يدم أكثر من دقيقة واحدة . ولكن لماذا أتذكرها أنا ولم أنسها لحظة واحدة ؟ شىء عجيب أن يلتقى الإنسان بفتاة لايعرفها مرَّةً واحدة فى حياته ويؤثر فيه هذا اللقاء العابر كل هذا التأثير فتحتل خياله فى اليقظة والمنام . لقد حدث مثل ذلك لدانتى عندما رأى بياتريس ، لم يرها سوى مرة واحدة وظل يحبها طوال حياته ، وحدث لروميو وجوليت ، لكن جوليت أحبت روميو ، وهذه الفتاة لا أعتقد أنها تتذكرنى ، إننى بالنسبة لها مجرد صورة مرَّت فى حياتها مع ملايين البشر ثم تلاشت كما يحدث عندما ينطفئ ضوء الجهاز الذى يعرض فيلما سينمائيا على الشاشة

فى هذه اللحظة وصل كمسارى الأوتوبيس مرددا كلمة :

ـ تذاكر . تذاكر .

لن أتركها هذه المرَّة دون أن أعرف عنها كل شىء . لن أترك هذه الفرصة تفلت منى كما حدث فى المرَّة السابقة .

وقف الكمسارى بجوار مختار موجها إليه الكلام :

ـ تذاكر ، تذاكر يا أستاذ .

انتبه مختار وكأنه صحا من حلم . أخرج من جيبه عشرة قروش عملة فضية وقال متلعثما :

ـ أجل . اعطنى تذكرة .

ـ إلى أين أنت ذاهب يا أستاذ ؟.

ـ أنا ذاهب إلى .. إلى ..

ـ نصف المسافة أم مسافة كاملة ؟.

ـ حتى نهاية الخط .

تسلم مختار التذكرة وباقى القروش العشرة .

لابد فى هذه المرة أن أتتبعها لأعرف بيتها لابد أن أعرف كل شيء عنها . لن أترك الأوتوبيس إلا عندما تهبط منه . سعيد عزت مسكين . إننى أعذره وأرثى لحاله . حقيقةً يوجد شيء اسمه الحب لا يستطيع الإنسان له ردا إنه كالقضاء والقدر . ترى هل تذكرنى ؟ لايبدو أنها تذكرنى . هأنذا بجوارها لايفصلنى عنها سوى خمسة سنتيمترات ، ولكنها فى الوقت ذاته بعيدة عنى وكأن بيننا ملايين الأميال ، أبعد من الشمس والقمر . هل أكلمها ؟ هذا غير معقول ، فأنا لم أعتد التحدث مع بنت لا أعرفها ، قد توجه لى كلمة احتقار فيحدث لى مثل ماحدث لسعيد عزت ، لا ، لن أكلمها . ولكن ماذا يحدث لو كلمتها ؟ لا ، لاداعى لذلك ، أنا حتى الآن لا أعرف بالضبط ماذا أريد منها ، كل ما أعرفه هو أننى أحبها ، أحبها أكثر من حب سعيد لنبيلة . إنها أجمل بكثير من نبيلة . هذا هو الجمال الذى يعجبنى .

توقف الأوتوبيس وانطلق صوت الكمسارى ينعق قائلا :

ــ العربة تعطلت ولن تتحرك .

ارتفعت أصوات متداخلة تقول فى غضب :

ــ ماهذا الكلام الفارغ ؟.

ــ هذه فوضى .

ــ ماذا نفعل الآن ونحن فى منتصف الطريق ؟.

ــ هذا استهتار بالناس .

صاح الكمسارى قائلا :

ــ قلت لكم إن العربة لن تتحرك ، انزلوا واركبوا عربة أخرى .

أخذ الركاب يهبطون من الأوتوبيس مغمغمين بكلمات غاضبة .

ماهذا الحظ التعس ؟ عندما أتيحت لى الفرصة لأجلس جنبها يتعطل الأوتوبيس ؟ ليس من المعقول أن تسنح مثل هذه الفرصة مرة أخرى .

وبينما تدور فى ذهنه هذه الأفكار غير المريحة سمعها تنادى قائلة :

ــ تاكسى ، تاكسى .

توقف التاكسى واستقلته وانطلق بها مبتعدا عن مختار الذى وقف يائساً يشيع التاكسى حتى غاب عن بصره وكأنه يشيّع ميتا .

انتهى كل شيء ، غابت عنى وضاعت منى فى الزحام مرة أخرى ، مثل النسيم لو مرَّ وراح .

- ١٠ -

عندما دخل مختار البيت كان شريف جالسا فى البهو يقرأ فى كراسة علم الحيوان ورشاد فى المطبخ يعمل لنفسه فنجانا من الشاى . قال شريف لمختار :

ـ لماذا تأخرت كل هذا التأخير ؟.

لم يجب مختار عن هذا السؤال وبدأ مكتئبا مرهقا مشغول الفكر . قال شريف :

ـ ما بك ؟ هل حدث ماكدّرك ؟.

ـ كدّرنى ؟ لا ، لم يحدث شىء .

ـ فيم إذن هذا التفكير العميق ؟.

ـ أفكر فى أشياء كثيرة .

ـ مثل ماذا ؟.

ـ سعيد عزت مريض ، أنا حزين من أجله .

ـ كيف ؟

ـ فى هذه الفترة القصيرة أصبح وكأنه إنسان آخر . لم أعرفه عندما رأيته .

ـ ما مرضه ؟

ـ أعصابه مرهقة إلى أقصى حد وحالته النفسية فى الحضيض .

ـ وما سبب هذا المرض المفاجئ ؟.

ـ لست أدرى .

ـ تقول إنك تفكر فى أشياء كثيرة ، هذا شىء ، فما هى الأشياء الأخرى ؟.

ـ شىء يشغل بالى ، دائم التفكير فيه .

ـ ماهو ؟.

ـ مشكلة الوجود والعدم .

كان هذا آخر مايتوقع شريف سماعه . قال بسخرية :

ـ مشكلة الوجود والعدم ؟ هل هذه هى المشكلة التى تشغل بالك ؟.

ـ أجل ، تشغل بالى جدا . هذا الوجود كله ، كيف جاء من العدم ؟.

ـ اسمع يا مختار ، أنصحك ألاّ تفكر فى هذه الأمور حتى لاتفقد عقلك .

ـ لايمكننى التوقف عن التفكير فيها . صورتها أمامى فى كل لحظة .

قال شريف بدهشة :

ـ علام تتكلم ؟.

ـ إنها تشغل تفكيرى بشكل عجيب . أجد نفسى أفكر فيها غصْباً عنى .

قال شريف وقد ازدادت دهشته :

ـ فى مشكلة الوجود والعدم ؟!

قال مختار متلعثما :

ـ مشكلة الوجود ؟ أجل . مشكلة الوجود والعدم .

ـ يوجد شىء غير هذا يشغل بالك .

ـ قلت لك إننى أفكر فى أشياء كثيرة .

ـ مثل ماذا ؟

ـ الحب . هل تعرف أن الحب شىء عجيب ؟ إنسان يرى إنسانة فيصبح دائم التفكير فيها ولايمكنه الحياة بدونها .

التقطت أذنا رشاد هذه الكلمات الأخيرة وهو قادم من المطبخ حاملا فنجان الشاى . جلس على حافة الكنبة البلدى متربعا وقال بسخرية :

ـ علام تتكلمون ؟.

قال شريف مبتسما :

ـ مختار يتحدث عن الحب .

ضحك رشاد وقال :

ـ الحب ؟! لا وجود لشىء اسمه الحب .

قال مختار بدهشة :

ـ لايوجد شىء اسمه الحب ؟ كيف ؟.

رشف رشاد رشفة طويلة من فنجان الشاى وقال :

ـ أنا شخصيا لو رأيت بنتا وأعجبتنى ، تجتاحنى رغبة فى التعرف بها ، ولكننى لا أفكر إطلاقا فى أن أحبها .

قال مختار :

ـ الحب لا علاقة له بالتفكير. لو دخل عنصر التفكير فى الحب لما أصبح حبا . الحب فى رأيى كالقضاء والقدر ، شىء يحدث للإنسان رغم أنفه .

قال رشاد :

ـ كلام فارغ ، أنا مثلا ، إذا انبهرت بجمال بنت من البنات فإننى أحاول بكل الطرق أن أقضى معها أوقاتا سعيدة ، ولا تهمنى فتاة بالذات ، إذ من الممكن أن تحل محلها أية بنت أخرى ، مثلا ، تلك البنت التى رأيتها فى حديقة الأندلس وأصبحت دائم التفكير فيها وتحلم بها فى اليقظة والمنام ، لوكنت أنا الذى رأيتها وأعجبتنى لتعرفت بها على الفور وصاحبتها وسعدنا معا دون أن تخطر فكرة الزواج على بالى . أنا يا ابنى عندما أرى وردة جميلة ، لا أظل أدور حولها وأتغزل فى رائحتها الزكية ، لاوقت لدى لمثل هذا الكلام الفارغ ، إننى أقطف الوردة وأشمها حتى أشبع منها وأعملها مربى وألتهمها . المهم عندى الطعم وليس المنظر.

قال شريف باشمئزاز :

ـ أعوذ بالله ، إذا كان هذا هو تفكيرك فلا ينبغى أن أصافحك أو ألمس يدك ضحك رشاد ضحكة مجلجلة ثم قال ساخرا :

ـ لماذا ؟ هل سأنقص وضوءك ؟ أنا لا أعرف نَظْم الأشعار ولا أحب الشعر . أنا مثلا ، لوكنت فى مكان عبد الحميد الشاعر وأعجبتنى روحية لكنت منذ زمن بعيد أخرج وأتنزّه معها . فلا أسهر الليالى أنظم فيها قصائد الغَزَل ، ثم أتهوَّر وأذهب لخطبتها من أبيها وأنا مُفْلس لا أملك سوى حصيرة بالية وأتشرد بسببها فى الشوارع .

قال مختار وكأنه لم يسمع من حديث رشاد سوى كلمة « عبد الحميد » .

ـ أنا ضميرى غير مرتاح ، لابد أن أبحث عن عبد الحميد حتى أعثر عليه بأية وسيلة .

قال رشاد ساخرا :

ـ وأين ستعثر عليه ؟ لابد أنه هبط على ناس آخرين ليعيش معهم مجانا كما كان يعيش بيننا .

قال مختار بانفعال :

ـ عبد الحميد شخص عزيز علىَّ ولا ينبغى أن نتركه ولانسأل عنه . ولا أسمح لأحد أن يتكلم عنه بهذا الشكل .

ـ لاتسمح لأحد ؟ ماذا تظن نفسك ؟.

قال مختار :

ـ أنا لا أفهم لماذا تحمل لعبد الحميد كل هذا العداء ؟ هل آذاك ؟.

قال شريف :

ـ بل كساه . هذه البدلة التى على جثته هدية منه . هدية من شخص لم يكن يملك غيرها .

قال رشاد :

ـ ألن تكفّا عن إذلالى بسبب قطعة القماش هذه ؟ هل سرقتها منه ؟ أليس هو الذى صمم على إهدائها لى ، يبدو أنكما كنتما ترغبان فى الحصول عليها . من يريد أن يأخذها منكما فليأخذها .

قال شريف :

ـ لا أحد منا يطمع فيها ، اشبع بها أنت . نحن لانقبل هدايا من إنسان محتاج .

قال رشاد :

ـ وهل هى هدية ؟ إنها أجر طعامه وشرابه ومسكنه . هل كان يدفع لنا شيئا ؟.

قال مختار محتدا :

ـ أنت شخص حقير ، أحقر إنسان رأيته فى حياتى .

ـ هل وصلت المسألة إلى هذا الحد ؟ أنت الحقير وستين حقير .

قال شريف محاولا تهدئة الموقف :

ـ كفى ياجماعة ، لا داعى لهذا الكلام .

قال رشاد ومازال منفعلا :

ـ ألم تسمع مايقوله ؟ يقول إنني حقير .

ـ لاداعي لكل هذا كفى الله الشر حقكما عليَّ . هيا نذاكر وكفى تضييعا للوقت .

ثم أردف قائلا لرشاد محاولا تغيير مجرى الحديث :

ـ هل ستحضر محاضرة الدكتور محمد ولى غدا يارشاد ؟.

ـ محاضرة عن ماذا ؟.

ـ محاضرة عامة عن تكاثر الأسماك .

قال رشاد :

ـ لا أرغب فى حضور مثل هذه المحاضرات ، سأذهب إلى السينما .

ـ أية سينما ؟.

ـ سينما حديقة الأزبكية . وستكون معى بنت حلوة .

كانت هذه أول مرة يعترف فيها رشاد بذهابه إلى السينما بصحبة إحدى البنات ، فقال شريف بدهشة :

ـ غير معقول . من هى هذه البنت ؟.

ـ ولماذا تريد أن تعرفها ؟ إنها بنت تعرفت بها . هل تظننى مثل عبد الحميد أو مختار أسهر أعد النجوم وأنظم الأشعار وعندما أرى البنت التى تعجبنى ينعقد لسانى فلا أنطق ؟ أنا على السينما فورا .

صاح مختار من غرفته قائلا :

ـ كفى ثرثرة . إلى متى تثرثران ؟.

قال رشاد .

ـ أمره عجيب هذا الإنسان ، هل يظن نفسه ولى أمرنا ؟.

صاح شريف قائلا لمختار :

ـ تعال يامختار اسمع مايقوله رشاد ، يقول إنه سيذهب إلى السينما بصحبة بنت تعرَّف بها .

قال مختار :

ـ يذهب فى ستين داهية .

فى شرفة نادى الكلية المصنوع من الخشب على الطراز الأوربى والمطل على ربوة تتناثر فوقها الأشجار يطلقون عليها اسم « الجبلاية » التى كانت جزءا من حديقة سراى الزعفران ، جلس مختار وشريف وحسين ورشاد فى فترة الظهيرة يتناولون بعض الشطائر . كان مختار موليا ظهره نحو الجبلاية متجها ببصره نحو شجرة ضخمة على بعد بضعة أمتار بالقرب من معمل الرياضة التطبيقية الذى كان يلقى فيه محاضراته الدكتور على مصطفى مشرفة ، بينما اتجهت أنظار باقى المجموعة نحو الجبلاية .

قال شريف موجها حديثه إلى حسين صالح :

ـ هل تظن أن نبيلة ستشترك معنا فى رحلة « برج العرب » ؟.

قال حسين :

ـ وما المانع ؟ أعتقد أنها ستشترك فى الرحلة .

قال مختار :

ـ لا أعتقد أنها ستسافر معنا فى هذه الرحلة فتكون هى الطالبة الوحيدة وتقضى عدة أيام هناك .

قال رشاد :

ـ أعتقد أنها ستشترك فى الرحلة .

قال شريف ساخرا :

ـ وما الذى جعلك تعتقد ذلك ؟.

قال رشاد :

ـ قلبى يشعر بذلك ، وقلبى لم يخدعنى أبدا ، أنا الذى لن أحضر معكم الرحلة .

قال شريف :

ـ منذ أسبوع كنت تنتظر موعد الرحلة بفارغ الصبر.

ـ غيرت رأيى . أفضل تمضية هذا الوقت فى المذاكرة .

قال مختار :

ـ ولكنك تعلم أن الدكتور أوليفر أخبرنا أن امتحان النبات سيتضمن سؤالا عن نباتات تلك المنطقة .

ـ هذا هو السبب الذى جعلنى أتأكد من اشتراك نبيلة فى الرحلة ، فهى تهتم بأى شىء ذى علاقة بالدراسة والامتحان .

قال حسين :

ـ وكيف ستجيب عن هذا السؤال يارشاد لو لم تذهب فى هذه الرحلة ؟.

ـ سأستعير كراستك وأنقل ماكتبته أنت . أم تُرى لاتمنح مذكراتك وكراساتك إلا لناس معينين؟.

قال حسين باشمئزاز :

ـ ماذا تقصد ؟ من هم هؤلاء الناس ؟.

ـ أقصد نبيلة .

ـ انقطعت صلتى بنبيلة ، إنها عندما ترانى الآن تشيح بوجهها عنى ، هل استرحت واستراح ضميرك ؟.

ـ ألهذه الدرجة ؟.

ـ أجل ، لهذه الدرجة ، والفضل لك فى ذلك ، أنت الذى انبريت لإذاعة خبر ذهابى للمذاكرة معها فى بيتها .

ـ ألست أنت الذى أخبرتنى بذلك ؟ أنا لم أختلق الخبر

كان فكر مختار مشغولا بشىء آخر ، قال :

ـ سعيد عزت مريض جدا ياجماعة .

قال حسين :

ـ إنه متغيب عن الكلية منذ فترة طويلة ، ما هو مرضه ؟.

قال مختار :

ـ لا أحد يدرى ، لم يستطع الأطباء تشخيصه .

قال شريف :

ـ مختار زاره فى البيت من حوالى عشرة أيام .

قال حسين :

ـ كان على مايرام وفى أحسن صحة ، ماذا جرى له ؟.

قال مختار :

ـ الله أعلم ، لا أحد يعرف ظروفه .

قال رشاد :

ـ يستاهل ، لكى يتوب عن إحضار المرآة ووضعها أمامه فى المعمل ليرى نبيلة خلسة .

قال مختار :

ـ أعتقد أن نبيلة لن تحضر معنا رحلة برج العرب .

قال رشاد متحديا :

ـ وأنا أقول إنها ستذهب ، تراهن ؟

ـ ليس هناك مايدعو للرهان ، ماذا يهمنى لو حضرت أولم تحضر؟ من ياترى سيحضر معنا من الأساتذة ؟.

قال حسين :

ـ سيأتى معنا الدكتور منير والدكتور عبد الحليم والدكتور شوقى .

قال رشاد :

ـ أنا توقعت وجود الدكتور منير فى الرحلة .

قال حسين :

ـ ولماذا توقعت ذلك ؟.

ـ يوجد استلطاف بينه وبين نبيلة .

قال شريف بامتعاض .

ـ الن تقلع عن التشنيع على الناس ؟ لست أدرى من أى نوع من البشر أنت .

ـ أنا لم أشنّع ، أقصد أنه ينوى خطبتها .

قال حسين :

ـ وكيف عرفت ذلك ؟ هل أطلعك الدكتور منير على أسراره ؟.

ـ ستثبت لكم الأيام صحة كلامى .

- ١١ -

فى صباح يوم الرحلة ، عندما انتهى شريف من الحلاقة وارتداء ملابسه ، لم يكن باقيا على قيام القطار سوى بضع دقائق ، فانطلق يجرى بصحبة مختار متجهين نحو المحطة التى وصلاها وهما يلهثان .

قال مختار بصوت متقطع وهو يصعد القطار :

ـ أيرضيك ياشريف أن تجبرنا على الجرى طوال هذه المسافة لنلحق القطار فى آخر لحظة ؟.

قال شريف بلا اكتراث :

ـ المهم أننا لحقناه .

كانت عربة الدرجة الثانية المحجوزة لطلبة هذه الرحلة مقسمة إلى دواوين ، فى كل ديوان كنبتان متقابلتان تتسع كل منهما لأربعة طلبة . قال مختار لشريف :

ـ تعال هنا فى هذا الديوان مع حسين صالح ، توجد أماكن خالية .

جلسا على الكنبة المقابلة لحسين وصفّر القطار إيذانا بالتحرك . فى هذه اللحظة رأى شريف نبيلة تجرى محاولة اللحاق بالقطار قبل تحركه . قال شريف لمختار :

ـ هاهى ذى نبيلة ، كنت تقول إنها لن تحضر الرحلة .

صاح حسين قائلا وقد شحب وجهه :

ـ انظروا ، الدكتور منير مد يده لنبيلة وجذبها لتصعد فى القطار .

قال شريف :

ـ وماذا فى هذا ؟ إنه يساعدها على الركوب حتى لاتسقط تحت عجلات القطار .

قال حسين وقد اجتاحته ثورة غضب :

ـ لا ، هذا لا يصح . يبدو أن الكلام الذى قاله رشاد صحيح .

قال شريف :

ـ ماذا قال رشاد ؟.

انتفض حسين واقفا وقال :

ـ لابد أن هناك استلطافا بينهما . سأذهب لأعرف من هم الجالسون معها فى الديوان احتفظوا لى بمكانى حتى أعود .

غادر حسين الديوان وقال مختار لشريف :

ـ مسكين سعيد عزت ، كان يتوق للاشتراك معنا فى هذه الرحلة .

قال شريف :

ـ ربنا يشفيه .

ـ هل تعرف أن سعيدا وحيد أبويه ؟.

ـ لا إخوة له ولا أخوات ؟.

ـ لا ، لم ينجبا سواه .
بدأ القطار يتحرك . قال شريف :
ـ وما الذى أرهق أعصاب سعيد فجأة بلا مقدمات ؟.
ـ يبدو أنه شديد الحساسية ، والناس الحساسون يؤذيهم أقل شىء .
بغتة ، وقف مختار صائحا وقد أشار بيده نحو مكان معين فى مبنى المحطة :
ـ انظر ، شىء عجيب
واتجه نحو باب عربة القطار محاولا النزول قائلا :
ـ سأنزل من القطار .
أسرع إليه شريف وجذبه بقوة قائلا :
ـ اعقل ولا تكن مجنونا ، هل من المعقول أن تقفز من القطار بعد أن تحرك ، ماذا حدث ؟.
ظل شريف ممسكا بمختار حتى أرجعه إلى مكانه فجلس منهارا وغمغم قائلا :
ـ عبد الحميد الشاعر .
قال شريف بلهفة :

ـ ما به ؟.
ـ رأيت أحد العساكر ممسكا به وقد تجمع حوله عدد من الناس . كان من الواجب أن أنزل من القطار لأعرف ماذا حدث له .
ـ هل أنت متأكد من أنه عبد الحميد الشاعر .
ـ طبعا متأكد ، هل أنا تائه عنه ؟.
ـ ولماذ قبض عليه العسكرى ؟.
ـ هذا ماكنت أرغب فى معرفته . مسكين ، لابد أنه فى محنة ويحتاج لمن يساعده ، كان لابد أن أسرع لمساعدته . إننى أبحث عنه فى كل مكان منذ مدة طويلة .
ـ مهما حدث فليس من المعقول أن تضحى بالرحلة من أجله .
ـ ماذا فعل عبد الحميد ليستحق هذه المهانة ؟ أنا لا أتصور أن يفعل مايتعارض مع القانون .
ـ أليس من الممكن أن يكون قد سرق شيئا ؟.
أنتفض مختار قائلا :
ـ عبد الحميد يسرق ؟ هذا شىء غير معقول .
ـ عندما يجوع الإنسان قد يفعل أى شىء .
ـ ليس عبد الحميد الشاعر الذى يفعل ذلك ، أنا أعرفه جيدا . إنه يفضل الموت جوعا على أن تمتد يده ليسرق . لن أستطيع الاستمتاع بهذه الرحلة . سأظل مشغول البال على هذا الرجل حتى ألقاه .
أطل مختار من نافذة القطار ورأى ذكرته الحقول بقريته فشعر بحنين لأمسيات الصيف التى كان يقضيها مع أصدقائه عند القنطرة التى تعبر الترعة عند حافة القرية ، وتذكر عندما كان يتجمّع فى طفولته هو

وعدد من أطفال القرية فى شهر رمضان قبيل الغروب عند تلك القنطرة منصتين لصوت المدفع الذى يصل إلى آذانهم خافتا من المدينة المجاورة فينطلقون بأقصى سرعتهم معلنين حلول موعد الإفطار ويتجه كل واحد منهم إلى منزله . ثم طاف بذهنه منظر عبد الحميد الشاعر والعسكرى قابض على ذراعه . ولاح له وجه الفتاة التى رآها فى حديقة الأندلس ورنَّ فى أذنه صوتها وهى تقول «كيوبيد» وعندما جلس جنبها على مقعد بالأوتوبيس بضع دقائق ، وتذكر سعيد عزت فشعر باكتئاب . قال لشريف :

ـ أنا متألم لعدم وجود سعيد عزت معنا .

ـ هل مرضه خطير لهذه الدرجة ؟.

ـ لو لم يكن فى حالة سيئة لما تخلف عن الرحلة . سأزوره بمجرد عودتى .

ـ إن شاء الله عند عودتنا يكون قد شفى .

تذكر مختار أن حسين صالح لم يرجع إلى المكان الذى طلب منهم أن يحتفظوا له به فقال :

ـ أين ذهب حسين صالح ؟ قال إنه راجع ولم يرجع .

ـ تجده قابعا فى الديوان الذى به نبيلة .

ـ يخيل إلىَّ أنه مشغول بالمرور على جميع الطلبة يخبرهم أن الدكتور منير أمسك يد نبيلة عند ركوبها القطار .

ظل مختار ناظرا نحو الأفق يتأمل منظر السماء ، ثم قال وكأنه يكلم نفسه :

ـ تحيرنى هذه المشكلة .

ـ مشكلة سعيد عزت ؟.

ـ لا ، بل مشكلة الوجود والعدم . كل هذا الوجود الذى حولنا كيف نشأ من العدم ؟.

نظر شريف إلى مختار بدهشة لايدرى ماذا يقول . أردف مختار قائلا :

ـ وتحيرنى مسألة أخرى .

قال شريف بسخرية :

ـ ماهى ياترى ؟.

ـ مسألة اللانهاية ، فكرى عاجز عن تصور اللانهاية ، أين نهاية هذا الكون ؟ وكيف يكون بلا نهاية ؟.

ـ توجد أشياء كثيرة لانستطيع تصورها . أشياء فوق طاقة الذهن البشرى نصحتك كثيرا يامختار ألاّ تفكر فى هذه الأمور حتى لاينفجر مخك .

فى هذه اللحظة اندفع حسين إلى الديوان متجهم الوجه . قال له شريف :

ـ أين كنت ؟.

ـ ذهبت أحكى للطلبة على المصيبة التى حدثت .

قال شريف بدهشة :

ـ مصيبة ؟ أية مصيبة هذه ؟.

ـ تلك المصيبة ، عندما أمسك الدكتور منير يد نبيلة وجذبها وهى تركب القطار .
قال شريف لمختار ضاحكا :
ـ ألم أقل لك ؟ لقد توقعت ذلك .
وأردف قائلا لحسين :
ـ ولكن ماشأنك أنت بهذا ياحسين ؟.
قال حسين بامتعاض :
ـ أعوذ بالله . ألم تحرك هذه العملة السوداء مشاعرك ؟ يبدو أنك من ذوات الدم البارد . هذه مسألة لايمكن أن نسمح بها ، ستنكّد علىَّ طوال الرحلة .
قال مختار محاولا تغيير مجرى الحديث :
ـ ماهذه الصحيفة التى معك ؟.
ـ مجلة « البعكوكة » .
قال مختار :
ـ البعكوكة ؟ أرنيها .
فى أثناء تصفح مختار للمجلة قال حسين :
ـ هل تعلم لماذا اشتريت البعكوكة ؟.
قال مختار وهو مستمر فى تصفح المجلة :
ـ لا ، لا أعلم ، لماذا اشتريتها ؟.
ـ قبيل تحرك القطار نادت نبيلة بائع الصحف واشترت مجلة انجليزية ، فأسرعت أنا بشراء البعكوكة .
قال مختار ساخرا :
ـ منتهى البطولة .
قال حسين :
ـ متى سنصل إلى برج العرب ؟.
قال شريف :
ـ انتظر حتى نصل إلى الإسكندرية أولا ، ومن الاسكندرية سنستقل قطارا آخر إلى برج العرب .
قال الدكتور منير للطلبة عند وصولهم إلى برج العرب :
ـ توجد هنا أربع استراحات .
ثم أشار إلى استراحتين متجاورتين قائلا :
ـ هاتان الاستراحتان ستبيتون فيهما .
وأردف مشيرا نحو استراحتين أخريين تبعدان عن الاستراحتين الأوليين نحو كيلو متر قائلا :
ـ أما هاتان الاستراحتان فإحداهما مخصصة لنبيلة والأخرى للأساتذة .
قال حسين مرتبكا :

ـ وهل ستقبل نبيلة المبيت وحدها فى الاستراحة ؟ أليس من المحتمل أن تخاف من الظلام ؟
قال الدكتور منير :
ـ من الممكن أن نترك لها الاستراحة مضاءة طوال الليل .
قالت نبيلة ناظرة لحسين بعينين مفترستين :
ـ ومن قال لك إننى أخاف من الظلام ؟ أنا لا أخاف من شىء .

ذهب الجميع إلى الاستراحات . شعر بعض الطلبة بإرهاق فتمددوا فوق الأسرّة الضيقة التى تشبه أسرّة المستشفيات ، وسار البعض يستطلعون المكان .

قبيل الغروب صحا مختار من إغفاءة وبحث عن شريف فوجده جالسا بمفرده تحت شجرة سنط فجلس جنبه . بعد فترة قصيرة أقبل نحوهما حسين مهرولا مقطب الحاجبين وقال وفى صوته رعشة :

ـ مصيبة ، حدثت مصيبة ؟.
قال مختار بفزع وقد تصور أن كارثة وقعت :
ـ مصيبة ؟! أية مصيبة ؟
قال حسين :
ـ رأيتهما بعينىَّ ، عينىَّ اللتين سيأكلهما الدود .
قال مختار وهو نصف نائم :
ـ عيناك سيأكلها الدود ؟ كيف ؟ أين ؟.
قال حسين :
ـ ما هذا ؟ هل كنت نائما ؟.
ـ غفت عيناى إغفاءه قصيرة ، ماهى حكاية عينيك والدود ؟ هل يوجد دود هنا فى الاستراحات ؟.
قال حسين منفعلا :
ـ أقول لك إننى رأيتهما بعينى اللتين سيأكلها الدود .
قال مختار :
ـ رأيت من ؟.
ـ الدكتور منير ونبيلة .
قال مختار :
ـ أين رأيتهما ؟.
ـ فوق الصخرة .
قال مختار وهو يفرك عينيه :
ـ ماذا حدث فوق الصخرة .
ـ الدكتور منير ونبيلة كانا جالسين جنبا لجنب فوق الصخرة يتأملان منظر غروب الشمس .
قال مختار :

ـ فعلا ، منظر غروب الشمس منظر جميل .

قال حسين وقد نفرت عروق رقبته غضباً .

ـ منظر جميل ؟ هل تجردت من الإحساس ؟ كانا جالسين يتكلمان معا .

قال شريف :

ـ وما هو الحديث الذى دار بينهما ؟.

قال حسين :

ـ الله أعلم .

قال شريف :

ـ ومن أدراك أنهما كانا يتحدثان ، ربما كانا صامتين .

ـ لا ، شفاههما كانتا تتحركان .

قال شريف :

ـ وهل يمكنك رؤية حركة الشفاه من بعيد وقت الغروب ؟

ـ أنا نظرى قوى .

فى خلال دقائق قليلة كان الخبر قد انتشر بين جميع الطلبة .

فى مساء اليوم التالى بعد العشاء ذهب شريف ومختار إلى استراحتهما استعداداً للنوم فى سريرين متجاورين . استلقى مختار وبعض الطلبة على أسرّتهم وجلس البعض الآخر على الأسرة يتحدثون . اندفع حسين إلى الاستراحة كالعاصفة وقال وهو يلهث :

ـ مصيبة ، مصيبة كبيرة .

انتفض مختار جالسا وقال :

ـ مصيبة أخرى ؟ مالك ترتعش هكذا ؟.

قال حسين :

ـ الدكتور منير .

ـ ماله ؟

ـ لايمكن السكوت على هذه الكارثة ، لسنا هنا طراطيرا .

قال شريف وقد نفد صبره :

ـ ماذا حدث ؟ تكلم .

ـ رأيتهما بعينىَّ هاتين اللتين سيأكلها الدود .

قال مختار منفعلا :

ـ ألا يوجد هنا شخص سيأكل الدود عينيه سواك ؟ ماذا رأيت ؟.

قال حسين :

ـ الدكتور منير كان ممسكا الفانوس فى الظلام .

قال مختار :

ـ هذا شيء طبيعى ، من المفروض أن يمسك الفانوس فى الظلام . هل تنتظر منه أن يمسك الفانوس فى النور ؟.

ـ كان ممسكا الفانوس فى الظلام وسائرا مع نبيلة لتوصيلها إلى استراحتها .

قال شريف :

ـ هل رآهما أحد غيرك ؟.

ـ أجل ، رآهما سعد وعبد المجيد عبد الوهاب . كلنا رأيناهما .

قال مختار :

ـ ما رأى سعد الدين فى الموضوع ؟ ماذا قال ؟.

ـ أحمر وجهه وغلى الدم فى عروقه وصمم على أن نقطع الرحلة ونرجع . وعبد المجيد قال إن هذا شيء لايمكن أن نلتزم الصمت إزاءه .

قال مختار مخاطبا جميع من فى الاستراحة :

ـ هيا نذهب إلى سعد الدين وعبد المجيد .

اجتمع الجميع فى الاستراحة الأخرى ، وبعد مناقشات عاصفة اتفقوا على اتخاذ قرار معين وتنفيذه صباح الغد .

ـ ١٢ ـ

كانت التعليمات تقضى بحضور الطلبة لتناول الفطور فى استراحة الأساتذة فى تمام الثامنة صباحا ، وبالأمس كانوا جميعا على موائد الطعام قبيل الثامنة ، ولكن فى صباح اليوم ظل الأساتذة ينتظرونهم إلى مابعد التاسعة ولم يحضر سوى نبيلة . قال الدكتور منير :

ـ هل من الممكن أن تذهبى إليهم يا نبيلة لمعرفة سبب تأخرهم عن الحضور ؟.

ـ أنا متأسفة ، اعفنى من هذه المهمة .

قال الدكتور عبد الحليم ؟.

ـ نذهب نحن إليهم .

ذهب الأساتذة الثلاثة وبقيت نبيلة فى انتظارهم بالاستراحة . عندما وصلوا وجدوا جميع الطلبة مجتمعين بالقرب من الصخرة التى جلس فوقها الدكتور منير ونبيلة فى مساء اليوم الأول من الرحلة . كان حسين واقفا فوق الصخرة يتحدث إلى الطلبة بانفعال ، ولكنه توقف عن الكلام وهبط من فوقها عندما رأى الأساتذة .

قال الدكتور منير :

ـ لماذا لم تحضروا للفطور حتى الآن ؟ لقد قلقنا عليكم .

قال سعد الدين :

ـ لانريد أن نفطر .

قال الدكتور منير :

ـ ولماذا ؟ ماذا حدث ؟ ألم يعجبكم فطور الأمس ؟.

لم ينطق أحد من الطلبة . قال الدكتور عبد الحليم .

ـ لابد من وجود أشياء لا تريدون الإفصاح عنها . لماذا لاتتكلمون بصراحة ؟.

قال حسين وعيناه ناظرتان نحو الأرض :

ـ لانريد استكمال الرحلة .

قال الدكتور منير :

ـ وما السبب ؟.

قال حسين وهو مايزال مطرقا للأرض .

ـ حضرتك تعرف السبب جيدا .

قال الدكتور منير بدهشة :

ـ أنا أعرف السبب جيدا ؟ أنا لا أعرف شيئا . هل صدر منى ما أغضبكم ؟.

قال حسين وقد بدأ يفقد السيطرة على أعصابه :

ـ لن نتكلم هنا ، عندما نصل إلى القاهرة سنقص على العميد كل ما حدث .

صاح حسن خالد مخاطبا الأساتذة :

ـ يجب أن تعتذروا لنا !.

قال الدكتور عبد الحليم بانفعال :

ـ هل تدرك معنى ماتقول ؟ نحن نعتذر لكم ؟! أبهذا الأسلوب يخاطب الطلبة أساتذتهم ؟.

وقال الدكتور شوقى :

ـ يبدو أن خدمتنا لهم لم تعجبهم . إننا نعد لكم الفطور بأنفسنا .

قال الدكتور منير وهو يستعد لمغادرة المكان :

ـ من يريد الحضور فليحضر ومن لايريد فهو حر .

والتفت نحو زميله وقال :

ـ هيا بنا .

عاد الأساتذة إلى استراحتهم غاضبين ولم يبق معهم سوى نبيلة التى بدا عليها الوجوم عندما علمت بإضراب الطلبة عن الطعام ورغبتهم فى قطع الرحلة . ظل الأساتذة ونبيلة عدة ساعات يجهدون أذهانهم للاهتداء إلى سبب واحد يفسّر لهم هذا الغضب المفاجئ الذى اجتاح الطلبة فلم يهتدوا إلى أى سبب معقول ، وبدأ لهم هذا السلوك العجيب لغزا عسير الحل .

تجمع الطلبة للتشاور فى الخطوة التالية التى ينبغى اتخاذها . قال سعد الدين :

ـ أرى أن نرسل الآن تلغرافا إلى عميد الكلية نخطره فيه أننا رجعنا من الرحلة لسوء معاملة الأساتذة لنا .

قال شريف :

ـ وماذا بعد إرسال التلغراف ؟.

قال حسين :

ـ المسألة فى غاية البساطة ، نركب القطار ونعود إلى الإسكندرية . ومن الإسكندرية نعود فى القطار إلى القاهرة ، مارأيكم ؟.

ارتفعت عدة أصوات موافقة على العودة إلى القاهرة . اتجهوا نحو المحطة أرسلوا التلغراف للعميد ، ثم ركبوا القطار ووصلوا إلى مدينة الإسكندرية .

عندما هبطوا على رصيف المحطة قال مختار :

ـ أين نذهب الآن ؟.

قال سعد :

ـ وهل يحتاج هذا إلى تفكير؟ نستقل القطار المسافر إلى القاهرة .

قال حسين :

ـ ولكن هناك مسألة لم نفكر فيها .

قال مختار :

ـ ماهى ؟.

ـ أنسيتم أننا سنسافر على نفقتنا ؟ هل معكم ثمن التذاكر من هنا للقاهرة ؟ أنا شخصيا لايوجد معى ولا مليم . حتى فلوس الرحلة لم أدفعها .

قال عبد المجيد :

ـ كل ما معى أربعة قروش .

قال مختار :

ـ وأنا معى عشرة قروش .

قال شريف :

ـ أنا لا أملك سوى ستر ربنا .

قال فكرى :

ـ أنا شخصيا معى فلوس كثيرة .

ارتفعت عدة أصوات تسأل فى لهفة :

ـ كم ؟.

ـ عشرة قروش ونكلة .

ضحك معظم الطلبة ، وقال مختار :

ـ ألا يوجد مع أحد منكم قيمة التذاكر ونرد له المبلغ عندما نصل إلى القاهرة ؟.
تعالت أصوات قائلة إنهم لايملكون شيئا . قال مختار :
ـ كل مايلزمنا أربعة جنيهات ، ألا نجد هذا المبلغ معك ياكمال ؟.
ـ أنا بالصراحة مفلس . كل ما كان معى دفعته ثمنا للتذكرة من برج العرب للإسكندرية .
قال سعد :
ـ وما العمل الآن ؟ كان من اللازم التفكير فى ذلك قبل أن نترك الأساتذة ونعود . لقد تسرعنا ياحسين
قال حسين :
ـ لم أكن أتصور أننا لن نستطيع تدبير ثمن التذاكر .
قال سعد بعصبية :
ـ وما العمل الآن ؟.
قال حسين :
ـ عندى فكرة .
قال البعض بلهفة :
ـ ماهى ؟.
ـ نرسل تلغرافا للأساتذة فى برج العرب نخبرهم أننا سننتظرهم فى المحطة غدا ، ونبحث عن فندق على قدر الحال نقضى فيه هذه الليلة .
قال مختار :
ـ وهذا الفندق الذى على قدر الحال كم سيكلفنا ؟
قال حسين :
ـ من الممكن أن نعثر على فندق يؤجر لنا السرير بخمسة قروش فى الليلة .
قال فكرى :
ـ وإذا لم نجد فندقا بهذا السعر ماذا نفعل ؟.
قال حسين :
ـ لا تعقّد الأمور يا فكرى ، نبيت فى الهواء الطلق فى حديقة النزهة فالجو رائع .
قال عبد المجيد :
ـ اسمعوا . لاتضيعوا الوقت ، هيا نرسل التلغراف للأساتذة أولا وبعد ذلك نسرع بالبحث عن الفندق .
قال حسين :
ـ وهذا التلغراف ، ألا تلزمه فلوساً ؟.
قال سعد :

ـ سيلكفنا حوالى أربعة قروش .

صاح حسين قائلا :

ـ أربعة قروش بأكملها ؟.

قال سعد بعصبية :

ـ قلت لكم لاتضيعوا الوقت ، هيا نرسل التلغراف

أرسلوا التلغراف وتطوع سعد بالبحث عن الفندق وجلسوا ينتظرونه عند النافورة التى فى ميدان المحطة .

بعد نحو ساعة أقبل سعد مبتسما . اتجهت جميع الأنظار إليه . قال :

ـ عثرت على فندق جنب المحطة . السرير فيه بخمسة وعشرين مليما فى الليلة . صاحب الفندق كان مصمما على ثلاثة قروش صاغ . ولكننى ظللت أساومه حتى قبلّ هذا التخفيض ، وتوصلت إلى ماهو أهم من ذلك ، سمح لنا بأن ينام اثنان على سرير واحد . وفى هذه الحالة يتكلف الشخص أثنى عشر مليما وعشرين خردة . فما رأيكم ؟.

قال حسين :

ـ بالأكل أم بدون أكل ؟.

احمر وجه سعد غضبا وقال :

ـ عجائب يا أخى ، اثنا عشر مليما وعشرين خردة وتريد أن تأكل أيضا ؟.

قال حسين :

ـ أنا شخصيا لا أملك عشرين خردة .

قال مختار :

ـ لاتشغل بالك ، سأدفع لك ونتحاسب عندما نصل إلى القاهرة .

قال حسين :

ـ وأين نذهب الآن ؟.

قال سعد :

ـ إلى حديقة النزهة أو حديقة الشلالات ، أيهما تختارون ؟.

قال مختار :

ـ أنا لا أعرف لا النزهة ولا الشلالات ، لم أر الإسكندرية إلاّ فى هذه الرحلة ، ولو سرت فيها بمفردى سأتوه .

حسم شريف الموضوع قائلا :

ـ نذهب إلى حديقة الشلالات .

قال شريف :

ـ على بركة الله ، ولكن لابد أولا أن نذهب إلى الفندق لنضع فيه حقائبنا .

كان الفندق فى أول شارع محرم بك يطل على المحطة . عندما رآه مختار خشى أن تتداعى جدرانه فزعا عند انطلاق صفير القطارات . يلوح وكأنه من الآثار التاريخية ، ذو مدخل مظلم تفوح منه رائحة العفن ، ولكنه بدا لعيونهم كملجأ من يلوذون به بدلا من المبيت فى العراء ، تركوا حقائبهم واتجه الموكب نحو حديقة الشلالات .

قال سعد لمختار وهما منبطحان متجاورين على حشائش الحديقة :

ـ ما رأيك فى الإسكندرية ؟.

ـ أنظف بكثير من القاهرة .

ـ عشت هنا ثلاث سنوات عندما كان والدى مدرسا بمدرسة العباسية الثانوية .

ـ هذا إذن سبب معرفتك لشوارعها ومساربها .

ـ لا ، ليس الأمر إلى هذا الحد ، فلقد تركتها منذ سبع سنوات عندما كنت صبيا ، وما رأيك فى حديقة الشلالات هذه ؟.

ـ حديقة الأندلس بالقاهرة أجمل منها .

قال شريف مبتسما إبتسامة خبيثة :

ـ أنا أعرف لماذا يحب مختار جنينة الأندلس ، إنها فى نظره أجمل حديقة فى العالم .

قال سعد مندهشا :

ـ وهل رأى مختار جميع حدائق العالم ؟.

قال شريف والابتسامة الخبيثة مازالت بين شفتيه :

ـ لجنينة الأندلس ذكريات جميلة لدى مختار .

قال سعد :

ـ ذكريات ؟! وماهى هذه الذكريات ؟.

قال مختار وقد احمرَّ وجهه موجها حديثه لشريف :

ـ ما هذا الكلام الذى تقوله ؟.

ـ لاتخف لن أقول شيئا .

شعر سعد برغبة فى معرفة هذه الذكريات ، فقال :

ـ أية ذكريات هذه يا مختار ؟ قل ولا تَخَفْ فأنا كتوم للأسرار .

ـ لاشىء ، شريف يهذى فى بعض الأحيان ويقول كلاما لامعنى له .

قال شريف وقد تلاشت ابتسامته :

ـ أنا أهذى وأقول كلاما بلا معنى ؟ إذا كان الأمر كذلك فسأعلن على الملأ ذكرياتك فى حديقة الأندلس .

أقبل حسين فى هذه اللحظة ، قال :

ـ ماذا تقولون ؟ من هو الذى يهذى ؟ هل أنا المقصود بذلك ؟.

قال مختار :

ـ لا ، لم نقل شيئا .

قال حسين :

ـ بل كنتم تتحدثون عن شخص ما . من هو ؟.

قال شريف :

ـ كنت أقول إن مختارا يحب جنينة الأندلس لأن له فيها ذكريات جميلة .

قال حسين بدهشة وسخرية :

ـ مختار له ذكريات جميلة ؟ ماهى هذه الذكريات يا مختار ؟

قال سعد :

ـ يبدو أن « تحت السواهى دواهى » كما يقولون . ماذا حدث يا مختار ؟

قال شريف :

ـ سأقول لأريحكما ، فى يوم من الأيام كان مختار يذاكر فى حديقة الأندلس فرأى بنتا جميلة شغلت قلبه ، منذ تلك اللحظة دائم التفكير فيها ليل نهار لدرجة أنه رسم لها صورة من الذاكرة رأيتها فوق المنضدة التى فى غرفته .

قال سعد :

ـ لهذه الدرجة ؟.

أنتفض مختار واقفا وقال وهو يبتعد عنهم :

ـ لن أجلس معكم .

قال سعد :

ـ وإلى أين تذهب ؟.

ـ إلى الفندق .

ـ ألا تخشى من أن تتوه ؟.

فى هذه اللحظة أقبل نحوهم رجل يحمل آلة تصوير كبيرة الحجم تتدلى منها ستارة سوداء وتمتد من أسفلها ثلاث أرجل خشبية طويلة . قال الرجل :

ـ صورة ، صورة تذكارية ، من يريد صورة تذكارية ؟.

وقف مختار ناظرا للرجل ، وقال حسين :

ـ بكم الصورة ؟.

ـ بقرش تعريفة ، خمسة مليمات .

قال شريف :

ـ ولكننا غرباء ، لسنا من الإسكندرية ، فمتى ستسلمنا الصور ؟.

ـ فى الحال ، بعد خمس دقائق .

قام سعد ونادى جميع الطلبة قائلا :

ـ تعالوا ياجماعة . سيلتقط لنا صورة تذكارية هيا بسرعة ، بعضكم يجلس على الحشائش والبعض يقف . سأقف هنا .

أسرع مختار بالجلوس بينهم وحدثت غمغمة غير واضحة الكلمات ، ثم اتخذوا الأوضاع التى اختاروها استعدادا للتصوير . قال المصوِّر :

ـ انتبهوا . واحد . اثنان ، ثلاثة .

والتقط الصورة . قال سعد :

ـ لقد رمشت عينى فى اللحظة التى التقط فيها الصورة ؛ سأظهر فى الصورة مغمض العينين .

قال مختار :

ـ كنت أتمنى أن يكون سعيد عزت معنا فى الصورة .

قال حسين :

ـ كنت أتمنى أن تكون معنا نبيلة .

قال سعد :

ـ وهل من المعقول أن تقبل نبيلة الظهور معنا فى صورة ؟ إنها ترفض مجرد التحدث مع أى واحد منا .

قال فكرى :

ـ يبدو أنك تعيش فى عالم آخر ، ألا تعلم أن أحد الموجودين هنا كان يذاكر معها فى بيتها ؟

قال سعد غير مصدق :

ـ يذاكر معها ؟! غير معقول . ومن هو هذا ؟.

قال حسين غاضبا :

ـ وما الداعى للكلام الآن فى هذا الموضوع ؟ ألا يكفيكم ماجرى لى بسببكم ؟.

قال فكرى :

ـ أنت البادئ بالحديث ، ألم تقل إنك كنت تتمنى أن تكون معنا نبيلة فى الصورة ؟.

قد سعد وقد استبدَّ به حبُّ الاستطلاع :

ـ من الذى كان يذهب للمذاكرة معها ؟.

أقبل المصور فى هذه اللحظة ووزع الصور على الذين دفعوا ثمنها . أخذ مختار يتأمل الصورة ثم قال :

ـ ستذكِّرنا الصورة بهذه الرحلة . ما رأيكم لو نرسلها لجريدة الأهرام لتنشرها ؟.

ضحك الجميع ، وأردف مختار قائلا :

ـ هذه اللحظة التى نحن فيها الآن ، ستصبح فى يوم من الأيام ذكريات . ترى أين سنكون بعد عشرين عاما وماهو المقدر لكل واحد منا فى عالم الغيب ؟.

قال حسين :

ـ هيا بنا إلى الفندق

بدت غرف الفندق وكأنها عنابر مدرسة داخلية . فهى فسيحة وبكل غرفة أربعة أسرَّة من الخشب لايزيد عرض السرير على نحو متر . عليها مراتب رقيقة مغطاة بملاءات يبدو أنها لم تغسل منذ وقت طويل ، شغلوا ثلاث غرف متجاورة .

عندما أقبل المساء ذهل مختار عندما أدار مفتاح النور فقال :

ـ شيء عجيب ، عندما أضأت المصباح أصبحت الغرفة أكثر ظلاما !.

كان الضوء خافتا توفيرا لنفقات الإضاءة . نام كل اثنين على سرير واحد وساعد الإرهاق والضوء الخافت على سرعة النوم . وما كادوا ينامون حتى صحوا مرعوبين عند سماع مختار يصيح قائلا :

ـ الحقونى ، الحقونى :

انتفضوا جالسين فى أَسِرَّتهم . ووجد بعضهم نفسه واقفا جنب السرير . قال شريف بلهفة :

ـ ما بك ؟ مابك يامختار ؟.

رأوا مختار واقفا يلهث مستمرا فى صياحه قائلا :

ـ الحقونى ، سيغمى علىَّ ، فأر ، فأر .

قال حسين :

ـ أين هذا الفأر ؟.

ـ دخل فى رجل البيجامة .

قال فكرى بهدوء :

ـ أمازال داخل رجل البيجامة ؟.

ـ أجل ،

قال شريف :

ـ انتر ، رجلك ، انتر رجلك بقوة .

قال فكرى بهدوء قائل :

ـ لاتخف ، لابد أنه فأر مستأنس لن يعض .

قال سعد : ·

ـ اخلع بنطلون البيجامة

أخذ مختار ينتر رجله نترات سريعة متتالية . صاح شريف قائلا :

ـ ها هو ذا الفأر .

اختطف شريف فردة حذاء وأسرع نحو الفأر محاولا قتله . ولكن الفأر اختفى خلف أحد الدواليب .

صاح مختار قائلا :

ـ أمتأكد أنت أنك رأيت الفأر ؟.

قال شريف :

ـ أجل . لاتخف ، لقد اختبأ خلف الدولاب .

اقتحم الغرفة صاحب الفندق ـ وهو رجل ضئيل الحجم نحيل الجسد ـ فى ملابس النوم ، قال صائحا بغضب :

ـ ماهذه الضوضاء ؟ أيقظتم جميع من بالفندق وأقلقتم راحتهم .

قال شريف :

ـ وجدنا فأراً فى الغرفة نحاول قتله .

ـ لايوجد فى الفندق فئران ، أين هذا الفأر ؟

ـ مرق واختبأ خلف الدولاب .

ـ وهل رؤية فأر تستوجب كل هذه الضجة ؟ لم يحدث من قبل أن اشتكى أحد من فئران الفندق .

قال مختار وآثار الفزع مازالت بادية فى ملامح وجهه :

ـ لقد تجرأ ودخل فى رجل بيجامتى .

ـ وماذا فى هذا ؟ من العار أن يفزع رجل طويل مثلك من فأر . لا أريد سماع أية ضجة فى الفندق .

ثم غمغم ساخرا وهو يترك الغرفة .

ـ إذا كان كل هذا الفزع من فأر فماذا أنتم فاعلون لو رأيتم ثعبانا ؟ ناموا والزموا الصمت .

غادر الرجل الغرفة وظل الجميع واقفين ناظرين نحو الدولاب الذى اختبأ خلفه الفأر . قال شريف :

ـ ثعبان ؟! تكون مصيبة لو خرج لنا ثعبان من تحت السرير .

أخذ حسين يدور فى أنحاء الغرفة وبدأ أنه يبحث عن شىء ، قال مختار :

ـ الفأر هنا خلف الدولاب ياحسين .

ـ أنا لا أبحث عن الفأر .

ـ عمَّ تبحث ؟ عن ثعبان ؟ .

ـ لا ، أنا أبحث عن اللحاف . هل رأى أحد منكم لحافى الذى اختفى ؟ .

قال سعد :

ـ لايوجد فى الفندق سوى لحاف واحد يغطون به الزبون حتى ينام ، ثم يأخذونه ليغطوا به زبونا آخر حتى ينام ، وهكذا . أذهب ونم بدون لحاف .

ـ كنت أريد أن أغطى جسمى ورأسى باللحاف حتى لا أشعر بالفأر إذا مشى فوقى وأنا نائم .

قال فكرى :

ـ لا داعى للوسواس ، اذهب ونم ودعنا ننام .

قال مختار :

ـ لن يغمض لى جفن والفأر مختبئ خلف الدولاب .

قال حسين :

ـ اسمعوا يا جماعة ، ما رأيكم لو سهرنا حتى الصباح ؟ .

قال فكرى :

ـ لامانع لدى

وقال مختار :

ـ أنا شخصيا لن أنام فى ليلتى

قال حسين :

ـ أنت تحسن تقليد العميد يامختار ، قلّد لنا الدكتور مشرفة عندما يصله التلغراف .

ـ لا مانع لدى أرسلنا له التلغراف على عنوان بيته . أليس كذلك ؟.

قال سعد :

ـ أجل .

قال مختار وقد جلس على حافة السرير محاولا تقليد صوت الدكتور على مصطفى مشرفة وصوت السيدة حرمه :

ـ ستأتى السيدة حرمه وتقول له : « يا على ، وصل تلغراف من طلبة رحلة برج العرب » فيقول لها « غير معقول ، تلغراف من طلبة الرحلة ، أرسلوه على عنوان البيت هنا ؟ ماذا يقولون ، ماذا يقولون ؟ أقرئى التلغراف » فتقول له « يقولون ، يا على ، رجعنا من الرحلة لسوء معاملة الأساتذة لنا »فيقفز من السرير ويقول « غير معقول ، ناولينى البدلة ، ناولينى القميص ، الأساتذة أغضبوا الطلبة ، رجعوا من الرحلة ، لابد أن يكون الطلبة هم المخطئون ، الأساتذة لايمكن أن يخطئوا » .

انفجر جميع الطلبة ضاحكين من أعماق قلوبهم فى أثناء تقليد مختار للعميد ، وبدأوا يحاولون النوم من جديد .

بعد فترة صحا عبد المجيد فوجد مختارا جالسا فى السرير مطرقا للأرض فقال له :

ـ أما زلت خائفا من الفأر يامختار ؟.

ـ هذه المسألة تحيرنى إلى أقصى حد يا عبد المجيد .

ـ مسألة الفأر ؟.

ـ لا ، مسألة أخرى .

ـ ماهى ياترى ؟.

ـ مسألة الوجود والعدم ، كل هذا الوجود الذى حولنا كيف جاء من العدم ؟.

صاح عبد المجيد قائلا :

ـ قوموا ياجماعة ، حدثت مصيبة .

صحا الطلبة مذعورين وقد ظنوا أن الفئران والثعابين تمرح فى الغرفة . قال حسين بلهفة :

ـ ماذا حدث ؟.

قال عبد المجيد :

ـ أخونا مختار مُخُّه فرقع . هل يمكنكم أن تتصوروا فيم يفكر وهو جالس فى سريرة فى الساعة الثالثة صباحا ؟.

قال حسين وهو نصف نائم :

ـ فى ماذا ؟.

ـ فى مشكلة الوجود والعدم .

قال حسن خالد ضاحكا :

ـ مشكلة الوجود والعدم ؟!.

قال عبد المجيد :

ـ أجل والله ياحسن ، يفكر فى مشكلة الوجود والعدم !.

رفع حسن عقيرته مغنيا :

ـ « مسكين وحالى عدم من كتر هجرانك » .

قال عبد المجيد بانفعال :

ـ كنى ياحسن يا (مغنواتى) اعمل معروفا . ليس هذا وقت الغناء .

قال مختار :

ـ كيف لاتفكرون فى هذه المشكلة ؟ ليست مسألة بسيطة . كيف نشأ كل هذا الوجود من العدم ؟ ألم يفكر أحد منكم فى ذلك ؟.

قال عبد المجيد :

ـ اسمع يامختار يا أخى ، نم ، نم وربنا يشفيك .

ـ ١٣ ـ

مع علمهم بأن القطار القادم من برج العرب لن يصل إلى الإسكندرية قبل الثانية عشرة ظهرا . إلا أنهم منذ العاشرة كانوا متجمعين فى المحطة فى انتظار الأساتذة . أخيرا . رأَوْا القطار قادما يلهث . قال مختار :

ـ ماذا نفعل لو لم نجد الأساتذة فى القطار ؟.

قال حسين :

ـ فى هذه الحالة يتحتم علينا الذهاب سيرا على الأقدام .

قال شريف :

ـ إن شاء الله سنجدهم فى القطار .

وقف القطار وبدأ الركاب يهبطون منه وعيون الطلبة تكاد تبرز من جماجمهم بحثا عن الأساتذة . صاح مختار قائلا بفرحة أجهضها الخجل :

ـ هاهم يهبطون من القطار .
وصاح حسين قائلا :
ـ وهاهي نبيلة معهم . تُرى ماذا سنقول وكيف نبدأ الكلام معهم ؟.
قال سعد :
ـ نذهب ونركب معهم القطار المسافر إلى القاهرة دون أن ننطق بأية كلمة
قال مختار :
ـ وإذا تكلموا هم ماذا نقول لهم ؟.
ـ لاشيء ، نلتزم الصمت .
ارتفع صوت حسن خالد مغنيا كلمات أحمد رامي التي غنتها أم كلثوم :
ـ « سِكِتْ والدمع اتكلم على هواه القلب ياما بيتألم من قولتي آه » .
نهره سعد قائلا :
ـ ماذا جرى لك ياسي حسن ياخالد ؟ هل هذا وقت غناء ؟.

وقف الأساتذة والطلبة وجها لوجه ، لم ينطق أحد منهم بأية كلمة وقد أطرق معظم الطلبة للأرض . انضمت نبيلة إلى الطلبة ولكنهم لم يبدوا أي اهتمام بها . أقبل الدكتور شوقي بعد أن أنهى إجراءات السفر وكان قد توجه إلى ناظر المحطة لهذا الغرض . كان القطار المتوجه إلى القاهرة واقفا على الرصيف . سار الأساتذة نحو القطار والطلبة خلفهم في صمت وكأنهم يسيرون في جنازة ، وركبوا ، وتحرك القطار .

قال شريف وهو يدير مفتاح الشقة :
ـ ستكون مفاجأة لرشاد عندما يجدنا عائدين من الرحلة قبل موعد انتهائها .
ـ تُرى هل نجده بالبيت ؟

فتح شريف الباب بهدوء ودخل هو ومختار على أطراف أصابعها . سمعا رشاد يصيح وفي صوته رعشة فزع :
ـ من ؟ من الذي دخل ؟
قال مختار :
ـ نحن ، رجعنا من الرحلة .
صاح رشاد بصوت مرتجف :
ـ غير معقول ، ولماذا رجعتم بهذه السرعة ؟ من المفروض أن تستغرق الرحلة عشرة أيام .
قال مختار :
ـ نحن الآن في منتهى التعب ، سنحكي لك فيما بعد .
خرج رشاد من غرفته إلى البهو شاحب الوجه مضطربا بشكل ملفت للنظر . قال له مختار :
ـ مابك ؟ إنك تبدو وكأن جميع مفاصلك مفكوكة ، لم أرك في حياتي بهذا المنظر .
عند ذلك حدثت مفاجأة أذهلت كلا من شريف ومختار وجعلتهما يقفان مشدوهين ، فلقد برزت من

غرفة رشاد فتاة جميلة تكاد تذوب خجلا وبدت وكأن رجليها لاتقويان على حملها فاستندت على الجدار بإحدى يديها ومحاولة تخبئة وجهها باليد الأخرى . صاح مختار موجها حديثه إلى الفتاة قائلا :

ـ من أنت ؟

لزمت الفتاة الصمت وقال رشاد متلعثما :

ـ هذه .. هذه ..

صاح شريف قائلا :

ـ من هى ؟.

قال رشاد :

ـ روحية .

امتقع وجه مختار وانهار شريف فوق الكنبة البلدى . قال مختار :

ـ أمن أجل هذا فضّلت البقاء هنا ولم تحضر الرحلة ؟.

اتجهت روحية نحو الباب فى خطوات مترنحة وقد سالت دموعها على خديها . فتحت الباب ثم أغلقته خلفها وسُمِعَت خطواتُها تهبط السلم ببطء ، فأسرع رشاد وفتح الباب وظل ناظرا إليها حتى غابت عن بصره وعاد إلى الشقة وقد شعر بمزيج من الغضب والخجل . قال شريف :

ـ هل وصلت الأمور إلى هذا الحد يارشاد ؟.

ـ لاشأن لك بى ، أتظن نفسك ولىَّ أمرى ؟ أنا حر فى تصرفاتى .

ـ لم أكن أتصور أن تسمح لك أخلاقك مهما بلغت من الانحطاط أن تتصرف مثل هذا التصرف .

قال مختار :

ـ أمن أجل هذا فَرِحتَ عندما ترك عبد الحميد الشاعر البيت ؟.

قال شريف :

ـ ليخلو له الجو وينفرد هو بها .

قال رشاد وقد بلغ ذروة الغضب .

ـ اسمع أنت وهو ، لقد أطلت بالى عليكما أكثر من اللازم ، بعد ذلك لن أسكت على أية إهانة ولن تلوما إلا نفسيكما .

بدأ التأثر الشديد على وجه مختار وهو يقول :

ـ يتضح من ذلك أن عبد الحميد المسكين كان يبيت الليالى ساهرا ينظم فيها الأشعار وحضرتك تطارحها الغرام وتقضى معها أسعد الأوقات .

قال رشاد :

ـ وماذا أفعل ؟ هى التى تحبنى .

صاح مختار قائلا وقد بدأ يفقد أعصابه :

ـ وماذا تعرف أنت عن الحب ؟.

ـ لم أقل إننى أحببتها ، بل قلت إنها هى التى أحبتنى ولا أريد أن أحطم قلبها .
قال مختار :
ـ لو عرفتك على حقيقتك لاحتقرتك وكرهتك وضربتك بنعل حذائها . لقد استغللت براءة وسذاجة هذه البنت المسكينة . قل لى ، إلى أى مدى وصلت علاقتك بها ؟.
قال رشاد :
ـ من الأفضل ألا تتدخل فيا لايعنيك حتى لاتندم وتسمع مالايرضيك .
قال مختار مخاطبا شريف :
ـ أرأيت فى حياتك مثل هذه الوقاحة ؟ لابد أن أبحث عن عبد الحميد الشاعر فى كل مكان وأرجو منه أن يعيش معنا هنا من جديد .
قال رشاد باستخفاف :
ـ فليرجع ، لاشأن لى به ، لو استطعت العثور عليه تكون بطلا .

ـ ١٤ ـ

كان رشاد قد تواعد مع روحية على اللقاء فى ركن منعزل بكازينو « نسيم الربيع » . لم يكن اللقاء بهجا كما كان فى المرات السابقة . شعرت روحية ببركان يمور فى أعماقها مهددا بالانفجار فى أية لحظة ، لاتكاد ترى أو تسمع شيئا مما حولها . قالت بصوت ضعيف يسحقه اليأس :
ـ لقد وعدتنى ولم تنفذ وعدك .
حاول رشاد أن تلتقى عيناه بعينيها ولكنها كانت تشيح بوجهها عنه متجنبة النظر إليه . قال :
ـ اصبرى ، لكل شىء أوان .
ـ فات الأوان ولا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك . أريد أن أعرف بكل صراحة ، متى ستتزوج ؟
ـ أنت تعلمين أننى لا أستطيع الزواج إلا بعد حصولى على البكالوريوس ، أنا مازلت طالبا أعتمد على أبى ، ولو عرف أننى أنوى الزواج قبل حصولى على الشهادة سيكسر رقبتى .
ـ أنت تعلم جيدا لماذا لا أستطيع الانتظار . لابد من إصلاح ما أفسدته .
ـ قلت لك ياروحية ياحبيبتى أننى لن أستطيع الزواج فى الوقت الحالى .
ـ وما العمل ؟ هل تنتظر حتى يذبحونى ؟.
ضحك رشاد ضحكة مفتعلة وقال :
ـ لاسمح الله ولا قدّر ، أنا أفديك برقبتى .
ـ المسألة جد وليست هزلا يا رشاد . إنها حياة أو موت بالنسبة لى .
اختنقت بالبكاء وأردفت قائلة :
ـ ألا تستطيع تقدير موقفى ؟.

ـ أرجوك لاتبكى ، لا أحتمل رؤية الدموع التى تسيل من عينيك الجميلتين .
قالت وهى ما زالت تبكى :

ـ كل يوم يمر يقربنى من الهاوية . هناك أشياء لانستطيع إخفاءها أكثر من ذلك ؟ ألا تريد أن تفهم ؟ لابد من الزواج بأسرع مايمكن .

ـ أقسم لك أننى أتمنى أن يتم الزواج فى أقرب وقت ، ولكن كيف أتزوج وأنا مازلت طالبا ؟ اتحسبين الزواج لعبة ؟

ـ وهل بنات الناس هن اللاتى تحسبهن لعبة فى يديك ؟ ألم تؤكد لى أن الزواج سيتم فى خلال أسبوعين ؟.

ـ أسبوعان ؟ هل هذا معقول ؟.

ـ لآخر مرّة أقول لك إننا لابد أن نتزوج فى خلال أسبوع أو أسبوعين على الأكثر . أنا فى انتظار حضورك إلى البيت لتخطبنى ونعقد العقد كما وعدتنى ، وقبل ذلك لا أريد أن أرى وجهك .

وقفت عابسة واتجهت بخطى سريعة نحو باب الخروج فأسرع خلفها رشاد وسار بالقرب منها قائلا :

ـ انتظرى ولا داعى للعصبية . لقد أنقذتك من ذلك العجوز العاطل الذى كنت على وشك الوقوع فى مصيدته .

ـ إذا كنت تقصد عبد الحميد فلابد أن تعرف أنه أشرف منك . هذا الرجل لم يحاول إنشاء أية علاقة معى ، وعندما أحبنى جاء وخطبنى من أبى على الرغم من ظروفه القاسية ، ولكنك أنت لاتملك الشجاعة الكافية لتخطو هذه الخطوة وتتحمل مسئولية عملك .

ظل واقفا بالقرب من باب الكازينو ناظرا إليها وهى تبتعد عنه . دخلت فتاة أنيقة جميلة فتحول بصره نحوها بحركة لا إرادية ورآها تجلس مع شاب كان فى انتظارها ، فجلس وطلب فنجانا آخر من الشاى أخذ يحتسيه مفكرا فى المأزق الذى وضع نفسه فيه .

فى هذه الأثناء كان مختار جالسا على الكنبة البلدى فى البهو يفكر فى أشياء كثيرة . قفزت فى خياله صورة الفتاة التى رآها فى حديقة الأندلس ، ثم مشاهد متناثرة من رحلة برج العرب ، ثم منظر عبد الحميد والعسكرى يجره من ذراعه فى المحطة ، وكان شريف جالسا عند مائدة الطعام التى تتوسط البهو يراجع محاضرة النبات . قال وكأنه يقرأ أفكار مختار :

ـ هل بحثت عن عبد الحميد ؟.

طافت بذهن مختار غمامة من الحزن وقال :

ـ بحثت عنه فى كل مكان ، والذى يحيرنى ويؤلمنى منظر العسكرى وهو ممسك بذراعه . أفكر كثيرا فى هذه المسألة ولم أستطع الاهتداء إلى مبرر معقول للقبض عليه .

ـ هل سألت فى المحطة ؟.

ـ سألت الضابط القضائى ، وسألت ناظر المحطة ولا أحد منهم يتذكر شيئا عن الموضوع ، قالوا إن العساكر كل يوم تقريبا يقبضون على أشخاص كثيرين لأسباب مختلفة . لست أدرى أين أجده .

— ١٥ —

تجمّع الطلبة فى معمل علم الحيوان انتظارا لقدوم المعيد. كانت نبيلة ، كعادتها ، جالسة فى ركن منعزل . دخل حسين مندفعا شاحب الوجه وقال :

ـ تعالوا ياجماعة ، العميد طلب مقابلتنا . يبدو أن تحقيقا سيجرى بشأن ماحدث فى رحلة برج العرب .

قال مختار :

ـ من أخبرك بهذا ؟.

ـ الأستاذ سيد مسلّم طلب منى أن أبلغكم جميعا ، هيا ، العميد فى انتظارنا فى غرفته .

قام الجميع ماعدا نبيلة التى ظلت جالسة فى مكانها. قال العميد :

ـ عرفت تفاصيل ماحدث فى رحلة برج العرب ، ومهما كانت الأسباب ، لا أجد مبررا لقطع الرحلة والعودة بدون الأساتذة .

قال حسين :

ـ ياسعادة البك نحن لم نرتكب أيَّ خطأ ، إننا ...

قاطعه العميد قائلا بانفعال :

ـ كل تصرفاتكم كانت خاطئة . لم يصدر من الأساتذة ما يدعو إلى هذا التصرف الشاذ المتهور ، ماذا حدث ؟ أحد الأساتذة المشرفين على الرحلة يقوم بتوصيل طالبة إلى الاستراحة التى تبيت فيها ، يسير وهى تسير خلفه بكل أدب ، ما العجيب فى ذلك ؟ هل حدث شىء آخر ؟.

قال حسين متلعثما :

ـ لقد مد لها يده عندما كانت تهم بركوب القطار ، وأمسك يدها وساعدها على صعود القطار .

ـ وماذا فى هذا ؟ هل هذا عمل مخل بالأدب ؟ على العكس ، ينبغى أن يُشكر على ذلك . يوجد شىء اسمه (اتيكيت) . أنا لن أعفيكم من العقاب إلا إذا اعتذرتم للأساتذة .

قال حسين :

ـ سنعتذر للأساتذة .

ـ سأعفو عنكم لو قبل الأساتذة اعتذاركم ، ولكن لو لم يقبلوه فسأعاقب كل من ترك الرحلة ، وسيكون العقاب شديدا رادعا .

قبل الأساتذة اعتذارهم فأعفاهم العميد من العقاب .

- ١٦ -

فى الركن المعهود بكازينو « نسيم الربيع » قال رشاد لروحية بغضب :

ـ اسمعى ، لا أحب أن أراك بهذا الوجه العابس .

ـ أريد أن أعرف متى سنتزوج .

ـ ألا يوجد على لسانك سوى سيرة الزواج ؟ أكلما رأيت خلقتى تسأليننى عن موعد الزواج ؟.

ـ أنت وعدتنى بذلك . ألا تستطيع تقدير ظروفى ، ألا تعلم أنك لو تخليت عنى سيكون مصيرى القتل ؟.

خبأت وجهها بيديها وانخرطت فى البكاء . قال محاولا تهدئتها :

ـ اطردى من ذهنك هذه الأفكار المرعبة . كيف يقتلونك ؟ هل شاعت الفوضى ؟

قالت محاولة التغلب على البكاء :

ـ هذه آخر مرّة أتحدث فى هذا الموضوع . إذا لم يتم زواجنا فى خلال أسبوع سأذهب إلى الكلية وأحكى لعميدكم كل شىء . أنا لن أسكت . إنها مسألة حياة أو موت .

قال بسخرية :

ـ تذهبين إلى عميد الكلية وتحكين له ؟ وما دخل العميد فى ذلك ؟ أمجنونة أنتِ ؟

قالت وقد حاصرها ظلام اليأس :

ـ هل معنى هذا أنك لاتنوى تصحيح خطئك ؟

ـ لا ، لست ناويا على شىء ، افعلى مابدأ لك .

انتفض واقفا وتركها وحدها وغادر الكازينو .

- ١٧ -

فى هذه الأثناء ، كان مختار فى المطبخ يعمل عجّة بيض وشريف منهمكا فى تقطيع الطماطم والبصل لعمل السلاطة . قال مختار :

ـ يساورنى القلق على سعيد عزت .

ـ هل زرته مرّة أخرى ؟.

ـ لا ، ولكنه منقطع عن الكلية منذ وقت طويل .

ـ زره واطمئن عليه .

ـ سأزوره غدا بعد خروجى من الكلية .

دق جرس الباب ، قال مختار :

ـ من ياترى ؟.

ـ قد يكون رشاد .

ـ رشاد معه مفتاح البيت .

عاد جرس الباب يدق فى إصرار ، فذهب شريف وفتح الباب ، وما كاد يرى القادم حتى شعر بمزيج من الدهشة والفرح . صاح قائلا :

ـ عبد الحميد ؟! غير معقول ، أهلا وسهلا ، تفضَّل .

سمع مختار شريفا يذكر اسم عبد الحميد فهرول نحو الباب . رأى عبد الحميد فى البهو مع شريف . احتضن عبد الحميد وقد شعر بفرح حقيق لم يشعر بمثله منذ زمن طويل :

ـ أين كنت يارجل ؟ قلَّبْنا الدنيا بحثا عنك . أين الحصيرة ؟.

ـ سُرِقَت !.

ضحك مختار وقال :

ـ غير معقول . من سرقها ؟.

ـ أولاد الحرام كثيرون .

ـ رأيتك منذ أيام فى محطة السكة الحديد وأنا فى القطار المسافر إلى الإسكندرية وكنتُ على وشك النزول للقائك ولكن القطار كان قد تحرك فمنعنى شريف من النزول . كان معك أحد العساكر .

ـ أجل يا سيدى ، أهانونى ، الله يجازيهم .

قال شريف :

ـ من هم الذين أهانوك ، ولماذا ؟.

وقال مختار :

ـ ماذا كنت تعمل فى المحطة ؟.

ـ كنت عائدا من طنطا .

ـ وماذا كنت تعمل فى طنطا ؟.

ـ شعرت برغبة فى زيارة السيد البدوى ، فركبت القطار ووصلت إلى طنطا وزرت السيد البدوى وقرأت الفاتحة وعدت فى القطار الذى وجدته واقفا عند رصيف المحطة .

قال شريف :

ـ كل هذا حسن ، ولكن ما علاقته بالإهانة والعسكرى ؟.

ـ ربنا سترها فى الذهاب بدون تذكرة ، ولكن فى العودة لم يسترها ، ضبطونى ، وعندما نزلت من القطار أخذونى فى زفَّة وسلمونى لناظر المحطة .

قال مختار بلهفة :

ـ ثم ماذا ؟.

ـ لاشىء ، قلت لهم إننى لا أملك فلوسا ، احبسونى .

قال مختار بفزع :

ـ هل حبسوك ؟.

ـ للأسف لم يحبسونى ، ناظر المحطة غمز بعينه للعسكرى فضربنى على خدى الأيسر فأدرت له خدى الأيمن ، وأطلق سراحى ، محبة فى السيد البدوى .

أسرع مختار بإحضار العجة والسلاطة وطلب من عبد الحميد أن يشاركها الغداء ، فجلسوا حول المائدة . كان عبد الحميد شبه صائم عن الطعام منذ يومين ، وقد بدأ وجهه أصغر حجما وأكثر شحوبا ، وعلى الرغم من بذل مجهود عنيف حتى لايبدو ملهوفا على الأكل ، إلا أن مختارا شعر بذلك ، بأسرع بإحضار علبة (بولبيف) وفتحها ووضعها فى طبق وأحضر مزيدا من الخبز وبعض الفول المتبقى منذ الصباح ووضعها على المائدة . لم يستطع عبد الحميد التظاهر بعدم اللهفة على الطعام أكثر من ذلك فأقبل عليه بلا تحفُّظ .

عندما انتهوا من الأكل أسرع شريف بعمل الشاى وجلسوا يحتسونه . قال مختار :

ـ كيف حالك الآن يا عبد الحميد ؟.

نظر عبد الحميد لمختار بعينين مبتلتين خبا بريقهما وقال :

ـ كما ترى .

ثم أردف قائلا بعد تردد :

ـ الحقيقة أننى جئت اليوم لأستفسر عن شيء .

قال مختار :

ـ خيرا .

تلفت عبد الحميد فى أنحاء المكان ثم همس قائلا :

ـ أين رشاد ؟ هل هو هنا ؟.

قال مختار :

ـ لا ، خرج ولم يرجع حتى الآن .

ـ يخيل إلى أننى رأيت شيئا لا أستطيع تصديقه .

نظر مختار إلى عبد الحميد بترقب وقال شريف :

ـ خيل إليك ماذا ؟.

ـ رأيت رشادا أمس فى ميدان العتبة الخضراء وبصحبته روحية ، هل توجد علاقة بينهما ؟.

قال شريف باشمئزاز :

ـ روحية ؟، احمد ربنا على عدم زواجك منها .

قال عبد الحميد بلهفة وقد شعر برجفة .

ـ لماذا ؟ ماذا حدث ؟.

ـ روحية ماشية مع رشاد .

شعر عبد الحميد بدوار ، ولكنه أقنع نفسه بأن شريفاً كذب عليه لكى لايأسف على عدم زواجه من روحية . قال وكأنه يحدث نفسه :

ـ روحية ماشية مع رشاد ؟! هل هذا معقول ؟ هذه البنت البريئة التى نظمت فى حبّها أربع قصائد من أجمل أشعارى ، ماشية مع رشاد ؟!.

بدأ الشك يتغلب على اليقين فأردف قائلا وهو على وشك البكاء :

ـ لماذا يحدث ذلك ؟ ماذا جرى للدنيا ؟.

قال شريف :

ـ إنها ليست كما كنت تتخيلها ، إنها فاسدة .

قال عبد الحميد بنظرات تدور فى كل اتجاه ولاترى شيئا :

ـ غير معقول ، غير معقول إطلاقا .

قال شريف :

ـ هاهى ذى التى كنت ترى الزواج منها حلما جميلا .

صاح عبد الحميد قائلا بانفعال شديد :

ـ لا ، البنت كانت طاهرة كالملاك ، رشاد هو الذى أفسدها .

وأخذ يمسح دموعه بكم سترته .

ـ ١٨ ـ

عندما فتح رشاد باب الشقة لم ينتبه فى بادئ الأمر لوجود عبد الحميد الذى كان جالساً فى مكان يتوارى خلف الباب عند فتحه ، فى حين أن شريفا ومختارا كانا فى مواجهة الباب فلم ير سواهما لحظة دخوله ، ولكنه عند إغلاق الباب فوجئ بوجود عبد الحميد . شعر رشاد بانقباض وخوف غامض ، وغمغم قائلا :

ـ من ؟ عبد الحميد ؟ أمازلت حيّا ؟

قال عبد الحميد بصوت خافت :

ـ أجل ، مازلت حيّا ؟.

قال مختار وقد ودَّ لو يلقى برشاد من النافذة :

ـ أهكذا يكون الترحيب بشخص عزيز علينا مثل عبد الحميد بعد غياب طويل ؟.

قال رشاد بسخرية :

ـ وماذا تريدنى أن أفعل ؟ أرقص ؟ أعزف موسيقى ؟.

قال مختار متحديا :

ـ عبد الحميد سيبقى معنا هنا .

ـ وأنا لا أريد أن أبقى معكم ، سأبحث عن مكان آخر .

ـ فى ستين داهية .

انبعثت من الشارع ضجة غير واضحة الكلمات ، تمكنت آذانهم من التقاط جملة واحدة هي :
ـ لاحول ولاقوة إلا بالله .
قال مختار وقد شعر برجفة خفيفة تسرى فى جسده :
ـ ماذا حدث ؟
أسرعوا نحو الشرفة محاولين اكتشاف سبب الضجة ، ماعدا مختارا الذى اتجه نحو باب الشقة قائلا :
ـ سأذهب لأرى ماحدث .
قال شريف وهو يجهد عينيه مادّاً بصره من الدور الرابع لرؤية مايحدث على أرض الحارة :
ـ يبدو أن شخصاً وقع من أحد المنازل .
قال عبد الحميد مرتبكا وقد شحب وجهه .
ـ من أين وقع ؟ أين هو ؟.
قال شريف وهو يحدّق وقد شاهد مختارا يشيح بوجهه ويهرول عائدا نحو باب العمارة :
ـ لا استطيع الرؤية جيدا من خلال الناس المتجمعين عاد مختار مضطربا واندفع نحو الشقة مغمغما :
ـ مصيبة ، مصيبة كبرى ، لا حول ولا قوة إلا بالله .
قال عبد الحميد بلهفة :
ـ ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟.
قال مختار وقد اغرورقت عيناه بالدموع :
ـ روحية وقعت فى الشارع .
شعر عبد الحميد وكأن قلبه قد انفجر. انهار جالسا على الكنبة قائلا بلهفة وصوت مختنق :
ـ روحية ؟! ولكنها ماتزال حيّة ، أليس كذلك ؟.
قال مختار :
ـ لا أظن .
صاح عبد الحميد قائلا بصوت مختنق بالبكاء :
ـ أين الإسعاف ؟.
أسرع نحو الشرفة ونظر إلى الطريق نظرة خاطفة ثم أشاح بوجهه قائلا :
ـ لايوجد إسعاف .
اندفع نحو باب الشقة قائلا :
ـ سأذهب لأحضر الإسعاف .
تشبث به مختار قائلا :
ـ تعال يا عبد الحميد ، لقد طلبوا الإسعاف بالتليفون .
صاح عبد الحميد قائلا بانفعال شديد :
ـ ولماذا لم يأت حتى الآن ؟

انخرط فى البكاء قائلا :

ـ ليتنى ماجئت فى هذا اليوم المنحوس .

وأردف قائلا وكأنه يحدث نفسه بذهول :

ـ ولكن كيف وقعت فى الشارع ؟ كيف ؟.

قال مختار :

ـ لا أحد يدرى ، عندما وقعت لم يكن فى البيت سواها .

قال عبد الحميد باكيا :

ـ لماذا يحدث ذلك ياربى ؟ لماذا ؟.

قال مختار :

ـ لم أستطع رؤية منظرها . لم أستطع .

ارتفعت الضجة من جديد . قال شريف وهو ينظر من الشرفة :

ـ الإسعاف وصل .

قال االشرفة :

ـ الإسعاف وصل .

قال عبد الحميد وهو مندفع نحو باب الشقة :

ـ سأذهب معها .

قال رشاد بهدوء وكأنه تخلص من عبء ثقيل :

ـ وبأى صفة تذهب معها ؟ لا أنت قريبها ولا خطيبها .

قال عبد الحميد باكيا :

ـ لم يحبها أحد مثلى . لم يحبها أحد كما أحببتها . لماذا فعلْتَ هذا يارب ؟

قال شريف وهو ينظر من الشرفة :

ـ شىء عجيب ، يبدو أن عربة الإسعاف لم تحملها . تركتها ورَجَعَت .

سمعوا جرس الإسعاف مبتعدا عن المكان . قال رشاد :

ـ لابد أنها ماتت ، الإسعاف لايحمل الجثث .

صاح عبد الحميد ثائرا :

ـ ومن يحمل إذن إذا لم يحمل روحية ؟ لن يحمل أعزَّ من روحية ؟ سأحملها على كتفى ، أجل ، سأحملها أنا .

جذبه مختار ومنعه من الخروج قائلا :

ـ اهدأ يا عبد الحميد ، اهدأ ، لاتنفعل بهذا العنف .

قال عبد الحميد ومازال يبكى :

ـ لماذا يارب ، لماذا تموت روحية وأعيش أنا ؟ لماذا لم تُمتنى بدلا منها فأنا لافائدة من وجودى فى

الدنيا ؟ لماذا أنا على قيد الحياة ؟ أريد أن أموت ، أريد أن أموت .

قال مختار :

ـ كفى ياعبد الحميد ، كفى ، لاترهق نفسك أكثر من طاقتك .

ـ مافائدتى فى الدنيا ؟ لماذا أنا حى ؟.

قال رشاد :

ـ لماذا كل هذا الحزن على روحية ، هل كانت تعيرك أى اهتمام ؟.

غمغم عبد الحميد فى ذهول وكأنه يحدث نفسه :

ـ جميلة كالأزهار ، بريئة كالأطفال ، لم يحبها أحدٌ كما أحببتُها .

أسرع مختار وأحضر كوب ماء قدمها لعبد الحميد الذى بدأ وكأنه فى غيبوبة :

ـ خذ يا عبد الحميد ، عبد الحميد ، خذ اشرب هذا الماء .

فتح عبد الحميد عينيه وقال بصوت ضعيف :

ـ ليتنى ما أتيت ، ليتنى ما أتيت . هكذا حظى ، لم يحبها أحد كما أحببتها .

بغتة اندفع نحو باب الشقة قائلا :

ـ سأنزل لأراها ، أجل ، سأنزل لأراها ، قد تكون ردَّت إليها الرروح . قد لاتكون روحية .

ثم التفت نحو مختار وقال :

ـ أمتأكد أنت أنها روحية ؟ أجل ، سأنزل لأراها .

جذبه مختار بقوة ليمنعه من النزول قائلا :

ـ لاتكن مجنونا . لقد انتهى كل شىء .

قال عبد الحميد وهو يضرب كفا بكف :

ـ كل شىء انتهى ! غير معقول ! أهكذا ينتهى الإنسان فى لحظة ؟.

ثم تفجرت نافورة الشعر من الينبوع الكامن فى أعماقه فانطلق ينشد :

زهـرةٌ - فى الـروض قـالت لـلـخـمـيـلـة
قـد ذَوَى الـغصنُ ومـا لـلـزهـر حـيـلـةْ
نضرتى ضـاعـت فسـاعـاتى قـلـيـلـةْ
إنما الأحلام مـازالت جـمـيـلـةْ

إنسابت الدموع من عينى شريف ومختار . قال شريف :

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله ، سأذهب لأصلّى ركعتين .

أردف عبد الحميد منشدا :

لَوْنِيَ الـفـتـانُ قـد ولَّى وراحْ
لم يـعـد يـزهو على خـد الملاحْ

بـــعـــد حـــينٍ سوف تـــذرونى الـــريـــاحْ
وعـــــيونى لـن تـــرى وجـــهَ الصـــبـــاحْ

قال مختار مختنقا بالبكاء :
ـ لم أعد أحتمل .
استمر عبد الحميد منشدا :

فـــإذا أبصرتِ فى ظـــل الـــنـــخـــيـــلْ
بـــلـــبلاً دمـــعُ الهوى مـــنـــه يـــســـيـــلْ
يـــرســـل الآهـــاتِ من قـــلـــب عـــلـــيـــلْ
خـــبـــــرّيـــــه أننى صـــنـــت هـــواهْ
غـــاب عـــن عـــينى والـــقـــلـــبُ احـــتـــواه
وإلى أن ودّع الجـــســـــــمُ الحيــــــاهْ
لم يـــكـــن فى الـــقـــلـــب محبوبٌ ســـواهْ

ودفن رأسه فى كفيه وانخرط فى بكاء مرير .

ـ ١٩ ـ

بذل مختار مجهودا كبيرا حتى تمكن من إقناع عبد الحميد بالبقاء معهم فى البيت . أصبح قليل الكلام شارد الفكر حائر العينين متحاشيا الجلوس فى الشرفة المطلة على بيت روحية .

كانت تساور مختارا شكوك غير مريحة . قال لرشاد بعد تردد .

ـ اسمع يا رشاد ، أريد أن أسألك سؤالا وتجيب عنه . بمنتهى الصراحة .

ـ اسأل .

ـ هل كانت علاقتك بروحية سببا فى المأساة التى حدثت لها ؟.

ـ وما علاقتى بالموضوع ؟ ليس من المعقول أن أكون أنا الذى ألقيت بها من النافذة .

ـ أنت تفهم جيدا ما أقصده . لقد ارتكبتَ جريمة قتل .

ـ أنا ارتكبت جريمة قتل ؟ ماهذا الكلام الفارغ الذى تقوله ؟.

ـ من المؤسف أن أمثالك يقتلون ويهربون من العقاب ، ولكن الله لن يغفر لك .

قال رشاد ثائرا :

ـ ماذا تقول ؟ أنا لم أفعل شيئا ولا علاقة لى على الإطلاق بهذا الموضوع .

ـ أنت غررت بهذه البنت المسكينة وتسببت فى موتها ، وعليك ترتيب أمورك والبحث عن مسكن آخر ، فلا أنا ولاشريف نرغب فى وجودك معنا .

ـ ومن قال إننى أرغب فى البقاء معكما ؟ منذ عودة عبد الحميد وأنا دائم البحث عن مكان آخر .
ـ سيبقى عبد الحميد معنا هنا .
ـ يبقى هنا أو لايبقى أمر لايهمنى .
ثم أردف قائلا فى همس على الرغم من علمه بأن البيت فى تلك اللحظة لم يكن يضم غيرهما .
ـ هل عرف عبد الحميد شيئا عن علاقتى بروحية ؟.
ـ لم يخبره أحد منا ، المهم الآن أن نجنب عبد الحميد رؤية خلقتك هنا .
ـ ولا أنا أحب أن أرى خلقته ، سأسكن فى بيت أحسن من هذا ستين مرّة وفى منطقة راقية نظيفة .
ـ وجودك فيها سيوسخها أين ستسكن ؟.
ـ فى العباسية جنب الكلية ، مع سليم فتحى .
ـ خيرا تفعل ، الطيور على أشكالها تقع .

ـ ٢٠ ـ

فى أحد أركان نادى الكلية جلس مختار وحسين وفكرى قبيل الثانية بعد الظهر يقضمون شطائر الكبد والجبن الرومى ويبتعلونها نصف ممضوغة فى عجلة إذ لم يبق سوى عشر دقائق على موعد درس علم الحيوان العملى . قال مختار :
ـ ستنتهى علاقتنا بالكلية بانتهاء هذا العام ، وقد لانراها بعد آخر يوم فى الامتحان . سنشتاق إلى الجبلاية وشجر الجوافة والمعامل والمدرجات .
قال حسين :
ـ قد تعيَّن معيدا وتبقى فى الكلية .
قال مختار :
ـ هذا أمل بعيد المنال ، لابد من الحصول على مجموع مرتفع جدا ، وفضلا عن ذلك فإنهم لايعينون سوى أعداد قليلة ، وتمر أعوام دون أن يعينوا أحدا .
قال حسين :
ـ أنا شخصيا مصمم على التعيين فى وظيفة معيد .
قال فكرى :
ـ وهل أنت الذى تعين نفسك ؟ لا أحد يضمن مجرد النجاح فى هذه الكلية ، وإذا حصلت على أعلى مجموع قد لاتوجد وظيفة معيد خالية .
قال حسين :
ـ من جهة المجموع ، أنا أضمن حصولى على مجموع مرتفع جدا ، أما من جهة الدرجات الخالية فلابد من وجودها . أنا متأكد من أن نبيلة ستصبح معيدة ولست أقل منها ، لابد أن أصبح أنا أيضا معيدا .

قال مختار :

ـ آمال وأحلام .

قال فكرى :

قد تتحقق ، من يدرى ؟.

قفزت صورة سعيد عزت فى ذهن مختار ، فقال :

ـ مسكين سعيد عزت ، لا أظن أنه سيدخل الامتحان . كان يأمل فى التعيين فى وظيفة معيد .

قال حسين :

ـ لم يعد هناك أمل فى ذلك ، ماهو مرضه ؟.

ـ سبق أن قلت لك إنه مصاب بانهيار عصبى .

ـ أعصابه كانت سليمة وقوية ، ماذا جرى له ؟

ـ يبدو أنه يعانى من مأساة ، مسكين ، سأزوره اليوم لأطمئن عليه .

ـ ٢١ ـ

كانت غرفة سعيد على ماهى عليه كما رآها مختار آخر مرّة ، لم يتغير فيها شىء ، وخيل لمختار أن الكتب الموضوعة على المنضدة لم تمتد يد إليها طوال هذه الفترة . كان سعيد ممددا على الفراش وقد تغيرت ملامحه وعلى فمه ابتسامة حزينة . قال لمختار عندما جلس جنب سريره :

ـ أشكرك يامختار ، أنت الوحيد الذى تزورنى .

ـ أتمنى أن أراك معنا فى الامتحان .

ـ أنا تَعِبٌ جدا يامختار ولا أحد يشعر بتعبى . كانت عندى آمال كبار .

أطرق مختار وقد شعر بحزن عميق وغمغم قائلا :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

ـ كلُّه منها ، كلُّه من نبيلة ، سامحها الله . كل ماجرى لى كان بسببها ، منذ طردتنى من بيتها .

ثم أردف قائلا وقد اختنق بالبكاء .

ـ هى التى قتلتنى ، لن أستطيع العودة إلى الكلية .

ثم قال بعد فترة صمت :

ـ هل تذهب هى إلى الكلية .

ـ أجل .

قال سعيد ونظرهُ مثبتٌ فى سقف الغرفة :

ـ الدنيا لاتستحق مانبذله فيها من عناء ، ماذا سنأخذ من الدنيا ؟ لماذا نعيش يامختار ؟ ماقيمة الحياة إذا

كان الموت يطاردنا ؟ هذا الكوكب الذى نعيش عليه كوكب بشع ، كوكب ملعون . مافائدة الحب والزواج وإنجاب الأبناء إذا كان كل شيء يموت ؟ أصبحت لا أخشى الموت . الإنسان منا كالنملة ، كلما ماتت نملة حلّت محلها نملة جديدة ولا فرق بين نملة وأخرى ، كلُّه نمل . نحن كالنمل ، لا فرق بيننا وبين النمل .

ـ لماذا كل هذا التشاؤم ؟ ينبغى أن تتفاءل وتفكر فى مستقبل جميل مشرق .

ـ لا وجود لشيء اسمه المستقبل ، المستقبل سيصبح ماضيا ، والماضى معناه موت الزمن ، الزمن أيضا يموت . ألم أقل لك إن هذا الكوكب الذى نحن فوقه كوكب مرعب ، ملعون . كل مافيه يموت ، حتى الزمن .

لاحظ مختار أن سعيدا يبذل مجهودا كبيرا فى أثناء الكلام ، تخرج الكلمات من فمه بصعوبة فقال :

ـ لا تتكلم كثيرا يا سعيد ، يخيل إلىَّ أن الكلام يتعبك .

ـ حقيقةً أنا أتعب من الكلام . كل كلمة أنطقها تؤلم رأسى ، ولكننى أحب التحدث معك . أنت الشخص الوحيد الذى أرتاح عندما أتحدث إليه . لا أجد من أكلمه غيرك . أريد أن أقول لك إن هذه الدنيا لا تساوى شيئا . لو قدِّر لى أن أشفى من مرضى هذا فلن أفكر فى الزواج أو إنجاب الذريّة . ما فائدة كل هذا مادام مصيرنا الفناء ؟.

ـ الذى يشغلنى شيء آخر .

نظر سعيد إلى مختار قائلا بصوت ضعيفٍ :

ـ ماهو ؟.

ـ مسألة الوجود والعدم . كيف نشأ كل هذا الوجود من العدم ؟.

ـ حقيقةً ، كيف نشأ هذا الوجود من العدم ، ومع ذلك سوف يصبح الوجود عدما فى يوم من الأيام . هذه الدنيا مخيفة يامختار ، لم أعد أفهم فيها شيئا ، ولا أحد يستطيع فهمها .

سادت لحظة صمت ، ثم قال سعيد وهو ناظر نحو سقف الغرفة :

ـ هل ترى نبيلة ؟.

ـ أجل ، أراها .

ـ أما زالت تلبس النظارة السوداء ؟.

ـ أجل ، لست أدرى لماذا . يبدو أن عينيها حساسة للضوء .

ـ هل يبدو عليها الفرح أم الحزن ؟.

ـ تبدو عادية ، لا فرحانة ولا حزينة .

ـ اغفر لها يارب .

- ٢٢ -

عندما وقف مختار عند محطة الأوتوبيس عائدا إلى بيته تمنى لو تركب معه فتاة حديقة الأندلس كما حدث فى المرّة السابقة . لم يكن الأوتوبيس مزدحما فى هذه المرّة ، كانت معظم المقاعد خالية ، وعندما لم يجد فتاة حديقة الأندلس جالسة فيه فكَّر فى النزول وانتظار أوتوبيس آخر ، ولكنه طرد من ذهنه هذه الفكرة الساذجة . عندما دخل البيت بادره شريف قائلا :

ـ كيف حال سعيد ؟.

ـ عندما رأيته لم أعرفه ، كان شاحب الوجه ، يكاد يكون هيكلا عظميا ، غائر العينين ، ذا نظرات غريبة وكلام فيه حزن ويأس ، يتحدث كثيرا عن الموت ، ومع ذلك سألنى عن نبيلة . يريد أن يعرف ما إذا كانت فرحانة أم حزينة !.

ـ ألهذه الدرجة يحبها ؟ لم أكن أتصور أن الحب من الممكن أن يحطم إنسانا بهذا الشكل . ربنا يكفينا شر الحب الذى من هذا النوع . على فكرة ، ما أخبار البنت الحلوة التى رأيتها فى حديقة الأندلس ؟ ألم ترها مرَّةً أخرى ؟.

ـ رأيتها ثلاث مرات .

ـ أين ؟.

ـ فى الحلم .

ـ وماذا حدث بينكما فى الحلم ؟.

ـ فى آخر حلم رأيتها راكبة أرجوحة وأنا راكب أرجوحة أخرى جنبها ، وكلما اتجهت بأرجوحتها فى اتجاه ، تتجه أرجوحتى فى الاتجاه الآخر .

ـ ثم ماذا ؟.

ـ ثم صحوت من النوم .

ـ ألم تتحدث معها ؟.

ـ لا ، لم أنطق .

ـ لماذا ؟.

ـ خجلت .

ـ ما هذه البطولة ؟! قم نَمْ فقد تراها .

تعجب شريف عندما وجد عبد الحميد جالسا فى الشرفة المطلة على بيت روحية بعد أن ظل متجنبا النظر نحو نافذتها عدة أيام ، قال له :

ـ قل لى يا عبد الحميد ، أمازلت تحب روحية حتى بعد موتها ؟.

ـ ولآخر لحظة فى حياتى ، حتى نتقابل . كنت أتمنى أن أعثر على وظيفة ولو بخمسة جنيهات فى الشهر ، لو كنت عثرت على هذه الوظيفة لتزوجتها وكانت الآن على قيد الحياة .

ـ كل شىء مقدَّر يا عبد الحميد .

فُتح الباب ، ودخل مختار ، رُوِّع شريف عندما رأى عينيه محمرتين والدموع تترقرق فيهما . سأله بلهفة :

ـ ما بك يامختار ؟ ماذا حدث ؟.

جلس مختار وقد خبأ عينيه بكفِّه ولزم الصمت . قام عبد الحميد ووضع يده على ظهر مختار وقال :

ـ ماذا حدث يامختار ؟ سلامتك ، طمِّنىّ .

رفع مختار يده عن عينيه ومسح بها بعض قطرات من الدموع وقال :

ـ سعيد عزت .

صاح شريف قائلا بفزع :

ـ ماذا حدث له ؟

ـ البقية فى حياتكم ، توفى .

ساد الوجوم وغمغم شريف قائلا :

ـ لا حول ولاقوة إلا بالله . لماذا يحدث هذا ؟ استغفر الله العظيم . إنه شخص رقيق مهذب لم يحدث أن جرح شعور أى إنسان ، ومازال صغيرا فى زهرة العمر . استغفر الله العظيم . سأصلى ركعتين .

قام شريف ودخل غرفته وساد الصمت الذى قطعه عبد الحميد عندما قال :

ـ وكيف عرفت هذا الخبر المزعج ؟.

ـ ذهبت اليوم لزيارته فوجدت سرادقا منصوبا جنب البيت فانقبض قلبى ، سألت ، فعلمت أنه هو .

ـ على أية حال لا تحزن يامختار ، ليس الموت بالبشاعة التى تتصورها . الموت راحة . كل مافى الأمر أن الناس يشعرون بالخوف والرهبة من المجهول .

ـ أنا أرثى لحال أبيه وأمه فهو ابنهما الوحيد . كان أبوه واقفا يكلم نفسه .

- ٢٤ -

فى جميع أيام الامتحانات يلقى على عبد الحميد عبء إضافى أصعب من الامتحان نفسه ، فهو المكلف بإيقاظ من معه فى الموعد الذى يحددونه حتى لايتأخروا عن الامتحان . كان يضطر أحيانا إلى إلقاء الماء على وجه شريف لصعوبة إيقاظه ، وكثيرا ما ظل ساهرا حتى الصباح حتى لاتغفو عيناه فى الموعد المحدد ، ولقد حاول فى أحد أيام امتحان العام الماضى ضبط المنبّه على ساعة معينة . ولكن أتضح أن كل من فى البيت ، بما فيهم عبد الحميد ، لم يستجيبوا لجرس المنبّه ، ولولا أن عبد الحميد صحا من تلقاء نفسه فى ذلك اليوم بعد فترة قصيرة لضاع منهم الامتحان ، وكانوا يطلبون منه أحيانا الاستيقاظ مبكرين عن الموعد المعتاد لمراجعة بعض أجزاء من المواد . قال عبد الحميد :

ـ متى تريدون الاستيقاظ غدا ؟.

قال مختار :

ـ لانريد أن نصحو ، سنبقى نائمين حتى المغرب

قال عبد الحميد بدهشة :

ـ حتى المغرب ؟! لماذا ؟ ألا يوجد امتحان غدا ؟.

ـ كان اليوم آخر أيام الامتحان ، سأنام وأيقظنى بعد شهر .

ضحك عبد الحميد وقال :

ـ ومتى تظهر النتيجة ؟.

ـ بعد أسبوعين أو ثلاثة ، وسأسافر إلى البلد ، ولكن شريفا سيبقى هنا .

ـ ألم يكن من الأفضل أن تظل هنا أنت أيضا حتى ظهور النتيجة ؟.

ـ سيرسل لى شريف تلغرافا عند ظهور النتيجة فأحضر للبحث عن وظيفة .

أطرق عبد الحميد للأرض وقال :

ـ كنت أتمنى أن أحصل أنا أيضا على وظيفة . هل سأظل طوال حياتى مسكينا هكذا ؟ أريد وظيفة . بخمسة جنيهات لا أكثر.

ـ ستعثر على وظيفة قريبا ، وبأكثر من خمسة جنيهات .

ـ لا ، لست طماعا ، لا أريد أكثر من خمسة جنيهات فى الشهر.

ثم أردف قائلا بصوت جاد لا تشوبه أية سخرية وكأنه يستفهم عن شىء فى غاية الخطورة :

ـ قل لى يامختار ، ألن تشتاق لحديقة الأندلس ؟.

قال مختار متلعثما :

ـ حديقة الأندلس ؟ طبعا سأشتاق إليها .

ـ قل لى بصراحة ، هل تحب هذه البنت ؟ هل تحبها كما أحببت أنا روحية ؟.

ـ أخشى أن أقول لك ياعبد الحميد أن حبى لها قد يفوق حبك للمرحومة روحية .

انتفض عبد الحميد وقال بانفعال وكأن حريقا اندلع فى أعماقه :

ـ ماهذا الذى تقوله ؟ هل تهيننى يامختار ؟ لم ولن يوجد حب فى الدنيا أكثر من حبى لروحية .

فزع مختار ولكنه اعتاد من عبد الحميد مثل هذه الثورات المفاجئة فقال محاولا تهدئته :

ـ لا تغضب منى ، أنا متأسف ، حبى لفتاتى لايزيد على حبك لروحية .

قال عبد الحميد وقد هدأ فى الحال كعادته :

ـ لكن ياأخى ، كيف تحب فتاة لا تعرف عنها أى شىء ، حتى اسمها لا تعرفه .

ـ الاسم لايدل على شىء . ألا يعجب الإنسان بزهرة لايعرف اسمها ؟ ومهما كان اسمها ومهما كانت ظروف أهلها فإننى أحبها ، شىء خارج عن إرادتى .

قال عبد الحميد وكأنه اكتشف سر الحياة :

ـ هذا هو الحب ، لا يفهمك سوى شاعر مثلى ، شعورك رقيق كشعورى .

ـ قال مختار بصوت خافت وكأنه يبوح بأمر محظورٌ الإفصاح عنه :

ـ أنا أيضا أنظم الشعر .

قال عبد الحميد وكأن هذا التصريح الذى يسمعه من مختار لأول مرة لم يدهشه :

ـ شخص مثلك له هذا الشعور والإحساس المرهف لابد أن يكون شاعرا .

قال عبد الحميد بعد تردد :

ـ كتبت أغنية سأقدمها للإذاعة .

سيطر على عبد الحميد شعور غير مريح لم يستطع إخفاءه فقال :

ـ الإذاعة ؟ ! لا داعى لمسألة الإذاعة هذه ، هل تريد أن تنافسنى ؟.

ضحك مختار وقال :

ـ وهل أنا الوحيد الذى سأنافسك ؟ البلد ملىء بالشعراء .

ثم أردف قائلا وقد شعر فى أعماق نفسه بعطف شديد على عبد الحميد :

ـ الواقع أنها ليست شعرا ، بل زجلا .

ـ لا يهم ، أمير الشعراء أحمد شوقى بجلال قدره كتب أزجالا غناها عبد الوهاب ، أسمعنى أغنيتك .

قال مختار بعد أن أطرق للأرض فترة قصيرة :

ياوردة مالك خجلانه ... لون الشفق ساكن فيكِ
خايف أشوفك دبلانه ... تفضل عيونى تبكيكِ
أنا لىَّ محبوب يشبه لك ... فى لون خدوده وفْ سحره
باحب دايما أنظر لك ... كل لمَّا أشوفك أفتكره
إنتِ وحبيبى تسروا العين ... وإن شفتكم يفرح قلبى
باحبكم انتم الاتنين ... وإن كنتِ مش داريه بحبّى
لو كنتِ رَحْ تدبلى منِّى ... حيقاسى قلبى من بُعدك

وإن كان حبيبي يغيب عنّي مين رَحْ يواسى العين بَعدك؟

قال عبد الحميد بصوت متهدج :

ـ أنت موهوب يامختار. أنت شاعر. أنت فنان.

ثم اختنق بالبكاء وأردف قائلا :

ـ ستتعذب فى الدنيا كثيرا ، مثلى.

قال مختار بلهفة وقد رأى الدموع تنساب من عينى مختار :

ـ مابك ياعبد الحميد ؟ هل تبكى ؟

قال عبد الحميد وهو يجفف دموعه :

ـ سامحنى يامختار ، ذكرتنى بروحية.

ـ ٢٥ ـ

جلس محمود ، الشقيق الأصغر لمختار ، على كرسى أمام البيت منصتا إلى صوت مزمار اعتاد سماعه من آن لآخر منبعثا من منزل مرسى الطبال القريب من منزلهم. كان محمود قد انتهى من امتحان النقل من السنة الأولى الثانوية إلى السنة الثانية. ارتفع صوت نباح كلاب كاد يطغى على صوت المزمار. التفت مستطلعا سبب هذا النباح المفاجئ فأبصر أخاه مختارا قادما نحوه حاملا حقيبة السفر ، فانطلق يعدو إلى والدته التى كانت متربعة على الكنبة البلدى فى بهو المنزل ليزف إليها هذه البشرى وخرج من البيت مسرعا نحو أخيه وهرولت خلفه الخادمة مبروكة التى أخذت الحقيبة من مختار قائلة :

ـ حمد الله على السلامة ياسيدى مختار.

ـ كيف حالك يامبروكة ؟ هل تزوجت ؟.

ضحكت مبروكة وقد احمر وجهها وقالت :

ـ أكلما رأيتنى تسألنى إذا كنت تزوجت ؟ لا ، لم أتزوج.

كان مختار يتعجب بينه وبين نفسه من بقاء مبروكة حتى الآن بدون زواج . فهى فتاة فى نحو السادسة والعشرين بيضاء البشرة رائعة الجمال تقوم منذ طفولتها بخدمة الأسرة.

عندما دخل مختار ومحمود البيت وخلفهما مبروكة ، صافح مختار والدته وتبادلا القبلات. قال مختار :

ـ أين باقى أفراد العائلة الكريمة ؟.

قالت والدة مختار :

ـ أبوك يحقق مع واحد ضبطوه سارقا ذكر بط ، ولا أدرى أين ذهب حامد وحلمى.

ـ وأين فاطمة ؟..

ـ فاطمة مع المدرِّسة تأخذ درسا.

قال مختار بدهشة :

ـ تأخذ درسا ؟ درسا فى ماذا ؟.
ـ وصلنا خطاب من خطيبها يقول إنها لابد أن تتعلم .
ـ على رأى المثل . بعد ما شاب أرسلوه للكُتّاب .
عندما سمعت فاطمة صوت مختار تركت الدرس وأقبلت لترحب به ، قالت :
ـ من هو الذى شاب .
ضحك مختار وقال :
ـ هل سمعتِنى ؟
ـ أجل سمعتك ، أهكذا تقول عنى إننى شايبة بمجرد وصولك ؟ والله ما شايب إلاّ أنت . أنا بينى وبينك أربع سنوات لا غير.
ـ أهذا هو ترحيبك بى ، ألا تقولين لى حمد الله على السلامة ؟
قالت مبتسمة :
ـ حمد الله على السلامة ؟.
ـ الله يسلمك ، هل انتهى الدرس ؟.
عندما سمعت صوتك تركت الدرس وجئت ، واحتفالا بك لن أكمل الدرس اليوم .
ـ خيرا تفعلين ، وما هى حكاية الدرس هذا ؟.
ـ الله يسامحه .
ـ من هو؟
ـ عادل .
ـ ما به؟
ـ حكم علىَّ بالتعليم ، يقول إن البنت التى يتزوجها لابد أن تكون متعلمة .
ـ أنا معه فى هذا الرأى .
ـ وأنت أيضا توافق على هذا ؟ أمعى أنت أم معه ؟.
أقبلت المدرِّسة وأومأت برأسها لمختار ولباقى أفراد الأسرة محيية واستأذنت فى الخروج ، أوصلتها فاطمة حتى باب البيت وتبادلا معا حديثا قصيرا .
جلس مختار على يمين والدته وجلست فاطمة على يسارها وجلس محمود على كرسى خيزران بالقرب منهم ووقفت مبروكة مبتسمة . قال مختار :
ـ أنا مشتاق للفطير (المشلتت) والدجاج المحشو بالأرز ، بطنى أوجعتنى من طبيخ عبد الحميد الشاعر .
قالت الأم :
ـ اذهبى يامبروكة اذبحى زوجين دجاج واطلبى من جميعة أن تعمل فطيرتين مشلتتين .
كان محمود صامتا طوال هذا الحوار ، ثم قطع الصمت عندما قال لمختار :
ـ هل أحضرت ما طلبته منك ؟ .

تظاهر مختار بالنسيان وقال :
ـ هل طلبت منى شيئا ؟.
ـ أكلّ مرّةٍ تنسى ؟.
ـ هل تقصد الـ ....
قال محمود مقاطعا :
ـ الأسطوانات .
ـ قبل كل شيء قل لى ، ماذا عملت فى الامتحان ؟
ـ نجحت .
ـ مادام الأمر كذلك فلقد أحضرت لك اسطوانتين رائعتين . واحدة لأم كلثوم والأخرى لعبد الوهاب .
قام محمود بحركة لا إرادية وقال بلهفة :
ـ أين هما ؟ ماهى الأغانى ؟.
ـ اسطوانة أم كلثوم « إن كنت أسامح وانسى الأسيّة » .
ـ واسطوانة عبد الوهاب ؟.
ـ «كلنا نحب القمر والقمر بيحب مين » .
ـ أريد سماعها .
ـ انتظر يامحمود حتى ألتقط أنفاسى .
دخل حلمى مبتسما كعادته مرتديا جلبابا أنيقا وعلى رأسه طاقية من القماش اتسعت ابتسامته عندما رأى مختارا وقال :
ـ أجئت يامختار ؟.
قال مختار :
ـ كيف حالك ؟ ماذا عملت فى الامتحان ؟.
ـ لا بأس ، وماذا عملت أنت ؟
ـ سأحصل على الدرجات النهائية .
قالت الوالدة :
ـ قل إن شاء الله .
ـ إن شاء الله . أين حامدا ؟.
قال حلمى :
ـ عند مرورى الآن على بيت عبد المعبود وجدته متربعا على كنبة فى المندرة ويغنى قائلا « والذى أسكر من عرف اللّما .. » وقد تجمع حوله عدد من البنات .
قال مختار :

ـ زوجوه لتهدأ أعصابه .

بعد نحو ثلاثة أسابيع بينما كانت والدة مختار تعد طعام العشاء وفاطمة تملأ وعاء بالماء من المضخة التى فى الفناء الداخلى للبيت ومبروكة تطعم الجاموسة والوالد جالسا إلى مكتبه يتصفح بعض الأوراق ومختار يطالع إحدى المجلات وهو جالس على الكنبة البلدى ويجواره محمود ، سُمع طرق على الباب ، فأسرع مختار لمعرفة الطارق ، وجده أحد الخفراء ومعه شاب يرتدى سروالا وقميصا .

قال الخفير :

ـ هل حضرة العمدة هنا ؟.

ـ أجل ، ماذا تريد منه ؟.

مد الخفير يده إلى مختار بورقة ومومئا برأسه نحو الشاب قائلا :

ـ تلغراف أحضره هذا الأفندى .

قرأ مختار التلغراف بلهفة ووضع يده فى جيبه ليعطى الخفير والشاب الذى أحضر التلغراف مكافأة فلم يجد فى جيبه نقودا . انطلق يعدو ليحضر بعض النقود من سترته . فزع محمود عندما رأى مختارا يجرى فسأله بلهفة :

ـ ماذا حدث ؟.

ولكن مختارا لم ينطق ، فقام محمود وأسرع خلفه قائلا :

ـ ماذا جرى ؟ لماذا تجرى ؟.

أعطى مختار عشرة قروش للشاب وحاول إعطاء عشرة قروش للخفير فرفض أخذها وانصرف هو والشاب . قال مختار لمحمود الذى ظل واقفا مشدوها :

ـ نجحت فى الامتحان بتفوق وسأعين معيدا بالكلية .

أسرع محمود بنشر الخبر فى البيت ، وذهب مختار ليزف البشرى لوالده بنفسه ، ففرح الأب وباس مختار وتمنى له دوام التوفيق ، وتجمع باقى أفراد الأسرة حول مختار يهنئونه . قال محمود :

ـ أنت وعدتنى أنك لو عينت معيدا ستحضر لى اسطوانتين أخريين .

ـ سأحضر لك خمس اسطوانات .

ـ وأريد كمانا أيضا .

ـ سأحضر لك كمانا .

قالت والدة مختار :

ـ متى تسافر ؟.

ـ غداً .

ـ غدا ؟ لماذا لا تبقى معنا بضعة أيام ؟.

ـ لابد من الاتصال بالكلية التى سأصبح معيدا فيها .

- ٢٦ -

عندما دخل مختار شقته بالقاهرة لم يجد بها سوى عبد الحميد الذى بدا وكأنه عاد شابا فى الثلاثين . قال لمختار :

ـ مبروك الوظيفة الجديدة ، شريف قال لى إنك ستعين معيدا فى الكلية .

ـ الله يبارك فيك ، وأين ذهب شريف ؟.

ـ ذهب إلى الكلية ، هو أيضا سيعين معيدا معك فى قسم الحيوان .

ـ هذا أسعد خبر سمعته ، أنا سعيد لبقائنا معا فى الكلية وفى القسم نفسه .

ـ هناك خبر أسعد من هذا .

قال عبد الحميد بلهفة وفرحة :

ـ ماهو ؟.

ـ أنا أيضا حصلت على وظيفة !

لم يصدق مختار وظنها نكتة أطلقها عبد الحميد مجاراةً لجو الفرح الذى يسود البيت فى هذه اللحظة ومعبرا بها عن أمنيته الكبرى التى تجيش فى صدره ، قال مختار :

ـ سوف تعثر على وظيفة أنت أيضا إن شاء الله .

قال عبد الحميد وملامح وجهه تنطق بالصدق وكأنه يلوم مختارا على عدم أخذ كلامه على محمل الجد :

ـ قلت لك إننى أنا أيضا حصلت على وظيفة ، ألا تفهم ؟.

صاح مختار قائلا :

ـ غير معقول !.

ـ حقيقة هو غير معقول ، ولكن غير المعقول هذا ، حدث .

قال مختار ومازال يساوره الشك فى صدق هذا النبأ :

ـ أحقيقةً حصلت على وظيفة ياعبد الحميد ؟.

ـ أجل ، أصبحت موظفا ، أنا نفسى غير مصدق .

ـ أين ؟ وما مرتبها ؟.

ـ فى وزارة الأوقاف ، بخمسة جنيهات فى الشهر .

ـ هذه أعظم بشرى سمعتها . مبروك ياعبد الحميد ، ألف مليون مبروك . وكيف حصلت عليها ؟.

ـ نظمت قصيدة لوزير الأوقاف مدحته فيها ورفعته إلى السماء ، والواقع أنه رجل طيب يستحق المدح ، فأصدر قرارا بتعيينى فى وظيفة بخمسة جنيهات فى الشهر .

ثم أطرق للأرض وقال :

ـ ولكن هناك أمرا يضايقنى .

ـ ماهو ؟.

ـ عندما وصلت أمس إلى مقر عملي . نظر إليَّ رئيسُ العمل وقال « أنت تأخرت نصف ساعة » ، قلت له « إسمع ، أتظن نفسك رئيساً عليَّ ؟ أتظنني موظفا لتقول لى تأخرت أو لم تتأخر ؟ أنا عينت هنا لأقبض الخمسة جنيهات ولا شيء غير ذلك » .

ضحك مختار وقال :

ـ أمرك عجيب ، لقد حصلت على هذه الوظيفة بصعوبة وكان هذا أقصى ماتتمناه ، إياك أن تتشاجر مع رئيس العمل كما تشاجرت مع ناظر المدرسة فترفت من هذه الوظيفة أيضا .

ـ ربنا يستر.

ـ لا . أرجوك ، امسك هذه الوظيفة بيديك وأسنانك .

ـ هأنذا ممسك بها .

سمعا خطوات على السلم تقترب . فقال عبد الحميد :

ـ يخيل إليَّ أن هذه خطوات شريف .

هنأ مختار وشريف كل منهما الآخر ، وقال شريف :

ـ كنت فى الكلية وعلمت أن الدكتور كامل منصور يبحث عنا نحن الاثنين ، وعندما قابلته أخبرنى أننا عينا معيدين بقسم علم الحيوان ، أى أننا سنعيش معا ونموت معا . وعبد الحميد أيضا حصل على وظيفة .

ـ أنا فرحت لعبد الحميد أكثر مما فرحت لنفسى .

ـ وأنا أيضا .

قال عبد الحميد :

ـ وكيف نحتفل بهذه المناسبة السعيدة ؟ لو كانت معى فلوس لدعوتكما للعشاء فى أفخم مطعم .

قال مختار :

ـ فلتكن هذه الدعوة منّى أنا .

قال شريف :

ـ نرجئ هذه الوليمة للغد والليلة أدعوكما لشىء آخر ، ماذا تقترح ياعبد الحميد ؟.

ـ نشاهد مسرحية «كرسى الاعتراف» بمسرح يوسف وهبى .

قال شريف :

ـ بكم التذكرة !

قال عبد الحميد :

ـ بخمسة قروش .

- ٢٧ -

بدأ العام الدراسى ، وشعر مختار بنشوة ورهبة فى الوقت ذاته ، إذ أنه سيقف للتدريس فى المكان الذى كان طالبا فيه منذ شهور قلائل . كان أول درس فى جدول مختار لطلبة وطالبات السنة الأولى . رأى أن أفضل وسيلة للقضاء على رهبة الموقف هى الاستعداد الجيد وأن يكون فى ذهنه أضعاف ماسيقوله .

عندما حان موعد الدرس دخل مختار بخطى ثابتة ووقف أمام السبورة وبدأ يتكلم بلغة انجليزية سليمة قائلا :

ـ اليوم سنَدْرس الشكل الخارجى وتجويف الفم للضفدعة . يتكون جسم الضفدعة من رأس وجذع ، ولا توجد منطقة رقبة .

هذا غير معقول . لن أستطيع تكملة الدرس . لقد بدأ جسمى يرتعش أمام الطلبة والطالبات . إنها هى . هى البنت التى رأيتها فى حديقة الأندلس . البنت التى أبحث عنها فى جميع أنحاء القاهرة . أصبحت طالبة عندى وأنا المعيد الذى سأدرّس لها . هذا غير معقول .

كان عدد الطلبة فى المجموعة التى يدرِّس لها نحو عشرين طالبا وأربع طالبات جلسن فى الصف الأول من المعمل . استجمع كل مالديه من شجاعة وحاول السيطرة على مشاعره واستمر فى الشرح حتى انتهى منه .

عندما ذهب إلى غرفة المعيدين بعد انتهاء حصة العملى تعجب شريف عندما رأى مختارا شاحب الوجه شارد الذهن فسأله :

ـ كيف الحال ؟ هل شرحت الدرس كما ينبغى ؟.

بعد أن أسرع مختار بالجلوس لاحظ شريف رعشة خفيفة فى يده . قال مختار :

ـ سأخبرك بشىء عجيب قد لا تصدقه .

ـ ماهو ؟.

ـ البنت التى رأيتها فى حديقة الأندلس ، رأيتها اليوم .

قال شريف بدهشة :

ـ رأيتها اليوم ؟ ! أين ؟.

ـ فى المعمل .

ـ هنا فى الكلية ؟

ـ أجل ، فى المجموعة التى كنت معها الآن .

ـ غير معقول ، وماذا فعلت ؟

ـ طار من دماغى الدرس الذى ظللت أستعد له طوال الأمس وتفصَّد العرق من جبهتى ووجهى وأسرعت دقات قلبى وأصبحت فى حالة يرثى لها . لست أدرى ماذا أفعل .

ـ وهل ظللت طوال المدة مرتجفا بهذا الشكل ؟ ألم تتكيف مع الموقف وتسيطر على تصرفاتك ؟
ـ كانت مفاجأة عنيفة بالنسبة لى
ـ هل ترغب فى تغيير المجموعة ؟ تتبادل معى ، أنا آخذ مجموعتك وتأخذ أنت مجموعتى .
ـ لقد أرسلها الله عندى . فهل أتركها وانتقل لمجموعة أخرى ؟.
ـ شىء عجيب . ولكنك سوف تعتاد الموقف . وعلى أية حال إنها فرصة ذهبية لتعرف عنها كل شىء مادمت تنوى الزواج منها .
ـ أتظن أنها تقبل الزواج منى ؟
ـ ولماذا لا تقبل ؟ أين تجد من هو أفضل منك ؟ لكن قل لى ، ألم تكلمها ؟
ـ لا ، لم أكلمها .
ـ وهى ، ألم تسألك أىَّ سؤال ؟.
ـ لا ، لقد وضعت الضفدعة أمامها وانشغلت بالرسم ولم تنطق .
ـ ألم تعرف اسمها ؟
ـ اسمها دريَّة . لم أكن أتصور أن اسمها درية ، منظرها لا يدل على أن اسمها درية . كان يخيل إلىَّ أن اسمها ليلى . لست أدرى لماذا سيطرت علىَّ هذه الفكرة .
ـ لتصبح أنت مجنون ليلى ، ولكنك أصبحت مجنون درية .
ـ ولماذا أكون مجنونا ؟ هل الحب جنون ؟.
ـ ما اسمها الكامل ؟.
ـ درية حسن رضوان . اسم عادى ، من يسمعه لا يتصور أنه اسم أجمل بنت على سطح الكرة الأرضية .
ـ أريد أن أراها .
ـ أنسيت أنك رأيتها ! لقد رأيتها وهى تركب الأوتوبيس عند خروجنا من شبرد يوم وليمة عبد الحميد الشاعر .
ـ لم أر سوى ظهرها فى ذلك اليوم . اسمع ، سأمرُّ عليك فى درس العملى وأرنى إياها .
ـ لو دخلتَ المعمل ورأيت البنات فسوف تعرفها من تلقاء نفسك ، أجمل بنت ستكون هى .
ـ ألم يبدر منها مايدل على تذكرها لك ؟.
ـ لا تتذكرنى على الإطلاق ، كأنها لم ترنى .
ـ شىء عجيب أن يرى الإنسان فتاة ولا تغيب عن ذاكرته أياما وليالى ويراها فى أحلامه فى حين أنها طوال هذا الوقت لم تكن تفكر فيه ولا تذكر عنه شيئا .
ـ منظرها يدل على أنها فتاة مهذبة ونبيلة .
ـ ذكرتنى ، نبيلة عُينت هى أيضا معيدة فى قسم النبات ، وعيِّن حسين صالح معها فى القسم نفسه .
ـ هل تعلم أين ذهب رشاد زهدى ؟.

ـ لا ، لا أعرف .
ـ هل تصدق أنه عيِّن مدرسا فى مدرسة ثانوية للبنات ؟!.
ـ وهل يؤتمن رشاد على بنات يدرِّس لهن ؟.
ـ مهزلة من مهازل القدر .
ـ متى سترى درية ؟.
ـ يوم الثلاثاء ، فى درس العملى . ينتابنى شعور غريب .
ـ ماهو ؟.
ـ إننى بفارغ الصبر انتظر اللحظة التى سأراها فيها ، وفى الوقت ذاته أشعر بخوف كلما اقترب موعد رؤيتها ، لست أدرى لماذا .
ـ يبدو يامختار أن هذه البنت ستكون من نصيبك ، منذ شهور وأنت تبحث عنها ثم تجدها هنا وقد أصبحت من تلاميذك ، إنه ترتيب من الله .
ـ هل تعتقد أن فتاة بهذا الجمال والكمال تكون حتى الآن غير مرتبطة بشخص آخر ؟ أخشى أن تكون مخطوبة .
ـ لا ، لا تخف . حاول أن تكلمها ، هل ستظل هكذا كالأبكم ؟ ألن يفتح الله عليك بكلمة تقولها لها ؟.
ـ ربنا يسهّل ، لست أدرى لماذا تُسرع دقاتُ قلبى ويتفصّد العرق من وجهى كلما حاولت التحدث معها
ـ أدعو الله أن يفك عقدة لسانك .
ـ سأحاول التحدث معها يوم الثلاثاء القادم . لابد من التغلب على الخوف والخجل .

ـ ٢٨ ـ

فى مساء يوم الإثنين ، استعد مختار جيدا للدرس الذى سيلقيه على طلبة السنة الأولى غدا . وشعر بأن رهبة لقائه بدرية طغت على فرحته بهذا اللقاء . ظل يفكر فى كيفية بدء حديثه معها ، هل يترك ذلك للظروف أم يخطط له تخطيطا دقيقا ؟ وأخيرا قرر عدم التخطيط لاعتقاده بأنه سوف ينسى كل شىء عند رؤيتها .

وقف يشرح طريقة تشريح الأحشاء العامة للضفدعة وتحاشى على قدر الإمكان النظر لدرية موحيا لنفسه بأن يتصرف وكأنها غير موجودة ، ولكن دون أن يشعر ، حانت منه التفاتة نحوها فوجدها فى هذه اللحظة ناظرة لكراستها منهمكة فى نقل الشكل الذى رسمه على السبورة ، فارتاح لعدم التقاء عينيها بعينيه انتهى من الشرح وبدأ الطلبة والطالبات التشريح مسترشدين بالملاحظات التى ذكرها لهم والرسم الذى

تركه على السبورة . سار بين صفوف الطلبة والطالبات ناظرا إليهم فى أثناء قيامهم بعملية التشريح ، وتعمد أن يسأل عددا منهم بعض الأسئلة

عندما وصل إلى درية وجدها مستغرقة فى التشريح ورأى تشريحها نظيفا فلم يجد ما يستدعى توجيه أىّ سؤال إليها . تركها وجلس فترة خلف الطلبة جنب النافذة . ثم قام وواصل جولاته فى انتظار ما قد يوجَّه إليه من أسئلة واستفسارات حتى وجد نفسه مرة أخرى أمام درية فخرجت الكلمات من فمه بطريقة لا إرادية وكأن شخصا آخر بداخله هو الذى يتكلم :

ـ ما اسمك ؟

دون أن ترفع نظرها عن طبق التشريح قالت :

ـ دريّة .

ـ دريّة ماذا ؟

وهى مستمرة فى التشريح :

ـ درية حسن .

ـ درية حسن ماذا ؟

ـ درية حسن رضوان .

ـ رسمك جميل وخطك أنيق وتشريحك نظيف

نظرت إلى كراستها ثم إلى طبق التشريح وقالت وهى ناظرة إلى الضفدعة المفتوحة البطن :

ـ متشكرة .

استجمع شجاعته وقال :

ـ ألا تذكرين أنك رأيتنى قبل الآن ؟

نظرت إليه نظرة خاطفة ثم قالت :

ـ قبل الآن ؟ متى ؟

ـ فى الربيع الماضى ، وتحدثت معى .

بدت عليها الدهشة واتسعت عيناها الخضراوان وقالت :

ـ أنا رأيت حضرتك وكلمتك ؟ أين ؟

ـ فى حديقة الأندلس .

اتجه بصرها نحو النافذة دون أن تحرك رأسها وبدت وكأنها تفكر تفكيرا عميقا ثم نظرت إليه وقالت :

ـ الحقيقة ، أنا لا أذكر .

ـ ولكننى أذكر جيدا تلك اللحظة ، كان معك يومها أخوك الصغير .

قالت بصوت خافت وكأنها تحدث نفسها :

ـ لابد أنه سمير .

ـ كان مع أخيك قوس وسهم يلهو بهما ، وكنت جالسا فى الحديقة أذاكر . وأصابنى سهم أخيك فى صدرى واعتذرْتِ أنتِ لى .

سرحت بفكرها قليلا ثم قالت :

ـ أجل ، أجل ، حقيقةً .

ـ هل تذكرتِ ؟

ـ أجل تذكرت ، ولكننى فى الحقيقة لم أنتبه لملامح حضرتك . العجيب أن حضرتك مازلت تتذكر هذه المسألة التافهة .

ـ بل العجيب أنك لا تذكرين شيئا عن هذا اللقاء .

ـ أنا لم أهتم بهذه المسألة ؛ لقد صدر من أخى تصرف يتسم بقلة الذوق فأردت أن أعلمه الذوق . هذا كل ما فى الأمر ، ثم نسيت كل شىء عن الموضوع .

قال مختار وقد شعر بحزن عميق وخيبة أمل :

ـ يبدو أن ذاكرتى أقوى من ذاكرتك .

رفع أحد الطلبة يده طالبا استفسارا . وضع مختار يديه فى جيبى معطفه الأبيض كعادته وسار نحو الطالب .

ـ ٢٩ ـ

عندما انتهت فترة العملى وخرج مختار من المعمل شعر بحزن غامض لا يعرف سببه . جلس فى غرفة المعيدين يتصفح كتابا ، وبعد لحظات دخل شريف بعد أن انتهى من حصة العملى لمجموعة أخرى من السنة الأولى حيث كان يقوم بتدريس الجهاز نفسه الذى شَرَحه مختار لمجموعته . لاحظ شريف وجوما على وجه مختار فسأله :

ـ هل كلمتها ؟.

ـ أجل ، كلمتها ، ولكن حدث الشىء نفسه ، تفصَّد العرق من جبهتى ووجهى وأسرَعَت دقاتْ قلبى ، ويبدو أيضا ، والله أعلم ، أن وجهى اصفر لونه .

ـ وما الذى تنوى عمله ؟.

ـ لست أدرى ، أفكر فى زيارتهم فى منزلهم وطلب يدها من أبيها .

ـ بهذه السرعة .

ـ خير البر عاجله .

ـ لا يامختار ، لا تتعجل ، أتريد أن تفعل كما فعل عبد الحميد الشاعر أم ماذا ؟ هذه المسألة تحتاج للتأنى . فلنترك هذا الآن ونتحدث فى المهم ، هل فكرت فى موضوع بحث الماجستير؟.

ـ أفكر فى دراسة موضوع تحت إشراف الأستاذ إفلاطون بك ، وهل فكرت أنت فى شىء ؟.

ـ سأذهب للدكتور كامل منصور وأترك له اختيار نقطة البحث .

ـ يجب أن نركّز كل اهتمامنا فى البحث العلمى . لابد من الحصول على الماجستير فى أقرب وقت لنبدأ بعد ذلك فى بحث الدكتوراة . أنت تعرف أن الجامعة تنقل كل من لا يحصل على الدكتوراة فى مدة معينة إلى وظيفة أخرى خارج الجامعة .

ـ أنا شخصيا مغرم بالبحث العلمى . أريد أن أنجز بحثا يهز العالم .

ـ هيا أرنا همتك .

ـ لكن هناك شيئا يحيرنى .

ـ ماهو ؟.

ـ مشكلة الوجود والعدم . هذا هو الموضوع الحقيق الذى يشغل ذهنى .

ـ مرةً أخرى ؟ ألم تنس هذه المسألة ؟.

ـ هذا الوجود كله ، كيف جاء من العدم ؟ هذا الكون الذى حولنا ، الأجرام السماوية ، المجرات ، النبات ، الحيوان ، الإنسان ، وهذه المواد الصلبة ، كيف جاءت من العدم ؟ إننى أواصل قراءة كل مايقع تحت يدى من كتابات العلماء والفلاسفة ، وكلما أتعمق فى القراءة أزداد جهلا .

ـ أنت تاعب نفسك بلا داع ، صدق من قال « أصحاب العقول فى راحة » .

ـ لا ، ليس أصحاب العقول هم الذين فى راحة ، بل الجهلاء هم الذين فى منتهى الراحة . أصحاب العقول تتعبهم عقولهم ، « ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله. وأخو الجهالة فى الشقاوةِ ينعمُ » .

ـ ٣٠ ـ

كان الهدوء يخيم على حارة البحرى عندما شعر مختار وهو مندمج فى المذاكرة بأن الضوء لم يعد كافيا للقراءة فقام وأدار مفتاح النور فانبعث الضوء من المصباح الوحيد المدلى من سقف البهو وعاد مختار لمواصلة المذاكرة فوق منضدة الطعام التى يستخدمها أحيانا للمذاكرة فى غير أوقات الأكل الرسمية .

شعر مختار بأن شخصا يقف جنبه ، نظر فوجده شريف الذى بدا وكأنه يريد أن يقول شيئا ولكنه انسحب وجلس على الكنبة البلدى . وبينما يواصل مختار مذاكرته سمع شريف يقول :

ـ اسمع يامختار ، أود التأكد من شىء .

ـ ماهو هذا الشىء ؟.

ـ إذا خطب المعيد طالبة من الكلية وتزوجها ، فهل تفصله الكلية وتعاقبه ؟.

تعجّب مختار من هذا السؤال .

لماذا يوجه إلىَّ هذا السؤال العجيب ؟ إنه يعلم أننى أحب درية وأرغب فى الزواج منها ، فهل هو تحذير لى من الإقدام على هذه الخطوة ؟.

أدار مختار الكرسى نحو شريف وقال :

ـ تكون مصيبة لو عوقب المعيد الذى يتزوج إحدى الطالبات ، إذ فى هذه الحالة يحرّمون علىّ الزواج من درية ، وأعتقد أن المعيد لا لوم عليه إذا تزوج من أية طالبة مادام ملتزما بالسلوك السليم ، فالزواج رباط مقدّس ينبغى أن يحترمه الجميع . لماذا تسألنى هذا السؤال ؟.

ـ لأننى أفكر فى شىء .

ـ فيم تفكر ؟.

ـ تعجبنى طالبة فى المجموعة التى أدرس لها فى السنة الأولى وأتمنى أن تكون زوجتى .

كان هذا آخر مايخطر ببال مختار ، لم يكن يتصور أن شريفا من الممكن أن يعجب بأية فتاة ، قال :

ـ ماذا حدث لك ؟ هل وقعت فى مصيدة الحب أنت أيضا ؟.

ـ كنت أستهزئ بالحب ، ولكن يبدو ياأخى أنه حقيقةٌ يوجد شىء اسمه الحب . بدأت الآن فقط أفهم شعورك نحو درية .

ـ ومن هى سعيدة الحظ هذه التى أدخلتك المصيدة ؟ حذار أن تكون درية .

ـ لا تخف ، ليست درية . غريب ياأخى أمر هذا الحب . أنا لا أشعر بأية عاطفة نحو درية التى توشك أنت أن تعبدها ، ولكن عندما أرى هذه الطالبة أشعر بالإحساس نفسه الذى تشعر به أنت عندما ترى درية .

ـ لم تقل لى من هذه الفتاة .

ـ بنت اسمها مريم .

ـ وما الذى تنوى عمله ؟.

ـ لست أدرى ، هذه المسألة أتعبتنى وحيرتنى وقلبت كل التخطيط الذى كنت قد وضعته لحياتى . عن إذنك .

انتفض واقفا ، فقال له مختار :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟.

ـ كنت سأسهو عن موعد الصلاة .

استأنف مختار النظر إلى الكتاب ولكن فكره انشغل بدرية .

ذهب مختار إلى المعمل الذى يُدَرِّس فيه شريف وهمس فى أُذنه قائلا :
ـ أين مريم هذه ؟.
ـ الجالسة فى الصف الثانى جنب النافذة ، ذات الرداء الأصفر . ما رأيك فيها ؟.
ـ لا بأس بها .
قال شريف بدهشة :
ـ تقول لا بأس بها ؟ ! أنا أراها أجمل بنت فى الدنيا .
ـ هل تحدثت معها ؟.
ـ أجلْ ، وعرفت شيئا عجيبا لم أكن أتصوره .
ـ ماذا عرفت ؟.
ـ اتضح أن أباها هو الأستاذ عمر صابر الذى كان يُدرِّس لى العلوم الرياضية فى المدرسة الثانوية .
قال مختار وقد شعر بشىء من الألم :
ـ يبدو أن الله ميسّر لك الأمور ، هذه العلاقة سوف تسهِّل لك الموضوع .
ـ طلبْتُ منها أن تسلم لى على أبيها .
ـ وماذا قالت لك ؟.
قال شريف مبتسما شاعرا بسعادة ونشوة :
ـ قالت لى « الله يسلمك » .
ـ وكيف عرفت أن أباها كان معلمك ؟
هى التى أخبرتنى .
ـ كيف ؟.
ـ كانت تتحدث عنى فى بيتها ، فقال لها أبوها إنه كان يدرس لى فى المدرسة الثانوية .
ـ أنت شخص محظوظ .
قال شريف وفى حديثه رنة لم يسمعها منه مختار من قبل :
ـ سأزورهم لأسلّم على أبيها .
قال مختار بدهشة :
ـ تزورهم لتسلم على أبيها ؟ !.
ـ أجل ، هى التى طلبت منى ذلك .
ـ هل تعلم هى أنك .. أنك معجب بها ؟.
ـ لم أتحدث فى هذا الموضوع ، ولكن إذا كانت هى استنتجت ذلك فلا لوم علىَّ .
ـ وهل تنوى زيارتهم حقا ؟.
ـ ولماذا لا أزورهم ما داموا هم الذين طلبوا منى ذلك ؟ وأنت ، ألا تعرف شيئا عن والد درية ؟.

ـ الشيء الوحيد الذى أنا متأكد منه هو أنه لم يكن معلمى .

ـ ألا تعلم شيئا عن عائلتها ؟.

ـ لا أعرف سواها .

فى الموعد المحدد كان شريف واقفا عند بيت مريم يضغط على زر جرس الباب بلا رهبة أو خجل . شاعرا بفرحة ونشوة لم يشعر بمثلها من قبل ، ولا شيء فى ذهنه سوى رغبته فى رؤية مريم والتحدث معها . فتحت الباب خادمة فى نحو العشرين ترتدى ثوبا نظيفا . قادته إلى غرفة الصالون ذات الكراسى المذهَّبة . جلس وعيناه مصوبتان نحو باب الغرفة . بعد دقائق دخل والد مريم فانتفض شريف واقفا وتصافحا بحرارة وجلسا . قال الأستاذ عمر صابر :

ـ شرفت وآنست ياأستاذ شريف

ـ حفظك الله وأبقاك . إنها فرصة سعيدة التى أتاحت لى رؤية أستاذى الذى أحبه وأقدّره .

ـ فرصة سعيدة لى أنا أيضا . هكذا دارت الأيام وأصبحت أنت أستاذ لابنتى .

ـ هذا يشرفنى . أين الآنسة مريم ؟.

ـ موجودة .

ثم رفع صوته مناديا :

ـ يامريم .

قالت وكأنها كانت عند باب الغرفة :

ـ نعم يابابا .

ـ تعالى سلمى على أستاذك .

قال شريف مبتسما :

ـ أستاذها ؟ إننى مازلت معيدا صغيرا .

ـ سوف تصبح أستاذا عظيما ، اسمك دائما على لسان مريم ، لا تكف عن الثناء عليك .

ـ وأنا معجب بتفوقها فى التشريح واجتهادها ودقة رسمها .

ـ وهى تقول عنك إنك ممتاز فى كل شيء .

دخلت مريم واتجهت نحو شريف مبتسمة وصافحته قائلة :

ـ أهلا وسهلا .

ـ أهلا بك ، سلامات .

ـ الله يسلمك .

قال والد مريم :

ـ الأستاذ شريف يثنى عليك كثيرا ، يقول إنك مجتهدة .

جلست مريم ثم قالت وهى مطرقة للأرض :

ـ هذه شهادة أعتز بها ، ومادام الأستاذ ممتازا فلابد أن تكون تلميذته مجتهدة .

قال شريف :
ـ ليس بالضرورة . فالأستاذ يدرّس لعدد كبير من الطلبة ، منهم من ينبغ ومنهم من يخيب .
ـ وهل تعتبرنى حضرتك من المجتهدات ؟
ـ أنت ممتازة فى كل شىء .
ـ أشكرك جزيل الشكر على حسن ظنك .
قال والد مريم :
ـ أتمنى أن تظلى مجتهدة ليستمر رضاء الأستاذ شريف عنك .
حانت اللحظة الحاسمة فشعر شريف بشىء من الرهبة ، قال لوالد مريم :
ـ أنا الحقيقة جئت اليوم لأمر يهمنى .
ثم أطرق لحظة نحو الأرض وأردف قائلا :
ـ أود أن أقول شيئا لحضرتك .
استشعرت مريم ماسوف يقوله شريف فاستأذنت وغادرت الغرفة . قال والد مريم :
ـ ماذا تود أن تقول ياأستاذ شريف ؟.
ـ جئت لأطلب من حضرتك يد الآنسة مريم.
لم يستطع الأب إخفاء الفرحة التى جاشت فى أعماقه وبدت فى ملامح وجهه ، قال :
ـ وهل ستجد مريم من هو أحسن منك ؟ أنا أعرفك منذ كنت تلميذى .
ـ المهم رأى مريم .
ـ اطمئن من هذه الجهة ، الثناء عليك الذى أسمعه منها يدل على إعجابها الشديد بك . أتمنى لكما السعادة من كل قلبى وأدعو لكما بالتوفيق .
ـ إذا كان الأمر كذلك فهل من الممكن تحديد موعد للخطوبة ؟.
ـ كما تريد ، متى تحب أن يكون ؟.
ـ خيرُ البرِّ عاجله ، فليكن يوم الخميس القادم .
ـ هل من الممكن تأجيله للخميس الذى يليه ؟.
ـ وهو كذلك ، لا مانع لدىَّ .
كانت مريم طوال هذه الفترة تسترق السمع خلف الباب . هزتها الفرحة وخَجِلت من دخول الغرفة ، فانطلقت تنقل النبأ إلى أمها .

- ٣٢ -

ظل شريف متكتما تفاصيل زيارته لمريم وقال لمختار إن الغرض منها لم يكن سوى مجرد السلام على والدها باعتباره أحد أساتذته ، وظل من آن لآخر يزور مريم فى بيتها دون أن يخبر مختارا بذلك . فى الموعد المحدد تمت إجراءات الخطوبة وفى اليوم التالى فوجئ مختار برؤية الدبلة فى إصبع شريف الذى برر تكتمه للنبأ قائلا :

ـ أنا الحقيقة رأيت أن تتم جميع الإجراءات فى السر وفى أضيق نطاق ، إذ أننى حتى الآن لا أدرى ماذا سيكون وقعها بالنسبة للطالبات والطلبة والأساتذة ، فهذه أول حالة خطوبة تتم بين معيد وطالبة فى الجامعة .

ـ هل أخبرت عبد الحميد ؟.

ـ لا ، لم أخبره بعد .

صاح مختار مناديا :

ـ ياعبد الحميد ، عبد الحميد .

أقبل عبد الحميد مهرولا ، قال له مختار :

ـ بارك لشريف .

ـ مبروك ياشريف ، لكن أبارك له على ماذا ؟

ـ شريف خطب ولبس الدبلة .

لم يبد على عبد الحميد أىّ تحمس للنبأ وقال :

ـ ألف مبروك ، ولو أننى لا أدرى سر هذه اللهفة على الزواج . ألم يكن من الأفضل أن تنتظر حتى أتزوج أنا أولا ؟ الزواج كالترقية فى الوزارة ، لابد أن يتم بالأقدمية المطلقة .

قال شريف :

ـ كله قسمة ونصيب ياعبد الحميد ، عقبالك إن شاء الله . لوكنا من الشبان إياهم لما فكرنا فى الزواج بهذه السرعة .

قال مختار :

ـ يخيل إلىَّ أن هذا الخبر عندما يشيع فى الكلية سيكون كانفجار قنبلة .

كان فى غرفة الطالبات بالكلية يوم إعلان النبأ خمس طالبات يثرثون .

دخلت طالبة وقالت :

ـ ألم تعلمن ؟.

قالت إحداهن :

ـ نعلم ماذا ؟.

ـ مريم خُطبت ولبست الدبلة .

ظهرت الدهشة على وجوه الطالبات وقالت إحداهن بعد أن هدأت صدمة المفاجأة :

ــ خطبت لمن ؟

ــ لشريف المعيد بقسم علم الحيوان

قالت إحداهن :

ــ مسكينة .

قالت أخرى :

ــ ألم تجد غير هذا المعيد ثقيل الظل ؟.

قالت أخرى :

ــ ولماذا تسرعت ؟ ألم يكن من المستحسن التأنى ؟

قالت الطالبة التى حملت إليهن النبأ :

ــ هيا نهنئها .

قالت أخرى :

ــ نهنئها أم نعزيها ؟

ــ لست أدرى ماذا أعجبها فيه .

ــ أو ماذا أعجبه فيها .

وضحكن جميعا ضحكات عصبية .

بحثن عنها فوجدنها واقفة تأكل شطيرة أمام بوفيه نادى الكلية . قالت لها إحداهن بسخرية :

ــ مبروك يامريم ، كنا ننتظر منك أن تدعينا فى حفلة الخطوبة .

ــ كانت حفلة عائلية بسيطة . سأدعوكم إن شاء الله عند عقد القران .

قالت إحداهن :

ــ لكن ، ما الذى أعجبك فى شريف هذا ؟

وضحكت ضحكة مفتعلة . قالت مريم :

ــ لا أرى أى عيب فى شريف .

قالت إحداهن :

ــ إنه ثقيل الظل .

انفجرن يضحكن وتجهم وجه مريم وتمنت أن تطلق عليهن الرصاص . ولكنها سيطرت على مشاعرها وقالت بهدوء :

ــ شريف ثقيل الظل ؟ على العكس ، إنه ظريف للغاية ومهذب إلى أقصى حد .

ــ واحدة مثلك كان من الممكن أن تتزوج من هو أفضل منه .

قالت مريم :

ــ لو أن شريفا تقدم لخطبتك أنتِ ياعزيزة ، هل كنت ترفضينه ؟.

قالت وهى تحرك رقبتها يمينا وشمالا :

ـ طبعا كنت أرفضه ، من هو شريف هذا ؟

قالت مريم بانفعال لم تستطع كبح جماحه :

ـ إنه الحقد والغيرة . أنتن بالصراحة غُيارى منّى .

قالت ذات الرقبة المتحركة :

ـ أنَغارُ منك نحن ؟ يبدو أنك مغرورة للغاية .

ـ أنا لا أعرف الغرور . أنتن بالصراحة غُيارى لأن شريف اختارنى ولم يختر واحدةً منكن ، هذه هى الحقيقة المرّة .

شعرت مريم بجفاف فى حلقها فلم تستطع الاستمرار فى الأكل . تركت ما تبقّى من الشطيرة وغادرت النادى غاضبة .

ـ ٣٣ ـ

بدأ شريف يفكر فى العمل على تحقيق أمنية مختار ، فلقد شعر بعد إتمام إجراءات خطوبته لمريم وكأنه كان يسير مع مختار فى طريق موحش طويل ، يأتنس كل منهما بالآخر ، ثم تخلى عنه بغتة وتركه وحيدا يقاسى من الوحدة ووحشة الطريق .

ذات مساء ، عندما كان شريف عائدا من زيارة خطيبته مريم ، وجد مختاراً جالسا فى السرير مستندا بظهره وفى يديه إحدى الكراسات ولكنه شارد الذهن .

سأله شريف :

ـ وأنت يامختار ، ألا تنوى خطبة درية .

قال مختار وقد بدا وكأنه ينظر إلى لا شىء :

ـ خائف .

ـ مم ؟.

ـ لا أدرى حقيقة شعورها نحوى . كلامها معى لا يدل على وجود أية عاطفة .

ـ اسمع . سأطلب من مريم أن تكلمها وتجس نبضها . مريم ودرية لا تخفى إحداهن شيئا عن الأخرى .

نظر مختار إلى شريف وفى عينيه نظرة رجاء واستعطاف وقال :

ـ ليتها تفعل ذلك ، إنها أعظم خدمة تقدمها لى .

ـ اطمئن ، سأحمل إليك الخبر اليقين .

فى مساء اليوم التالى عندما كان شريف فى بيت مريم قال لها :

ـ شريف يريد أن يخطب درية .

قالت مريم بفرحة صادقة :

ــ أحقيقةً ؟ وهل عَرفَت درية ؟.

ــ لا ، مختار خجول وشديد الحساسية ولا يجرؤ على التحدث معها فى هذا الموضوع ، فهو حتى الآن لايعرف حقيقة شعورها نحوه .

ــ درية بنت رائعة ، ستُسعِد مختارا .

ــ وأنا على يقين من أنها ستكون سعيدة معه ، فهو إنسان ممتاز .

ــ اترك هذه المسألة على الله وعلىَّ أنا .

انتهزت مريم فرصة انفرادها بدرية فى غرفة الطالبات وقالت لها :

ــ عندى خبر سعيد لك يادرية .

قالت درية بلهفة :

ــ ماهو ياتُرى ؟.

ــ مختار يريد أن يخطبك .

شعرت مريم بشىء من خيبة الأمل عندما قالت لها درية :

ــ ظننته خبرا أهم من ذلك ، وكيف عَرَفْتِ ؟.

ــ أبدى رغبته هذه لشريف ، مارأيك ؟

ــ أنا الحقيقة يامريم لا أفكر فى الزواج الآن . أنا التحقت بالكلية لأتعلم لا لأتزوج . التفكير فى الزواج فى الوقت الحالى سابق لأوانه .

ــ هل أفهم من هذا أنك ترفضين طلبه ؟.

ــ افهمى كما تريدين يامريم ، وعلى أية حال من المفروض فى مثل هذه الأمور أن يذهب إلى البيت ويكلم والدى .

ــ حيرتينى ، أنا لا أفهم ماذا تريدين بالضبط .

ــ لا شىء ، كل ما أستطيع قوله لك هو أننى لا أفكر فى الزواج ، بل أفكر فى الدراسة . الدراسة فى نظرى أهم من كل شىء .

ــ قولى لى بالصراحة ، هل يوجد شخص آخر فى حياتك ؟.

ــ لا شىء فى حياتى سوى الدراسة والمذاكرة والعلم .

ثم أردفت قائلة :

ــ فهمت الآن شيئا .

ــ ماذا فهمت ؟.

ــ عرفت لماذا يكلمنى كثيرا فى المعمل ويتطوع بتفهيمى أشياء لست فى حاجة إلى من يشرحها لى . أنا على أية حال لا أفكر إطلاقا فى موضوع الزواج .

ــ الإنسان ، أحياناً ، يندم بعد ضياع الفرصة .

ـ أنا لن أندم ، مازالت أمامى فرص عديدة ، مازلت صغيرة ، لم أبلغ سنّ اليأس .

ـ لن تجدى إنساناً يحبك كما يحبك مختار ، لقد أحبك منذ اللحظة التى رآك فيها فى حديقة الأندلس . كان يسير فى شوارع القاهرة يبحث عنك . الإنسان لا يعثر بسهولة على شخص يحبه كل هذا الحب .

ـ هذا شعوره هو ولا شأن لى به ، المهم شعورى أنا نحوه . إنه بالنسبة لى ماهو إلا معيد كجميع المعيدين ، لا يتميز عن أى واحد منهم .

شعرت مريم بحزن عميق وعطف شديد على مختار . قالت وكأنها تحدث نفسها :

ـ ستكون صدمة عنيفة لمختار . مسكين يامختار .

تفصّد العرق من وجه مختار وشعر بدوار خفيف عندما سمع تفاصيل هذا الحديث من شريف وغمغم قائلا بصوت مرتجف :

ـ هل أعتبر هذا رفضاً لطلبى ؟.

قال شريف محاولا تخفيف وقع الصدمة :

ـ لا ، إطلاقا ، لا يمكن اعتباره رفضا ، يخيل إلىّ أنه نوع من الدلال ، لا تود أن تبدو بمظهر الملهوفة على الزواج .

ـ أتظن ذلك ؟.

ـ أجل ، وأنت أيضا لا ينبغى أن تُشعرها بلهفتك عليها . البنات عندما يستشعرن اللهفة والحب العنيف من أحد الرجال ، يحلو لهنّ التلذذ بتعذيبه . جميع النساء فى أعماقهنّ ميولٌ ساديّة .

ـ هل يعنى هذا أن درية تود تعذيبى ؟.

ـ لا أقصد ذلك . إنها تريد التأكد من حبك لها .

فزع شريف عندما رأى الشحوب الذى طرأ على وجه مختار فصاح قائلا :

ـ لماذا اصفرّ وجهك هكذا ؟ ينبغى أن تتصرف تصرف الرجال لاتصرف الأطفال .

حاول مختار السيطرة على مشاعره بكل مايملك من إرادة ولكنه لم يستطع التغلب على الحزن وخيبة الأمل فقال :

ـ كنت أعتقد أن الأقدار جمعتنا ليكون بيننا رباط مقدس .

ثم تهدج صوته عندما أردف قائلا :

ـ لكن اعتقادى هذا تلاشى . بدأت أشعر باليأس .

صاح شريف قائلا :

ـ ماذا دهاك يامختار ؟ ماهذا اليأس الذى تتحدث عنه ؟ إفرض ياأخى أنها لا تود أن تتزوج ، فى ستين داهية ، من الممكن أن تتزوج أنت من هى أحسن منها . الدنيا لم تجدب من البنات الممتازات .

ـ لا ياشريف ، المسألة ليست مجرد رغبة فى الزواج ، إنه شىء لم أشعر به من قبل ولا أستطيع السيطرة عليه . لا أحتمل تصور الحياة بدونها .

ـ اسمع يامختار ، أقسم لك أننى لوكنت شعرت بأن مريم غير مهتمة بى لما أعرتها أىَّ اهتمام ، ألا يوجد فى البلد سوى درية ؟.

ـ هذا هو شعورى ، إنها بالنسبة لى البنت الوحيدة فى الدنيا . عيناى لا ترى سواها . مجرد مرورها أمامى فى أى مكان يُسرع دقات قلبى .

ـ على أية حال لم يحدث مايستدعى الحزن ، كل هذا مجرد كلام لايقدم ولا يؤخر . أقترح أن تزورهم فى بيتهم وتتحدث مع أبيها وأنا متأكد أن الموضوع سينتهى بالموافقة .

ثم أردف مستدركا :

ـ قبل الإقدام على خطوة زيارتهم فى منزلهم ، لماذا لا تتحدث معها هى شخصيا ، فقد تسمع منها غير ما قالته لمريم ، كل ما أخشاه أن يصفرَّ وجهك ويخضر وتضطرب وتفقد النطق .

ـ أحاول ذلك ، فقد تكون هى فى انتظار هذه الخطوة .

مر أسبوع دون أن يجرؤ مختار على استطلاع رأى درية . كان شريف ومختار جالسيْن فى شرفة نادى الكلية المطلة على إحدى الأشجار الضخمة بجوار الجبلاية . قال شريف :

ـ متى ستتكلم مع درية ؟.

ـ فى أقرب فرصة .

قال شريف ساخرا :

ـ ومتى ستحين هذه الفرصة ؟.

ـ قريبا ، قد أفاتحها اليوم فى الموضوع .

قال شريف :

ـ ربنا يقويك .

ثم أردف قائلا بعد فترة تردد :

ـ على أية حال أنا مضطر لنقل خبر إليك أتمنى ألاَّ يسبب لك أىَّ إزعاج .

انزعج مختار قبل سماع الخبر ، ولكنه قال :

ـ ماهو؟ قل ولا تخف . أصبحت لا أخشى شيئا فلقد وضعت على رأسى مانعةً للصواعق .

ـ اثنان من المعيدين ينافسانك فى الإعجاب بدرية ، ويفكران فى التقدم لخطبتها . لم تستطع مانعة الصواعق منع تلك الصاعقة من الوصول إلى قلب مختار ، فانتفض كما ينتفض من تعرض لشحنة كهربائية وبدت ملامح وجهه ونظراته غير مألوفة لشريف الذى قال بانفعال :

ـ لماذا كل هذا الفزع والاضطراب ؟ ماذا حدث ؟ هل قامت القيامة وانتهى الكون ؟ لا ينبغى أن تكون بهذا الضعف .

قال مختار بصوت مكسور :

ـ من هما ؟.

ـ سعد وحسين .

ـ ولكن المعروف أن حسينا يرغب فى خطبة نبيلة .
ـ يبدو أن سوء التفاهم الذى نشب بينهما لا أمل فى علاجه . إنه يفكر الآن فى الزواج من درية .
ـ وسعد أيضا ؟.
ـ أجل ، هما الاثنان .
ـ وكيف عرفت ذلك ؟
ـ لا تسألنى كيف عرفت ، ولكن الخبر صحيح .
قال مختار وكأنه يحدّث نفسه :
ـ هذا ما كنت أخشاه ، ستزداد غرورا .
ـ من رأيى أن تهمل هذه البنت ولا تفكر فيها .
ـ لا أستطيع ، أنت عاجز عن فهم مشاعرى . هل تعتقد أن الحب كمفتاح الكهرباء ، أحركه يمينا فيضىء المصباح وأحركه يسارا فيطفأ النور؟ ألا تريد أن تفهم ؟.
ـ لا والله ، إننى أفهم ، ولكن لا أحب لك أن تحزن وتيأس من الحياة . الحياة ما زالت ممتدة أمامك والبنات كثيرات .
أطرق شريف للأرض لحظة ثم أردف قائلا :
ـ وهناك خبر آخر أحزننا جميعا .
لم يشعر مختار بأية رغبة فى معرفة هذا الخبر ، فلقد فقد اهتمامه بأى شىء آخر ، قال بلا اكتراث :
ـ يبدو أن المصائب لا تأتى فرادى .
ـ إسماعيل صدقى باشا أوقف جميع العلاوات لمدة أربع سنوات بسبب الأزمة الاقتصادية .
ـ هل يعنى هذا أننا سنظل أربع سنوات لا يزيد فيها مرتبنا على أحد عشر جنيها وسبعين قرشا ؟.
ـ أجل ، وَضَعَ جميعَ المرتبات فى ثلاجة .
ـ الله يبشرك بالخير. منذ فترة طويلة لم أسمع منك سوى الأخبار التى مثل وجهك .
ـ مثل وجهى ؟ ماله وجهى ؟ وماذنبى ؟ لست أنا الذى جعلت سعد وحسين يفكران فى خطبة درية ولا أنا الذى جمّدت المرتبات .
ـ ومن تظن أن درية تفضله ؟.
ـ هذا ما لا يمكننى التنبؤ به . هل تحب أن تستطلع مريم رأى درية ؟.
ـ لا ، سأتحدث أنا مع درية .
قال شريف ساخرا وغير مصدّق :
ـ متى ياتُرى ؟ بعد أن يتقدم لخطبتها جميعُ المعيدين ؟.

كانت درية فى طريقها إلى نادى الكلية فى فترة الظهيرة لتتاول بعض الشطائر ، وعندما وصلت إلى الشجرة الضخمة القريبة من شرفة النادى أسرَعَت دقات قلب مختار وكاد يعدل عما هو مصمم عليه ، ولكنه تغلب على خجله وناداها :

ـ درية .

توقفت والتفتت إليه قائلة :

ـ نعم ياأستاذ مختار ؟.

ـ أتسمحين لى بالتحدث معك دقيقة واحدة ؟.

ـ بشأن ماذا ياترى ؟

ـ ألديكِ مانع من حضورى لزيارتكم فى بيتكم ؟.

دون أى انفعال أو اهتمام قالت :

ـ أهلا وسهلا ، ولكن لأى غرض ؟.

قال بعد فترة تفكير :

ـ الحقيقة أنا .. أنا أريد أن أطلب يدك ، ما رأيك أنت ؟ رأيك أهم عندى من رأى أى إنسان آخر .

قالت درية وهى مطرقة للأرض وقد ازداد وجهها احمرارا :

ـ أنا حضرت إلى الكلية لأتعلم ، لا لأى غرض آخر .

ـ أعرف ذلك ، وأنا أيضا تعلمت . التعليم لا يمنع الإنسان من الزواج .

ـ لقد حضرت لأتعلم .

ـ هل يعنى هذا أننى لو زرتكم وطلبت يدك فسيكون نصيبى الرفض ؟.

ـ أنا حضرت إلى الكلية لأتعلم ولا شىء غير ذلك .

تهدج صوته على الرغم من بذل أقصى ما فى مقدوره للسيطرة على مشاعره وقال :

ـ أنا .. أنا متشكر .

تركها وسار مطرقا للأرض . عندما رأته متجها نحو نادى الكلية غيَّرت اتجاهها وذهبت إلى غرفة الطالبات . كانت مريم هناك جالسة فى أحد أركانها منهمكة فى استكمال محاضرة الكيمياء مستعينة بكراسة استعارتها من إحدى زميلاتها . دهشت عندما رأت درية عابسة الوجه غاضبة الملامح ، ابتدرتها مريم قائلة :

ـ ما بك يادرية ؟.

ـ اسكتى يامريم ، أنا فى شدة الضيق .

قالت مريم وقد شعرت بذعر :

ـ مم ؟ ماذا حدث ؟.

ـ مختار .
قالت مريم بلهفة :
ـ ما به مختار ؟.
ـ تصوَّرى ، يستوقفنى تحت الشجرة وسط الكلية ليسألنى إذا كنت أقبل خطبته لى ؟.
ـ لا أرى فى هذا مايدعو للضيق أو الغضب ، بل على العكس ، إنه خبر مفرح .
ـ ماذا يظن هؤلاء المعيدون ؟ هل يعتقدون أننا حضرنا إلى الكلية لنتزوج ؟ أنا لم التحق بهذه الكلية إلا لكى أتعلم وأحصل على بكالوريوس العلوم .
ـ وأنا قررت ألاّ أستكمل تعليمى .
قالت درية بدهشة :
ـ غير معقول ، أنا لا أصدق ذلك .
ـ لقد حضرت إلى الكلية لأحصل على بكالوريوس العلوم ، وهأنذا سأتزوج بكالوريوس علوم ، وسوف يحصل على الماجستير والدكتوراه ، ماذا أطمع فى أكثر من هذا ؟.
ـ لا ، أفكارك لا تتفق مع أفكارى . المهم عندى أن أحصل أنا على الشهادة ولا أكتفى بشهادة زوجى .
قالت مريم مبتسمة :
ـ أنا وزوجى واحد ، يكفى أن يحصل أحدنا على البكالوريوس .
ـ هل أفهم من هذا أنك ستتفرغين للبيت ؟.
بمجرد الانتهاء من فرش الشقة سأتفرغ للبيت وأصبح (ست بيت) .
ـ لا ، أنا لا أحب هذا إطلاقا ، لابد من الحصول على البكالوريوس وبتفوق .
ـ لن يمنعك عن ذلك أحد ، احصلى على البكالوريوس كما تريدين ، مختار لا مانع لديه من حصولك على أعلى الدرجات .
ـ على أية حال ...
لم تستكمل درية حديثها وبدا أنها مترددة فى الافصاح عن شىء فى صدرها .
قالت مريم :
ـ أكملى حديثك .
ـ يوجد اثنان غير مختار يفكران فى طلب يدى .
قالت مريم بلا اكتراث :
ـ أعلم ذلك ، إنهما سعد وحسين .
ـ كيف علمت ؟.
ـ لا شىء يبقى سرا فى الكلية . وما رأيك أنتِ ، من تفضلين من الثلاثة !.
قالت درية بعد فترة تردد :

– بلغنى أن سعدا مرشح فى بعثة إلى انجلترا .
– وما معنى هذا بالنسبة لك ؟.
– معناه أننى لو اخترت سعدا فسأسافر معه إلى انجلترا .
– هل هذه طريقة تقديرك للناس ؟ المفضل لديك هو الذى سيسافر فى بعثه لتسافرى معه ؟.
– وبأية وسيلة تطلبين منّى أن أقدر الناس ؟ أليس الثلاثة فى وظائف متشابهة ؟.
– هل يعنى هذا أن مختارا لو كان هو المرشح للبعثة لأصبح هو المفضَّل لديك ؟.
– هذا طبيعى ، الظروف المحيطة بالإنسان لها أهميتها .
– لم أكن أتصور أنك تزنين الناس بهذا الميزان .
– اسمعى يامريم ، أنا لا أعتقد فى وجود ما يسمونه عواطف ومثل هذا الكلام الفارغ . لابد أن يحَكِّم الإنسانُ عقلَه ويختار الأصلح والأفيد له .
– ومن أدرانا أن مختارا لن يسافر فى بعثة هو أيضا فى يوم من الأيام ؟
– عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة .
– يخيل إلىَّ يادرية أن حياتك لن تكون سعيدة . الشخص الذى يحسب كل شىء بهذه الطريقة ، قد تخطئ حساباته فى يوم من الأيام ويتعس فى حياته .
– سأسألك سؤالا يامريم ، افرضى أن شريفا لم يخطبك ، وخطبك الثلاثة ، من كنت تختارين منهم ؟
– أختار مختارا بلا تردد .
– لماذا ؟.
– إنه أرقّ شخص فيهم ، خاصة لو عرفت أنه يحبنى كل هذا الحب الكبير ، وبينى وبينك كنت أفضله أيضا على شريف .
– يبدو أننا نختلف فى أشياء كثيرة ، أفكارك مختلفة عن أفكارى تمام الاختلاف .
– يبدو ذلك .

لم تحتمل مريم مواصلة الحوار مع درية فأشاحت بوجهها عنها واستأنفت مراجعة محاضرة الكيمياء .

لم يتناول مختار غداءً فى ذلك اليوم ، بل جلس وحده فى ركن شبه منعزل من أركان النادى شاعرا بحزن عميق وخجل شديد متحاشيا التقاء عينيه بعينى أحد . بغتة سمع صوت سعد يقول :

– لى معك كلام يامختار .

وسحب كرسيّاً وجلس بالقرب منه . شعر مختار بأن هذا الكلام ذا علاقة بدرية ، قال :
– ماذا تريد أن تقول .
– رأيتك الآن واقفا تحت الشجرة تتحدث مع درية ، ماذا كنت تقول لها ؟.
– وما شأنك أنت بذلك ؟.
– لى شأن بالموضوع .
– بأية صفة ؟.

ـ بصفتى خطيبها .
ـ أنا متأسف ، لم أكن أعرف ذلك ، مبروك ، ولكننى لا أرى فى يدك دبلة .
ـ الدبلة لاتهم ، الذى يهمنى ألاّ تسمم أفكار هذه البنت البريئة بكلامك المعسول .
ـ لست شخصا من الشارع ، يبدو أنك نسيت أنها طالبة عندى ومن المفروض أن أتحدث معها وتتحدث معى .
ـ تكلمها وتكلمك فى المعمل فى حدود مايتطلبه العمل ، وليس تحت الأشجار .
ـ وهل تلك الشجرة فى مكان مهجور ، أليست فى وسط الكلية ؟.
دخل حسين متجها نحو البوفيه . قال مختار لسعد :
ـ يبدو أنك لا تدرك معنى ماتقول ، سأستطلع رأى حسين فى هذا الموضوع .
رفع صوته مناديا :
ـ ياحسين .
أقبل نحوهما حسين قائلا :
ـ ماذا ؟ يبدو أنكما كنتما تتشاجران .
قال سعد :
ـ لا شىء ، لا يوجد مايدعو للتشاجر .
قال مختار :
ـ سأروى لك سبب غضب سعد ، إنه يؤنبنى لأنه رآنى أتحدث مع إحدى الطالبات اللاتى أدرّس لهن .
ـ وما شأنه هو بذلك ، هل هو ولىٌّ أمرِها أو ولىٌّ أمرِك ؟.
قال سعد :
ـ لست ولىَّ أمرها أو ولىّ أمره ، ولكنها خطيبتى .
قال حسين :
ـ من هى هذه الطالبة ؟.
قال سعد :
ـ درية .
قال حسين :
ـ درية حسن رضوان ؟.
قال سعد مؤكدا :
ـ أجل ، درية حسن رضوان .
تجهّم وجه حسين وقال :
ـ شىء جميل ، هل وصلت المسألة إلى هذا الحد ؟ ومنذ متى أصبحت دريةُ خطيبتَك ياسعد ؟ إنها

خطيبتي أنا ، ومادمت تغضب إذا تكلم معها أحد ، فلو رأيتك تتحدث معها خارج المعمل فلن يمر ذلك بسلام .

ظل مختار يتابع حوارهما وكأنه يتفرج على مشهد مسرحي . شعر براحة لم يكن يتوقعها ، تشبه راحة اليأس ، فانسحب قائلا :

ـ عن إذنكم ، سأذهب إلى المعمل .

غادر مختار النادى واستمر الحوار بين حسين وسعد ، قال سعد :

ـ ومنذ متى أصبحتَ خطيبها ؟.

ـ من قبلك .

ـ أنا أحذرك من الاقتراب من هذه البنت .

ـ من العار أن تحدِّث زميلا لك بهذه اللهجة ، ولا ينبغى أن ننسف صداقتنا بسبب مسألة كهذه .

ـ ليست مسألة تافهة على ما أعتقد ، هل يوجد ماهو أهم من اختيار الإنسان لشريكة حياته ؟.

ـ البنات كثيرات ياأخى ، ألا يوجد سوى درية ؟.

ـ قل هذا لنفسك .

ـ ٣٥ ـ

جلس مختار أمام المنضدة التى فى غرفته لمراجعة درس العملى الذى سيَشْرَحه للطلبة غدا ، وعلى الرغم من المجهود العنيف الذى كان يبذله للتركيز ، إلاّ أن فكره كان يشرد منه فى مسارب يكتنفها ظلام اليأس . كان عبد الحميد مبتهجا يدندن بأنغام بلا كلمات . اقتحم غرفة مختار قائلا :

ـ يخيل إلىَّ أننى سأسهر للصباح فى هذه الليلة .

قال مختار بفتور :

ـ لماذا ؟.

ـ شىء عجيب ، ألا تعلم أن غدا أول الشهر ؟.

ـ لا ، لم أكن أعلم .

ـ أنت وشريف مدعوان غدا للعشاء على نفقتى فى أى مطعم تختارانه .

ـ لا ياعبد الحميد ، الدور الآن علينا نحن .

ـ لا ، الوليمة ستكون على نفقتى أنا ، أنسيت أننى سأقبض غداً خمسة جنيهات ؟.

فزع عبد الحميد عندما رأى عينى مختار مبللة بالدموع . قال بلهفة :

ـ ما بك يامختار ؟.

ـ لا شىء .

ـ لا ، بل يوجد شيء . ليس هذا منظر شخص سيتسلّم مرتبه غدا . فى عينيك حزن . صارحنى بما يكدّرك فقد أستطيع مساعدتك .

ـ لا أحد يستطيع مساعدتى .

ـ من يدرى ؟ قد أتمكن من مساعدتك . يضع سرّه فى أفقر خلقه .

قال مختار باذلا مجهودا عنيفا لئلا ينفجر باكيا :

ـ دريّة ...

ـ ما بها درية ؟ كنت تسير على غير هدى باحثا عنها بلا جدوى ، وأرسلها الله إليه لتصبح تلميذتك ، هل كنت تطمع فى أكثر من ذلك ؟.

ـ ليتها ما التحقت بالكلية .

قال عبد الحميد بفزع :

ـ لماذا ؟ هل حدث ، لا سمح الله ، شيء سيّئ ؟

ـ لو أنها ظلّت بعيدة عنى ، ربما كان من الممكن نسيانها مع مرور الأيام ، ولكن وجودها معى فى الكلية ينكأ جُرحى ويجعلنى غير قادر على النسيان .

ـ ولماذا تريد أن تنساها ؟.

ـ الشيء الوحيد الذى أطلبه من الله الآن هو أن يعيننى على نسيانها .

لمعت الدموع فى عينى عبد الحميد وقال :

ـ ذكرتنى يامختار ، ذكرتنى بروحية . أنا أيضا لم أستطع نسيانها .

ـ ستنساها فى يوم من الأيام لأنك لاتراها ، ولكننى أنا ، كيف أنسى إنسانة أراها كل يوم ؟ عندما كنت أفكر فيها فيما مضى كنت أشعر بنشوة الأمل ، ولكنى الآن لم يعد عندى أمل . تحطّم أملى .

ـ لماذا ؟ ما عاش من يحطّم أملك .

ثم أردف قائلا بما يشبه الهمس وكأنه يخشى أن يسمعه أحد :

ـ هل اتضح أنها سيئة السلوك ؟.

ـ ليتها كانت سيئة السلوك لأقنعَ نفسى بأنها غير جديرة بحبّى . إنها ممتازة فى كل شيء ولكنها لا تحبنى ، وهذا لايعيبها .

ـ وبأية صفة تطلب منها أن تحبك الآن ؟ عندما تخطبها وتتزوجها ستحبك . هكذا يفعلن البنات المهذبات ، يحببن من يتزوجهن

ـ لا تريد أن تتزوجنى . ليست من نصيبى .

ـ وهل هذا معقول ؟ وأين تجد من هو أحسن منك ؟.

ـ فى الكلية . يبدو أن كثيرين أفضل منى ، فى نظرها على الأقل .

ـ هل رأيت منها مايدل على ذلك ؟.

ـ أجل ، كلمتها فى الكلية .

ـ هذا غير كافٍ . كم الساعة الآن ؟ سأشترى ساعة غدا بمجرد استلام مرتبى .
ـ الساعة الآن الرابعة .
ـ هل تعرف بيتها ؟.
ـ أجل ، إنه فى الدقى .
ـ قم الآن ارتدِ ملابسك واذهب إلى بيتها واخطبها من أبيها . ماذا تنتظر ؟ هيا ، لا تضيع الوقت .

كانت مشيرة ، صغرى أخوات درية ، جالسة فى شرفة البيت فاسترعى انتباهها شاب يدور حول بيتهم ناظرا من آن لآخر إلى نوافذ وشرفة شقتهم . أسرعت إلى درية قائلة :

ـ (أبْلَهْ) درية ، (أبلهْ) درية .

كانت درية فى هذه الأثناء تسير جيئة وذهابا فى بهو المنزل محاولة حفظ نشيد ستلقيه فى حفل بالكلية . توقفت عن القراءة وقالت لمشيرة :

ـ ماذا تريدين ؟.
ـ تعالَىْ انظرى ، واحد آفندى يدور حول بيتنا منذ ساعة وينظر نحو شقتنا ، ماذا يريد منا ؟

نظرت درية من النافذة فدهشت وقالت :

ـ ما الذى أتى به إلى هنا ؟ إنه معيد عندنا فى الكلية ، البسى بسرعة وانزلى قولى له « (أبلهْ) درية تقول لحضرتك تفضل » .

أنا خائف وحائر . لست أدرى هل أذهب إليهم أم أرجع ؟ أخشى أن يجرحوا شعورى . كان أبى يعلم أننى سريع التأثر ، فكان يعاملنى معاملة خاصة ويحذر أخوتى من أن يجرح أحدهم مشاعرى . فى المدرسة الابتدائية ، كنت فى أثناء الفسحة لا أميل للعب مع الأطفال وأنزوى فى أحد أركان المدرسة أقرأ قصائد شعر . ذات يوم سمعت والدتى تقول عنى لأحد إخوتى ، دون أن تدرى أننى كنت منصتا لحديثها ، « هذا الولد لن يعيش طويلا ، أنا خائفة عليه ، فهو يحزن من أجل جميع الناس ويتأثر لو رأى أحدا يضرب قطة أو كلبا » . الجو جميل ، وبيتهم أيضا جميل . يخيل إلىَّ أنه أجمل بيت فى الدنيا . إنها تعيش فيه . هل سأظل أدور حول البيت إلى الأبد ؟ لا ، لن أجد الشجاعة الكافية لزيارتهم . لو جرح إحساسى أحد فلن أستطيع السيطرة على دموعى فأنا سريع البكاء . الشعر المؤثر يبكينى .. بكيت فى امتحان الشفوى عندما كنت اتلو قصيدة عائشة التيمورية التى ترثى فيها ابنتها ولم أستطع إتمامها وأعطانى الممتحن الدرجة النهائية . يبدو أننى لن أحتمل مواجهة الموقف . متى أتمكن من التخلص من هذا الخجل الذى يعذبنى . لا ، لن أزورهم . ليس لى نصيب .

فوجئ بطفلة جميلة تقترب منه قائلة :

ـ أختى درية تقول لحضرتك تفضل .

أذهلته المفاجأة فقال متلعثما :

ـ أنا ؟ من أنتِ ؟.
ـ أنا مشيرة . أختى درية تقول لحضرتك تفضل عندنا .

قال بدهشة :

ـ درية ؟!.

ـ أجل ، تقول لحضرتك تفضل عندنا .

ـ أنا متشكر . هل رأتني ؟.

ـ أنا رأيتك أولا ، ثم رأتك هي . كانت تحفظ النشيد وتغنيه بأعلى صوتها لأن بابا مسافر.

كيف أزورهم وأبوها غائب ؟ ليس هذا من اللائق . ولماذا أرسلت لى أختها تدعونى لزيارتهم ؟كان من الممكن أن تتجاهلنى . لابد أنها كانت تنتظر منى هذه الخطوة لقد ظلمتها .

ـ بابا مسافر؟ سأحضر فى يوم آخر عندما يعود بابا من السفر

ـ لا ، درية قالت لى أن أطلب من حضرتك أن تتفضل بزيارتنا .

ـ هل هى التى قالت ذلك ؟.

ـ أجل ، عندما رأتك من الشباك عَرَفَتْكَ فى الحال ، قالت لى انزلى واطلبى منه أن يتفضل عندنا .

ثم أردفت قائلة وقد نفد صبرها :

ـ هيا تفضل .

شعر باجهاد شديد فى أثناء صعود السلم لم يشعر بمثله من قبل ، إذ ازدادت سرعة دقات قلبه فألقى هذا عبئا إضافيا على القلب . عندما وصل إلى شقتهم كان الباب مفتوحا ، فدخل وقادته مشيرة إلى غرفة الصالون . جلس فى مكان بعيد عن باب الغرفة . لم يحاول تأمل محتوياتها ، بل ظل مطرقا للأرض . قالت له مشيرة:

ـ درية ستحضر الآن لتسلم عليك ، هل تعبت من صعود السلم ؟.

ـ لا ، لم أتعب .

ـ لماذا إذن اصفرَّ وجهُك ؟ عندما رأيتك تحت لم يكن وجهك أصفر هكذا .

ـ سيعود الآن كما كان .

ـ ماما تقول إن الذى لا يأكل جيدا يصفر وجهه ، لابد أنك لا تأكل جيدا .

ـ لا ، أنا آكل جيدا . أين سافر بابا ؟.

ـ لا أدرى ، إنه يسافر كثيرا .

ماذا يعمل ؟ ماهى مهنته ؟.

ـ مهندس ، يبنى بيوتا كثيرة .

لم أكن أعرف عنه أى شىء . أخشى أن يكون غنيًّا فيظنون أننى أطمع فى أموالها . أدعو الله أن تكون فقيرة ليعرفوا أننى لا مطمع لى فى أية أموال .

ـ هل هو مهندس مبانٍ ؟.

ـ أجل .

ـ ومتى سيعود من السفر؟

ـ قد يعود اليوم ، وقد يعود غدا أو بعد غد . لست أدرى .

ترامى إلى سمع مختار فى هذه اللحظة صوت أغنية أم كلثوم « انظرى ، هذى دموع الفرح جالت فى عيونى » منبعثة من بيت قريب منهم . همَّ مختار بالوقوف قائلا :

ـ سأقوم الآن وأعود عندما يرجع بابا بالسلامة .

اعترضت مشيرة طريقه رافعة ذراعيها فى وضع أفقى قائلة :

ـ لا ، اجلس مكانك . درية أختى ستحضر الآن لتسلم عليك .

ـ ما اسمك ؟

ـ اسمى مشيرة ، ولى أخت أخرى اسمها مِرْفَت ، وأخ اسمه سمير .

ـ ألك إخوة آخرون ؟.

ـ لا ، درية هى أكبرنا ، دخلت الجامعة هذا العام ، فى كلية العلوم .

ـ وأنت ، عندما تكبرين ، ماهى الكلية التى ستلتحقين بها ؟.

ـ لن أدخل كليات ، أنا لا أحب المذاكرة . عندما أكبر سأتزوج ، لكن درية أختى تحب المذاكرة ، تريد أن تحصل على شهادة كبيرة ولا تريد أن تتزوج .

صفعته تلك الجملة الأخيرة ودفعته للوقوف بحركة شبه انعكاسية شاعرا بيأس شديد ، قال :

ـ سأخرج الآن وأرجع فى يوم آخر .

دفعته مشيرة بكل قوتها للجلوس قائلة :

ـ لا ، اجلس ولا تخرج . درية ستحضر لتسلم عليك ، هاهى ذى قادمة ، لا ، ليست هى ، هذه أختى مِرْفت .

كانت مرفت فى نحو الرابعة عشرة ، دخلت مبتسمة ولاحظ مختار أنها هى أيضا جميلة ، ولكن جمال درية كان طاغيا فى ذهنه على أى جمال آخر . قالت وهى تصافحه :

ـ أهلا وسهلا .

ـ أهلا بك .

قالت مشيرة .

ـ هذه أختى مرفت .

قال مختار :

ـ وأين درية ؟.

قالت مرفت :

ـ ستحضر الآن ، وسيحضر خالى أيضا ، ماما كلمته فى التليفون وطلبت منه أن يحضر .

قال مختار بدهشة :

ـ خالك ؟!.

ـ أجل ، لأن أبى غير موجود .

ـ وهل سيحضر خالك الآن ؟.

ـ سيحضر حالا ، هاهى ذى درية .

عندما دخلت درية شعر مختار وكأنه يراها لأول مرة فى حياته ولم يعد يرى فى الغرفة سواها . صافحت مختار قائلة :

ـ أهلا وسهلا .

ـ أهلا بك . لك أخوات جميلات جدا يادرية .

ابتسمت قائلة :

ـ متشكرة .

ـ مرفت قالت إن خالك سيأتى الآن .

ـ أجل ، سيأتى سريعا فبيته قريب منا ، لا تستغرق المسافة أكثر من ثلاث دقائق بالسيارة . خالى وكيل وزارة الزراعة .

وكيل وزارة الزراعة ؟ شىء مخيف . لن يصدق أحد أننى جئت أطلب يدها دون أن أعرف أى شىء عن عائلتها ، وأحببتها قبل أن أعرف اسمها .

ـ خالك وكيل وزارة الزراعة ؟ شىء عظيم .

ـ ألم تكن تعرف ؟.

ـ لا ، أنا لا أعرف أى شىء عن عائلتك ، ولم أحاول أن أعرف . لا أعرف إلا أنتِ .

ـ خالى مغرم بالحشرات ، لديه مجموعة حشرات هائلة .

ـ أنا أيضا مغرم بالحشرات ، ليتنى أستطيع رؤية مجموعته .

ـ اطلب منه ذلك ، إنه يحب أن يريها للناس . كلما زرته يحدثنى عن الحشرات .

ـ وأنتِ ، هل تحبين الحشرات ؟.

ـ لا ، أنا أحب الكيمياء .

ـ أتودين أن تصبحى كيميائية ؟.

ـ أريد أن أصبح دكتورة فى الكيمياء . أحب الكيمياء جدا .

ـ وعلم الحيوان ، تُرى هل تحبينه ؟.

ـ لا أميل إليه كثيرا ، ولكننى أذاكره جيدا لأحصل على درجات عالية .

بعد لحظة صمت أردفت قائلة :

ـ سمعت أنك تجيد قراءة الكف .

ضحك مختار وقال بدهشة :

ـ أنا أقرأ الكف ؟ من قال لك هذا الكلام الغريب ؟.

ـ مريم قالت لى إن لديك قدرة هائلة على قراءة الكف .

قامت مشيرة وجلست جنبه ومدت له يدها قائلة :

ـ اقرأ كفى .

أمسك مختار يد مشيرة وقال :

ـ كفك صغير.

ـ غدا سيكبر.

وهل لو كنت قادرا على قراءة الكف ومعرفة الغيب كنت أجلس هكذا خائفا لا أدرى مايخبئه لى القدر ؟!.

ـ حظك هائل . عندك سكة سفر.

قالت مشيرة بفرح :

ـ أحقيقةً ؟ لابد أن أبي سيأخذنى معه عندما يسافرا المرّة القادمة ، وماذا ترى أيضا فى كفى ؟.

ـ ستنجحين فى الامتحان ويكون ترتيبك الأولى .

قالت بسخرية وقد بدأت تشك فى كلامه :

ـ الأولى ، انظر واقرأ جيدا من الكف.

ـ لماذا ؟ هل أخطأت ؟ يبدو فى كفك أن شخصا أغضبك .

قالت بإعجاب :

ـ هل أمكنك رؤية هذا فى الكف ؟ أنت هائل . لقد أغضبتنى ماما أمس ، وماذا ترى أيضا ؟.

ـ ستتزوجين وأنت صغيرة السن ، سيكون سنك ست عشرة سنة .

سأتزوج من ؟

ـ ستتزوجين رجلا .

ضحكت وقالت :

ـ لابد أن يكون رجلا ، وهل سأتزوج سيدة ؟.

ـ أقصد أنك ستتزوجين شابا ممتازا .

أسرعت مِرْفَت بالجلوس جنب مختار ومدت له كفها قائلة :

ـ اقرأ لى كفّى .

قال مختار ناظرا لدرية :

ـ سأرى كف درية أولا ، هل ترغبين فى قراءة كفك يادرية ؟.

ـ لا مانع لدىّ .

ـ تعالَى هنا جنبى .

قامت درية وجلست بجوار مختار ومدت له كفها ، فامسكه برفق وكأنه يتذوق طعاما لذيذا وأخذ يتفرس فيه ثم قال :

ـ كفك ملىء بأشياء كثيرة .

صاحت مشيرة قائلة :

ـ وجهك اصفرَّ مرّةً أخرى .

قالت درية :
ـ أشياء كثيرة مثل ماذا ؟.
ـ خط القلب عندك غير واضح ، وهذا يدل على أنك لست عاطفية ، إنك تحكّمين عقلك أكثر من عاطفتك .
ـ أنا كذلك بالفعل .
رسم مختار على شفتيه ابتسامة كاذبة وقال :
ـ هذا يبرهن لك على أنني قارئ ماهر للكف .
ـ وماذا ترى أيضا ؟.
ـ ستكونين سعيدة مع شخص يحبك . يحبك من كل قلبه حبا عميقا . صورتك لا تفارق خياله ، وسيكون لك من الأبناء ثلاثة ، ابنتان وولد ، وهذا الشخص الذى يحبك لا يمكنه الحياة بدونك .
ـ هل يمكنك وصف هذا الشخص ؟.
ـ طويل ونحيل وقمحى اللون . وهذا الشخص يحبك منذ مدة طويلة قبل أن تلتحقى بالكلية . رآك أول مرّة فى حديقة الأندلس ، ومنذ رآك لم تفارق خياله لحظة واحدة . أنت الإنسانة الوحيدة التى أحبها من أعماق قلبه .
قالت مشيرة بدهشة وإعجاب :
ـ أترى كل هذا فى كفّها ؟!.
استمر مختار فى حديثه قائلا لدرية :
ـ هذا الشخص كلما رآك تسرع دقات قلبه ، وهذا دليل على قوّة الحب .
قالت درية وهى تسحب كفّها من يد مختار :
ـ يبدو أن هذا الشخص مازال فى عالم الغيب .
قال مختار بحزن ويأس :
ـ هكذا ؟.
دق جرس الباب فقالت درية :
ـ لابد أنه خالى .
وأسرعت لفتح الباب . قالت مرفت لمختار :
ـ وأنا ، ألن تقرأ كفى ؟.
قال مختار وهو شارد الذهن :
ـ مرة أخرى إن شاء الله .
دخل خال درية غرفة الصالون ، رجل طويل مهيب ممتلئ الجسم بلا ترهل ، ولم تدخل معه درية ، قال لمختار الذى وقف لمصافحته :
ـ أهلا وسهلا ، الأستاذ مختار ، أليس كذلك ؟

ـ أجل .
ـ تفضل اجلس ، كيف حالك ؟
ـ الحمد لله .
ـ أنت المعيد الذى تدرِّس لدرية ، أليس كذلك ؟.
ـ أجل ، أُدَرِّس لها علم الحيوان العملى .
ـ وهل بدأت بحث الماجستير؟.
ـ أجل ، أنا أَدْرِس بعض الحشرات المائية تحت إشراف الأستاذ أفلاطون بك .
ـ لابد أنك مغرم بالحشرات .
ـ أنا أهوى دراسة الحشرات
ـ عندى مجموعة حشرات لا بأس بها . هل تعيش هنا مع عائلتك ؟.
ـ لا ، عائلتى فى الريف .
ـ وأين تسكن هنا ؟.
ـ فى حارة البحرى بشبرا .
ـ حارة البحرى ؟ أين هذه الحارة ؟ لم أسمع عنها .
ـ متفرعة من شارع جزيرة بدران .
ـ ولماذا لم تسكن فى بيت قريب من الكلية ؟.
ـ سأنتقل قريبا إن شاء الله إلى بيت فى حدائق القبة .
ـ هذا أفضل .
أطرق خال درية لحظة إلى الأرض ثم قال :
ـ بلغنى أنك تفكر فى الزواج .
ـ أجل ، أنا فكرت فى الزواج لأننى صادفت فتاة أحلامى التى أتمنى أن أتزوجها .
التفت الخال إلى مرفت ومشيرة وقال :
ـ اذهبى يامرفت أنت ومشيرة إلى ماما ، اجلسا مع درية .
أسرعت مرفت بالخروج قائلة :
ـ حاضر ياخالى .
وتلكأت مشيرة قليلا وكأنها لا تود مغادرة الغرفة . قال الخال :
ـ بلغنى أنك ترغب فى خطبة درية .
ـ هذا هو أملى فى الحياة .
ـ بكل أسف والد درية سافر اليوم ، ولكننى فى منزلة والدها بالضبط . اسمح لى أن أسألك بعض الأسئلة بدون إحراج .
أسرعت دقات قلب مختار وقال :

ـ تفضل .

ـ كم مرتبك الآن ؟

ـ مازلت فى أول السلّم ، وكما تعلم سعادتك أول مرتب لنا هو إثنا عشر جنيها .

ـ وهل تظن ياابنى ، اسمح لى أن أكلمك بصراحة ، هل تظن أن اثنى عشر جنيها تفتح بيتا ؟.

ـ سيرتفع المرتب فى يوم من الأيام .

ـ تفضل اشرب قهوتك حتى لا تبرد .

ـ متشكر .

أمسك مختار فنجان القهوة ورشف منه رشفة واحدة ثم وضعه ولم يلمسه بعد ذلك . قال خال درية :

ـ لست أدرى إذا ماكان والد درية يوافق على مساعدتكما ماليا أم لا ، هذا شىء لا أعرفه . ولكن ما الذى دفعك إلى التفكير فى الزواج فى هذه السن المبكرة ؟ الزواج ياابنى كله مشكلات ومسئوليات .

ـ لا أعتقد أننى كنت سأفكر فى الزواج فى الوقت الحالى لو لم أر درية . أنا أحب درية حبا عميقا ولا أستطيع الحياة بدونها ، وإن لم أتزوجها فقد أعيش طوال حياتى بلا زواج .

ـ ياابنى ، اسمع نصيحتى ، أنا أكبر منك سنا وتجاربى فى الحياة أكثر من تجاربك . الحب ليس كل شىء . لاتجعل مسألة الحب هذه تسيطر عليك وتغير معالم مستقبلك . لا تجعل عاطفتك تسيطر على عقلك . يبدو أنك شاب عاطفى ، خيالى . كن واقعيا .

شعر مختار بصدمة عنيفة لم يكن يتوقعها ، فغمغم قائلا :

ـ هل أفهم من هذا . أن طلبى مرفوض ؟.

ضحك الخال ضحكة قصيرة وقال :

ـ لا ياابنى ، لم أقصد ذلك . إنها مجرد نصيحة ولك أن تقبلها أو ترفضها . ماقلته لك هو رأيى الخاص وقد يكون لأبيها رأى آخر .

ـ ما يهمنى هو رأى درية .

قال الخال ضاحكا :

ـ درية مازالت صغيرة . منذ سنوات قلائل كنت أجلسها على فخذى وأعطيها شكولاتة ، وهل لمثلها رأى ؟.

ـ بالتأكيد لها رأى ، ورأيها هو الذى يهمنى .

ـ يخيل إلىَّ أنها فى الوقت الحاضر لا تفكر إلا فى الدراسة . ومارأيك فيها ؟ هل هى متفوقة فى دراستها ؟.

ـ أجل ، إنها مجتهدة ومتفوقة .

قام مختار وأردف قائلا :

ـ أنا متأسف إذا كنت أضعت بعض وقت سعادتك عن إذنك .

كان عبد الحميد جالسا يفكر فى مختار متعجلا عودته عندما فُتح الباب ودخل مختار . لم يكن منظره يبشر بالخير ، فلقد كان مطرقا للأرض شاحب الوجه حزين الملامح . ابتدره عبد الحميد قائلا :

ـ سبع أم ضبع ؟

غمغم قائلا :

ـ أرنب .

وسار نحو غرفته وبدأ يستبدل بملابس الخروج ملابس البيت لحق به عبد الحميد وقد انتابه القلق وقال بلهفة :

ـ ماذا حدث ؟ ألم يوافقوا على الخطبة ؟

ـ لست أدرى . سأقص عليك كل ماحدث بالضبط وقل لى ماذا تفهم من ذلك . أين شريف ؟.

ـ ذهب لزيارة خطيبته .

حكى مختار لعبد الحميد تفاصيل مارآه وسمعه منذ رؤية مشيرة حتى مغادرته بيت درية . قال عبد الحميد :

ـ لا أرى فى هذا مايدل على رفضهم لطلبك . مازال باب الأمل مفتوحا .

لم يكن من عادة مختار أن ينام فى أثناء النهار ، إذ أن طبيعة عمله لاتسمح بذلك ، فالدراسة فى الكلية مستمرة من الثامنة والنصف صباحا حتى الخامسة مساء ، وعلاوة على ذلك فمختار يعانى من الأرق ولا ينام بسهولة ، ولكنه فى هذا اليوم شعر برغبة فى النوم عقب عودته من عند درية ، وصحا من نومه بعد نحو ساعتين ، فقام وجلس مع عبد الحميد فى انتظار عودة شريف . عندما فتح الباب ودخل شريف ابتدره مختار قائلا :

ـ لماذا تأخرت ؟ لقد انتظرتك طويلا وأود أن أحكى لك أشياء فى غاية الأهمية.

ـ أنا أعرف كل ماحدث .

قال مختار بدهشة :

ـ تعرف ماذا ؟.

ـ أنت زرت درية فى بيتها اليوم لتخطبها .

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ درية اتصلت بمريم تليفونيا فى أثناء وجودى هناك وقصت عليها كل ماحدث . أنصحك يامختار بالابتعاد عن طريق هذه البنت . حاول أن تنساها ولا تفكر فيها على الإطلاق .

قال مختار وقد شعر بقشعريرة تسرى من جسده إلى رأسه :

ـ ماذا قالت لمريم فى التليفون ؟

ـ إنها الآن فى انتظار تقدم حسين وسعد لخطبتها .

ـ هل تنوى الزواج من ثلاثة ؟.
ـ يبدو أنها تود أن يطلب يدها جميع من فى الكلية .
غمغم مختار قائلا :
ـ هذا يعنى أننى لا أهمية لى فى نظرها .
ـ قلت لك إنس هذه البنت وابتعد عنها . ستجد من هى أفضل منها .
ـ لا قدرة لى على نسيانها .
ثم تهدج صوته وهو يقول :
ـ ليتنى ما ذهبت .
ـ لا يامختار ، يجب أن تكون أقوى من ذلك . كن رجلا .
قالت طالبة لإحدى زميلاتها :
ـ هل سمعتِ آخر الأخبار ؟.
ـ ماذا ؟.
ـ مختار بدر الدين ذهب إلى بيت درية ليخطبها ولكنهم رفضوا طلبه .
ـ ممَّن سمعتِ الخبر؟
ـ من كثيرين .
ـ أمن أجل هذا دخل لنا اليوم معيد غيره ؟.
ـ هذا طبيعى ، لم يعد يجرؤ على دخول المعمل .
ـ هيا بنا نسأل درية لنعرف حقيقة ماحدث .
قالت درية :
ـ أجل ، الخبر صحيح . زارنا فى البيت وخطبنى ، ولكننى لا أفكر الآن فى الزواج .
ـ إذن رفضتِ طلبه .
ـ ليس هو أول من تقدم لى ، كثيرون يتقدمون لطلب يدى . ولن يكون هو آخرهم .
ـ أنت على حق ، لا يوجد ما يدعو للسرعة . كل تأخيرة فيها خيرة .
كان مختار جالسا فى أحد أركان النادى عندما أقبل سعد وسأله :
ـ مابك يامختار؟ لماذا تجلس وحدك فى هذا الركن ؟ هل تغديت ؟.
ـ أكلت شطيرة .
جلس سعد جنب مختار وقال وفى لهجته نبرة سخرية :
ـ يبدو عليك الخجل الشديد كمن عمل عملة سوداء . ماذا فعلت ؟.

ـ أنا أعرف ما تقصده ياسعد . إذا كنت تلمح لموضوع خطبتى لدرية فيبدو أن كل الناس عرفت ، لم يبق سوى أن يكتبوها فى الصحف ، وأظن أنه لاداعى لذكر هذا الموضوع . أنا لم أقترف ذنبا ولم أرتكب عملا فاضحا .

ـ نصحتك ولم تستجب لنصيحتي . لم يكن هناك مايدعو لوضع نفسك فى هذا المأزق الحرج .
ـ ليس هناك مايدعو للحرج . وإذا كنت ترغب فى خطبتها لنفسك فلتخطبها وسأكون أول من يهنئك .
ـ أعلم تماما مدى كرم أخلاقك يامختار . ولا يضايقني الآن سوى حسين الذى حشر نفسه فى الموضوع . لست أدرى ماذا يريد بالضبط . أكلما رأى فتاة يفكر فى الزواج منها ؟.
أقبل حسين ووقف خلف سعد منصتاً لحديثه . ولم ينتبه سعد لوجود حسين إلا عندما فوجئ به يقول :
ـ كلام فارغ ، توجد بنات عديدات لا أفكر فى الزواج منهن .
شعر سعد بشيء من الخجل وقال :
ـ هل عرفت أن مختارا ذهب لخطبة درية ؟.
ـ أجل ، عرفت ، وهل يوجد شخص فى الكلية لم يعرف ذلك ؟ وعلمت أنهم رفضوا طلبه .
غمغم مختار قائلا :
ـ شيء عجيب . هل نشروا الخبر فى الصحف ؟.
قال حسين :
ـ لا شيء يظل خافيا .
قال مختار :
ـ لست أدرى من الذى نشر الخبر.
قال حسين :
ـ درية هى التى نشرت الخبر. حكت الموضوع بالتفصيل لكل من عنده تليفون من الطالبات .
تمتم مختار قائلا :
ـ ألهذه الدرجة ؟.
قال حسين :
ـ وماذا كنت تنتظر ؟ لوكانت تعزّك لما ذَكَرَت أى شيء لأى مخلوق عن زيارتك لها . إنها تفخر بأنك ذهبت لخطبتها ورَفَضَت طلبك .

لم يشعر مختار بأية فرحة لاستلام مرتبه فى هذا اليوم . كان يسير مطرقا للأرض متحاشيا النظر إلى أى إنسان . فقد تصور أن جميع العيون تنظر إليه بسخرية واستهزاء . وفى أعماقه إحساس بأنه قد أصبح كإناء من الزجاج تحطم ولا سبيل لإصلاحه . وعلى غير العادة استقل تاكسيا انطلق به نحو حارة البحرى . وعندما دخل شريف الشقة لم يكن عبد الحميد قد عاد وكان مختار مستلقيا على الفراش ناظرا إلى سقف الغرفة . جلس شريف على كرسى بالقرب منه وقال :

ـ أتعشم ألاّ تعير هذا الكلام الفارغ الذى سمعته فى الكلية أىَّ اهتمام . إنها مجرد ثرثرة لن تقدم أو تؤخر
قال مختار بصوت خافت :
ـ يحيّرنى شيء .
ـ ماهو ؟.

ـ لماذا أرسَلَت أختها تدعونى لزيارتهم مادامت تنوى رفض طلبى ؟.

ـ سبق أن قلت لك إنها ترغب فى ذهابك لطلب يدها . أما كونها توافق على طلبك أو ترفضه فهذه مسألة أخرى . تريد أن تقول إنك ذهبت لتخطبها .

ـ أهذا كل مافى الأمر ؟.

ـ يخيل إلىَّ ذلك . وعلى أية حال هذه مجرد فروض واستنتاجات وقد أكون مخطئا .

فتح الباب ودخل عبد الحميد واضعا يده فى جيب سترته . بادره شريف قائلا :

ـ لماذا تأخرت ياعبد الحميد ؟ أخشى أن تكون أنفقت كل مرتبك .

ـ طوال الطريق وأنا فى الترام كنت واضعا يدى فى جيبى قابضا على الجنيهات الخمسة خوفا من أن تنتقل إلى جيب أحد اللصوص فتكون كارثة كبرى .

ـ أين هذه الجنيهات الخمسة ؟ أريد أن أسعد برؤياها .

اكتشف عبد الحميد أنه لايزال قابضا على النقود فأخرجها من جيبه وناولها لشريف قائلا :

ـ هاهى ذى . عشر ورقات جديدة . كل ورقة من فئة الخمسين قرشا

تصفحها شريف وأعادها إلى عبد الحميد قائلا :

ـ مبروك ياعبد الحميد . بارك الله لك فيها .

ـ الله يبارك فيك .

كان مختار طوال هذه الفترة صامتا ناظرا إلى لاشىء . ثبَّت عبد الحميد نظره فيه وقال :

ـ أنا أدعوكما أنتما الاثنين للسهر هذه الليلة فى أى مكان تختارانه . أحوال مختار فى هذه الأيام لاتعجبنى ، نريد أن نُفرّج كربه وننسيه الهموم الجاثمة على صدره . أما زلت متألما يامختار ؟.

ـ لا . لست متألما . كل إنسان يأخذ نصيبه .

ـ هكذا تعجبنى . ولو أننى بينى وبينك أعلم أنك متألم وحزين . فأنا مثلك . جرَّبت الحب . لكن ما باليد حيلة ، إنها إرادة الله . مارأيكم لو ذهبنا الليلة إلى سينما حديقة الأزبكية ؟.

قال مختار :

ـ فليكن . ولكن على نفقتى أنا .

ـ لا . بل على نفقتى أنا ولا أحد غيرى . وسنذهب فى تاكسى ونعود فى تاكسى .

- ٣٧ -

قبل عرض الأفلام . انبعث من مكبرات الصوت بالسينما صوت أم كلثوم فى أغنية « انظرى ، هذى دموع الفرح جالت فى عيونى » . قال شريف :

ـ أنا لم أنتبه للبرنامج . ماهى الأفلام التى ستعرض الليلة ؟.

قال عبد الحميد :

ـ فيلم « سجين زندا » وفيلم « لن تأخذه معك عندما تموت » .

لم يسمع مختار حديثهما فلقد كان منصتا لأغنية أم كلثوم . قال :

ـ هذه الأغنية تذكرنى بدريّة .

قال عبد الحميد :

ـ ماهذه المصيبة ؟ لقد أحضرناك هنا لتنسى دريّة لا لتذكرك بها الأغنية .

قال مختار :

ـ سمعت هذه الأغنية عندما كنت فى بيتهم .

قال عبد الحميد :

ـ اعمل معروفا يامختار لاتعرها أى اهتمام . انسها ولا تفكر فيها . كل الخشاف كل . بالهنا والشفا .

ـ أحاول نسيانها ولكننى أتذكرها غصباً عنى . وأحاول تجنب رؤيتها ولكننى أراها على الرغم منى . كل شىء يذكرنى بها . الربيع والأزهار والأغانى .

قال عبد الحميد وقد تهدج صوته :

ـ وأنا . كل شرفة وكل صينية قلل تذكرنى بروحية . حتى الموت يذكرنى بها .

صاح شريف غاضبا :

ـ ماذا جرى ؟ أفى حفلة تأبين نحن أم فى حفلة سينما ؟ كفى كلاما فى هذه الموضوعات .

قال عبد الحميد :

ـ أنت لا تعرف هذه المشاعر ياشريف لأنك لم تجرب الحب .

ـ كيف تقول إننى لم أجرب الحب ؟ ألم أحب مريم ؟.

ـ أجل جربتَ الحب ولكنك لم تجرب عذابه . الفاتحة على روح روحية .

وعندما بدأ عرض الفيلم كان الثلاثة يقرأون الفاتحة .

- ٣٨ -

فى غرفة الصالون بمنزل مريم جلس شريف بالقرب منها وقال :

ـ ماهى آخر أخبار درية ؟.

ـ لا شىء . لم يتقدم لها حتى الآن لا سعد ولا حسين.

ـ أنا متأكد أن هذه البنت لم يحبها ولن يحبها أحد كما أحبها مختار. أنا خائف عليه . أخشى أن يحدث له كما حدث لسعيد عزت .

ـ مَن سعيد عزت هذا ؟.

ـ طالب . كان رقيقا كمختار . أحب طالبة زميلتنا حبا عنيفا وذهب ليخطبها فطردته من بيتها لم يحتمل الصدمة فمات . يبدو أن البنات لايملن للشخص الرقيق النبيل

ـ لماذا ؟ لقد أحببتك .

ـ لست أدرى . فلقد بدأت أشك فى كل شىء . لماذا يتعذب أرقّ الناس كل هذا العذاب ؟.

ـ هل يعنى هذا أنك تشك فى حبى ؟.

ـ لا . ولكننى تذكرت بيتهوفن .

قالت بدهشة :

ـ بيتهوفن ؟ ! وما علاقة بيتهوفن بالموضوع ؟

ـ هل تتصورين أن بيتهوفن الفنان العظيم العبقرى المرهف الحس . لم يعثر طوال حياته على الفتاة التى تبادله الحب . وعاش ومات بلا زواج ؟!.

ـ دعنا من بيتهوفن . عندى لك خبر مفرح .

ـ ماهو ؟.

ـ أتممنا شراء جميع أثاث الشقة . لم يكن باقيا سوى الستائر التى اشتريناها بالأمس .

ـ منذ شهرين وأنا أدفع الإيجار بلا فائدة . نريد أن ننتهى .

قالت مريم بامتعاض :

ـ ننتهى ؟ ! وهل هذا كلام تقوله بهذه المناسبة ؟ المفروض أن تقول نريد أن نبتدئ . لا أن ننتهى .

ـ أنا متأسف . أقصد نريد أن ننتهى من مسألة الأثاث .

ـ هانحن قد انتهينا من هذه المسألة .

ـ إذا كان الأمر كذلك فلنبدأ نحن . ماذا يعطلنا ؟

ـ ولماذا العجلة ؟ هل ستطير الدنيا ؟ مازالت أمامنا سنين عديدة . الفترة التى نعيشها الآن هى أجمل أيامنا . إنها فترة السعادة التى سنحيا على ذكرياتها طوال عمرنا .

ـ أنا حزين من أجل مختار . فهو محروم من هذه السعادة . مسكين لن تكون له ذكريات سعيدة .

ـ هل سنعود للحديث عن مختار ؟ إنه هو الذى يعذب نفسه . كان فى إمكانه أن يختار أية فتاة أخرى

غير درية ويسعدان معا . ألا يوجد فى الكون سوى درية ؟ لا أعتقد أنها قادرة على إسعاده لو تزوجها . إنها كالوعاء الجميل الذى نراه فى الصيدليات . وعندما نفتح هذا الوعاء الجميل نجده مليئا بالسم .

ـ لا تنْسَىْ أن للسم فوائد . وإلا لما وضعوه فى الصيدليات .

ـ ٣٩ ـ

بعد أسبوع ظهرت مجلة الكلية وجلس عدد كبير من الطلبة فى النادى يتصفحونها ويطالعون بعض مافيها . كانت مريم ودرية واقفتين عند بوفيه النادى تأكلان بعض الشطائر . قالت مريم :

ـ هل اشتريتِ مجلة الكلية ؟

ـ أجل . اشتريتها .

ـ هل قرأتِ الموضوعات التى كتبها مختار ؟

ـ لا . لم أقرأ أى شىء . سأقرؤها عندما أعود إلى البيت .

ـ مختار كاتب معظم ما فى المجلة . مسرحية وأشعار ومقالات وفكاهات .

قالت درية بسخرية :

ـ كتب كل هذا ؟ يبدو أنه فائق ورائق .

ـ على العكس . مختار معذب . معظم الكتّاب كتبوا أروع أعمالهم وهم تعساء وفى ظروف قاسية لا يمكن أن يحتملها أىّ إنسان . إنها موهبة وليست خلو بال .

ـ وكيف استطعتِ قراءة كل هذه الموضوعات والمجلة لم تظهر إلا اليوم ؟

ـ هل من المعقول أن يكتب مختار شيئا ولا أقرؤه على الفور ؟

دخل مختار النادى فرأى مريم ودرية . أسرعت دقات قلبه فغادر المكان متجها نحو غرفة المعيدين . وجد شريفا جالسا أمام الميكروسكوب يفحص شيئا .

قال شريف لمختار :

ـ أين كنت ؟ بحثت عنك فلم أجدك .

ـ كنت أبحث عن شقة خالية . وعثرت على شقة جميلة .

ـ كم إيجارها ؟

ـ جنيهان فى الشهر .

ـ كم غرفة ؟

ـ أربع غرف فسيحة وبهو . وبها مطبخ فاخر وحمّام ملوّن .

- ٤٠ -

عندما عاد مختار إلى البيت لم يكن به سوى عبد الحميد الذى كان واقفا فى المطبخ يطهو الطعام . قال مختار :

ـ فى خلال أسبوع سأترك هذه الشقة وأنتقل إلى شقة جديدة بحدائق القبة بالقرب من الكلية . وسأشترى أثاثا جديدا .

قال عبد الحميد بعد تردد :

ـ هل من الممكن أن تترك لى هذا الأثاث القديم أم ستبيعه ؟

ـ ألن تأتى معى فى الشقة الجديدة ؟

ـ لن أُثقل عليك . لقد أصبح لى الآن والحمد لله مرتب شهرى لا بأس به يسمح لى بالحياة هنا بمفردى . الحياة فى حدائق القبة فوق مستواى .

ـ هل هذا كلام تقوله ؟ ستعيش معى . أتوقع أن يتركنا شريف فى أية لحظة ويذهب إلى بيته الجديد مع عروسه مريم ولن يبقى سوانا هنا نحن الاثنين . ولا يمكننى أن أتركك وحدك . الشقة الجديدة جميلة جدا وفى وسط راق . جيراننا باشاوات .

قال عبد الحميد بفزع :

ـ باشاوات ؟ ! لا يامختار . أنا لم أعتد السكنى جنب الباشاوات . ومن يحشرنى أنا الصعلوك بين الملوك ؟

ـ أنت شاعر عظيم وتستحق السكنى فى أجمل مكان .

بدا على عبد الحميد وكأنه انتقل بغتة إلى دنيا أخرى . فقال مبتسما :

ـ الإذاعة اشترت منى اليوم أغنية جديدة سيلحنها أحمد صدقى ويغنيها كارم محمود .

ـ وكم أعطوك ثمنا لها ؟

ـ أعطونى جنيها بالتمام والكمال .

ـ أريد أن أسمعها .

ـ اسمع ياسيدى :

على شـــط الـــغـــديـــر وردهْ ربـــيـــع الحسن ودّعْــــهـــا*
عـــيونها م الأسى شـــارده بتروى الأرض بـــدموعــهـــا
ولسّــــه فـــاكـــره خلاّنهـــا ولـــيـــه أحـــبـــابها نســيوهـــا ؟
عشـــان الحسن غـــاب عنهـــا ســـابوهـــا الـــنـــاس وبـــكّوهـــا

* * *

---

* الأشعار التى فى هذه الرواية وفى جميع روايات وقصص المؤلف من نظمه .

عـرفـتك وانتِ فـرحـانـه وكـنـتِ فى ربـيـع عـمـرك
ويـامـا وأنت خـجلانـه رويتِ عـيونّـا من خـمـرك
وشـفـتك ع الـغصون الـيوم مـابين الـزهـر دبلانـه
مـاهـانش عـلىَّ ادوق الـنوم واسـيـبك وانتِ سـهـرانـه
جاالك لسَّـه فى عـيـنَىَّ عـبيرك لسَّـه فى ايـدىَّ
حـاقضَّى الـعـمـر أهـواكِ وبس ازاى رح أنسـاكِ؟

* * *

جـمـعتِ الحسن والـخـفَّـهْ وكـنـتِ الـفـتـنـه والبـهـجـهْ
وكـان مـا أحـلاك فى الـلَّفـه يـاروح الـقـلب والمهـجـهْ
ولما راح زمن حـسـنك مـاحـدش جـه سأل عـنك
ولـيـه الـزهـرة لو دبـلت تـهـنهـا الـنـاس وتـرمـيهـا؟
دى بـرضـه الورده لو نشفت ريحتها رح تـكون فيهـا
جاالك لسَّـه فى عـيـنىَّ عـبيرك لسَّـه فى ايـدىَّ
حـاقضَّى الـعـمـر أهـواكِ وبس ازاى رح أنسـاكِ؟

قال مختار:

ـ هذه الأغنية وحدها تعطيك حق السكنى فى أجمل مكان فى العالم.

أطرق عبد الحميد للأرض مبتسما وقد شعر وكأنه كان محلقا فى السماء ثم هبط فجأة فى المكان الذى كان فيه، فقال:

ـ وكم سيكلفك الأثاث الجديد؟

ـ شاهدت غرفة نوم ممتازة وغرفة مكتب فاخرة. وغرفة صالون جميلة، وغرفة طعام من خشب الزان. كل هذا سيكلفنى حوالى اثنين وأربعين جنيها سأسددها على أقساط شهرية.

عندما صحا مختار فى الصباح وجد شريفا من المطبخ يعمل الشاى ويُعدُّ الفطور، وهى الأشياء التى عوّدهم عبد الحميد على القيام بها كل يوم. قال مختار:

ـ أين عبد الحميد؟

ـ مازال نائما.

ـ ليس من عادته التأخر فى النوم إلى هذه الساعة. قد يكون هذا بسبب السهر الطويل ليلة أمس، ظللنا ننتظر عودتك حتى الواحدة صباحا ولما يئسنا نمنا. لماذا تأخرت كل هذا التأخير؟

ـ ذهبت مع مريم للسينما، إنها أول مرة نخرج معا ونذهب للسينما. اذهب وأيقظ عبد الحميد، فهو يغضب لو تركناه نائما أكثر من اللازم.

عندما ذهب مختار وجد عبد الحميد نائما فوق الحصيرة فى ركن الغرفة كعادته ولكنه لاحظ شدة شحوب وجهه. رفع صوته ليوقظه قائلا:

ـ قم ياعبد الحميد بقينا الظهر.
ولما لم يجد أية استجابة انحنى وأخذ يهزه قائلا :
ـ قم ياعبد الحميد . عبد الحميد . عبد الحميد .
شعر بانقباض . وضع يده على جبهة عبد الحميد فوجدها باردة . وبلهفة واضطراب وضع يده على قلبه فلم يشعر بنبضاته . أمسك يده ورفعها ثم تركها فسقطت على الحصيرة بفعل الجاذبية سرى فى جسده رعب شديد ووجد نفسه يصيح قائلا :
ـ ياشريف . شريف .
أقبل شريف مهرولا فرأى مختارا واضعا أذنه على صدر عبد الحميد فى محاولة لسماع دقات قلبه . فصاح فى ذعر :
ـ مابه ؟ مابه عبد الحميد ؟
قام مختار ومسح دمعة طفرت من عينه وقال :
ـ يبدو أنه ...
لم يستطع اتمام الجملة ، وفى حركات عصبية أخذ شريف يهز عبد الحميد وكأنه ساعة توقفت عن العمل ، ثم باس جبهته عدة مرات وغادر الغرفة .
بدا مختار كالمذهول ، تتحرك يداه حركات لا إرادية وأخذ يغمغم قائلا :
ـ لماذا مات ؟ هذا غير معقول . كان يكلمنى مساء أمس . هل يموت الإنسان بهذه السهولة ؟ كان سعيدا عندما طلبت منه أن يسكن معى فى الشقة الجديدة . أنا لا أصدق أنه ميت . لابد أنه نائم . انه يبتسم ، لابد أنه كان يحلم . لقد عثر على الوظيفة التى طالما تمناها . أخذ يناديه قائلا :
ـ عبد الحميد ، عبد الحميد ، قم اقبض الخمسة جنيهات .
عاد شريف ومعه ملاءة غطى بها عبد الحميد من رأسه إلى القدم قائلا :
ـ لا فائدة يامختار ، عبد الحميد فارق دنيانا .

ـ ٤١ ـ

انتهى شريف من تأثيث شقتهما الجديدة هو ومريم . كانت فى الدور الرابع من عمارة جميلة بشارع الملك قرب اتصاله بشارع الملكة نازلى ولا تبعد كثيرا عن شقة مختار الجديدة . فى المساء ، بعد عشرة أيام من وفاة عبد الحميد غريب ، كان شريف فى زيارة لمريم وكان مختار جالسا بمفرده فى الشقة بحارة البحرى يكتب قصيدة رثاء لعبد الحميد وظل فى انتظار عودة شريف ليقرأ عليه القصيدة ، ولكنه عدل عن فكرة قراءتها لشريف ، فلقد رأى أنه من غير اللائق أن يقرأ عليه قصيدة رثاء وهو عائد لتوه من منزل خطيبته والفرحة تملأ قلبه .

بعد فترة قصيرة دخل شريف وقال لمختار :

ــ سأعمل لنفسى فنجان شاى . هل ترغب أنت أيضا فى فنجان ؟

ــ أجل . مع الشكر

عمل شريف فنجانين من الشاى . أعطى لمختار أحدهما وجلس بالقرب منه يحتسى فنجانه . قال بعد فترة تفكير :

ــ أنا مقبل على تغيير فى حياتى يحتاج لوقت طويل حتى أتكيف معه . فلقد أَلِفْتُ الحياة معك . ولكن ما باليد حيلة . سننتقل الأسبوع القادم إلى شقتنا الجديدة .

أبدى مختار سروره بهذا النبأ على الرغم من الألم الذى اعتمل فى أعماقه وقال متظاهرا بالبهجة :

ــ ألف مبروك . أتمنى لكما السعادة من صميم قلبى .

ــ هذه سنَّة الحياة . كل شىء يتغير . ويؤلمنى أن أتركك هنا بمفردك .

ــ على أية حال سأنتقل قريبا أنا أيضا إلى الشقة الجديدة .

ــ سأزورك هناك إن شاء الله .

أطرق مختار للأرض وسادت فترة صمت ثم قال دون أن يرفع رأسه وكأنه يحدّث نفسه :

ــ سأشعر بوحدة قاسية .

ــ وماذا نصنع ؟ إنها إرادة الله . كنت أتمنى أن تكون أنت أيضا مع عروسك درية . ولكن يبدو أنها لا نصيب لها فى الطيب . على أية حال . الإنسان لا يستطيع معرفة الغيب . عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . ألم تفكر فى الزواج من فتاة أخرى طيبّة تنسيك التفكير فى درية ؟.

ــ لا . لم أفكر فى أية فتاة أخرى .

بعد نحو ثلاثة أسابيع ذهب مختار لزيارة عروس شريف فى شقتها وأبدى إعجابه بالشقة وحسن تنسيقها . قال شريف لمريم .

ــ مختار هو أيضا انتقل إلى شقة جميلة وأثثها أثاثا رائعا . فهو معروف بارتفاع مستوى تذوقه الفنى .

قالت مريم :

ــ لابد أن يكون على درجة عالية من التذوق الفنى والإحساس بالجمال فاختياره لدرية يدل على ذلك ، إنها فى منتهى الجمال .

استاء شريف من ملاحظة مريم هذه فقال ممتعضا :

ــ ماهذا يامريم ؟ ما الداعى لمثل هذا الكلام الآن ؟.

ــ أنا لم أقل شيئا يغضبه . إننى أمتدح ذوقه .

قال مختار :

ــ الحديث عن درية لا يضايقنى ، بل على العكس . أحب سماع اسمها . لست غاضبا منها . كل شىء قسمة ونصيب .

قالت مريم :

ـ أنا فى الحقيقة قلت هذا لأطلعكم على آخر الأخبار.
قال مختار محاولا إخفاء لهفته على معرفة تلك الأخبار :
ـ وماهى آخر الأخبار ياترى ؟.
ـ سعد خطب درية .
شحب وجه مختار وبذل كل جهده لإخفاء حقيقة مشاعره فقال متظاهرا بعدم الاكتراث :
ـ كنت أتوقع سماع هذا الخبر فى أية لحظة .
قال شريف :
ـ متى حدث ذلك ؟ لم تذكرى لى شيئا عنه .
قالت مريم :
ـ منذ يومين زارهم فى بيتهم وتقدم لخطبتها .
قال شريف :
ـ وهل وافقوا على طلبه ؟.
ـ لا ، لم يوافقوا .
قال مختار بهدوء محاولا إخفاء الانفعالات المسجونة فى رأسه :
ـ ولماذا لم يوافقوا ؟ ألم تقل لكِ إنها تفضل سعدا لأنه مرشح للسفر فى بعثة ؟.
ـ هذه هى المأساة ؛ فلقد اتضح لها أن موضوع البعثة لم يكن سوى مجرد إشاعة .
قال مختار وكأن الأمر لايعنيه :
ـ هكذا ؟.
وقال شريف :
ـ ومن أجل هذا رفضته ؟.
قالت مريم :
ـ أجل ، لم تعد له أية ميزة فى نظرها . إنها تتوق للسفر إلى الخارج .
قال شريف :
ـ شىء عجيب ، أعتقد يامختار أن عدم زواجك من بنت كهذه يدل على أن الله يحبك .
غمغم مختار قائلا :
ـ الغريب أننى مقتنع بأن لدرية بعض الصفات السيئة ، ولكن على الرغم من ذلك مازلت أحبها وعجزت عن نسيانها .
صاحت مريم قائلة :
ـ أسمعت ياشريف ؟ هذا هو الحب .
قال شريف متجاهلا ملاحظة مريم وموجها حديثه لمختار :
ـ لو كنت فى مكانك لاحتقرتها ولما شغلت فكرى بها لحظة واحدة .

قالت مريم :

ـ لم يبق سوى حسين ، والشيء الذى يضايقها هو أنه لم يذهب لخطبتها حتى الآن .

قال شريف :

ـ لكى ترفضه هو أيضا .

قال مختار :

ـ من يدرى ؟ قد يكون هو الشخص الذى تريده .

قالت مريم :

ـ أنا متأكدة من أنها سترفضه هو أيضا لو تقدم لخطبتها . وعلى الرغم من ذلك فهى تتمنى أن يذهب ليطلب يدها . لقد عَرَفْتُ درية معرفة كافية .

قال شريف :

ـ هذه البنت ستعيش طوال عمرها بلا زواج .

قالت مريم :

ـ لا ، أنا متأكدة من أنها ستتزوج . ألم تسمع ماقاله مختار ؟ قال إنه يعترف بصفاتها السيئة ومع ذلك يحبها . ستجد كثيرين يحبونها . عديد من البنات السيئات يتزوجن وبنات فضليات رائعات لا يعيرهن أحد أىَّ اهتمام .

قال شريف :

ـ لذا يقولون إن الحب أعمى .

قالت مريم :

ـ الحب ليس أعمى . على العكس . الحب ليس به سوى عيون .

قال شريف :

ـ ماذا تقصدين بهذا ؟

ـ ليس الحب أعمى ، بل أهبل ، غبى . للحب عيون ولكن لا عقل له .

قال مختار :

ـ عجيب أن أسمع منك هذا الكلام وأنا أعرف أن شريفا أحبك حبا عظيما .

قالت مريم :

ـ شريف لا يستطيع أن يحب حبا عظيما . ألم يقل إنه لوكان فى مكانك لاحتقر درية ولم يفكر فيها ؟.

قال شريف :

ـ هذا لأن حبى ليس أهبل ولا غبيا ، حبى له عقل .

قالت مريم :

ـ الحب ذو العقل لا يمكن أن يكون حبا كبيرا .

شعر مختار بأن الحوار بين شريف ومريم قد بدأت ترتفع درجة حرارته فخشى أن يلتهب فقال محاولا تغيير مجرى الحديث :

ـ هل شاهدتم فيلم عبد الوهاب الجديد ؟.

قالت مريم :

ـ دموع الحب ؟ لا ، لم نشاهده .

ـ إنهم يعيدون عرضه ، وأرجو أن تتقبلا دعوتى لكما لمشاهدته غدا . ألديكم مانع ؟.

قال شريف :

ـ لا مانع لدينا ، مع جزيل الشكر .

وهم خارجون من دار السينما فى طريقهم لركوب الأوتوبيس قال مختار :

ـ هل أعجبكم الفيلم ؟.

قالت مريم :

ـ فيلم جميل ولكنه محزن .

قال شريف :

ـ أنا شخصيا أميل إلى الأفلام ذات النهاية السعيدة .

قال مختار :

ـ ليس كل مافى الحياة ينبغى أن تكون نهايته سعيدة ، لقد أعجبنى الفيلم ، إنه مقتبس من رواية كنت قرأتها منذ سنوات اسمها « ماجدولين أو تحت ظلال الزيزفون » .

ضحكت مريم وقالت :

ـ الزيزفون ؟ ! وما هو الزيزفون هذا ؟.

قال مختار :

ـ نوع من الأشجار .

قالت مريم :

ـ هل تحب الأفلام الحزينة يا أستاذ مختار ؟.

قال مختار :

ـ يحتاج الإنسان أحيانا لشىء من الحزن .

قالت مريم :

ـ ولماذا يحتاج الإنسان لمزيد من الحزن ؟ ألا تكفيه أحزان الحياة ؟.

قال مختار :

ـ عندما يكون الإنسان حزينا يشعر ببعض الراحة النفسية عندما يرى أحزان غيره من البشر .

قال شريف :

ـ لابد من بعض الأحزان ليصبح للحياة طعم .

قالت مريم :

ـ ولماذا لا تكون الحياة سعادةً وأفراحا ؟.

قال شريف :

ـ هل تستسيغين أكل الملوخية بدون ملح ؟.

قال مختار :

ـ الحزن قد يكون سببا للفرح .

قالت مريم بدهشة :

ـ كيف ؟.

ـ ألا يشعر الإنسان بالفرحة عندما تزول أسباب الحزن ؟.

كانوا قد وصلوا إلى ميدان العتبة الخضراء فوقفوا ينتظرون قدوم الأوتوبيس . قال شريف :

ـ قل لى يامختار ، ماذا تفعل فى مشكلة الطعام وأنت بمفردك فى الشقة ؟.

ـ صاحبةُ البيت تسكن فى الشقة التى تحت شقتى ، أعطيها كل يوم خمسة قروش صاغ لشراء الطعام وإعداده ، تعد لى لحما بالدمعة وخضارا وأرزا أو مكرونة وسلاطة خضار وسلاطة طحينة وفاكهة ، ويتبقى من الخمسة قروش فى معظم الأحيان مليمان أو ثلاثة تقول لى اشتر بها ليمونا .

قالت مريم :

ـ أى أن الطعام يكلفك نحو جنيه ونصف فى الشهر .

ـ أجل ، هذا بالإضافة إلى نحو عشرين قرشا فى الشهر اشترى بهم الجبن الرومى والحلاوة الطحينية والبيض والزيتون والبسطرمة .

قال شريف :

ـ نحن أيضا ننفق فى بند الطعام مثل هذا المبلغ .

قالت مريم :

ـ بكم تشترى أقة اللحم ؟.

ـ بستة قروش .

ـ نحن نشتريها بخمسة قروش . والدجاج والحمام بكم تشتريهم ؟.

ـ زوج الحمام بخمسة وعشرين مليما ، والدجاجة الكبيرة بستة قروش .

ـ والبيض ؟.

ـ البيضة بمليم .

ـ نحن نشترى الست بيضات بخمسة مليمات ، يبدو أن المكان الذى تسكن فيه مرتفع الأسعار .

أقبل الأوتوبيس وكان شبه خال فاستقلوه وانطلق بهم نحو حدائق القبة .

- ٤٢ -

أوشك شهر مارس على الانتهاء ، وتذكر مختار أنه فى مثل هذه الأيام رأى درية لأول مرة فى حديقة الأندلس ، لقد دارت الأيام وازدحمت فى ذهنه ذكريات معظمها شديد المرارة . كان جالسا فى غرفة المعيدين يفحص إحدى الحشرات المائية تحت الميكروسكوب وتوالت الذكريات التى يراها بعين خياله فى لقطات لا تخضع للتسلسل الطبيعى للزمن مختلطة بما يراه تحت الميكروسكوب . كان شريف قد غادر الغرفة ولم يعلم مختار وجهته ، فقام وفكر فى الذهاب إلى نادى الكلية لتناول إحدى الشطائر . ولكنه بعد أن وصل إلى النادى وشاهد سعدا جالسا فى أحد أركانه يتناول غداءه ، غير خط سيره وخرج من الباب الخلفى للكلية متجها نحو منزله لتناول الغداء الذى أعدته له صاحبة البيت مفضلا العزلة التى أصبح يميل إليها .

فى أثناء تناول سعد طعامه مر بالقرب منه حسين دون أن ينتبه لوجود سعد ناداه سعد ، فتوقف حسين ناظرا إلى سعد الذى قال :

ـ أريد التحدث معك بضع دقائق .

جلس حسين حول المائدة التى يجلس عندها سعد وقال :

ـ خيرا ، ماذا تريد أن تقول ؟.

ـ لا أحب أن ينتهى العام الدراسى وفى نفس أحدنا أى شعور غير مريح تجاه الآخر .

ـ ليس فى نفسى أى شعور سيئ نحوك فلا شىء يدعو لذلك .

قال سعد بعد لحظة تفكير :

ـ أقصد فيما يتعلق بمسألة درية . لقد عدلت عن التفكير فى خِطبتها وخطبت فتاةً أخرى .

ـ ولكننى علمت أنك تقدمت لخطبتها ورفضوا طلبك .

أحمر وجه سعد ووقفت اللقمة فى حلقه فشرب جرعة ماء ولاذ بالصمت ناظرا نحو سطح المنضدة . قال حسين :

ـ على أية حال مبروك ، ومن هى الفتاة التى خطبتها ، هل هى من الكلية ؟.

ـ لا ، ليست من الكلية ، إنها ابنة لواء فى الجيش ، وعقدنا العقد .

ـ بالتوفيق إن شاء الله . مبروك .

ـ الله يبارك فيك . وماذا تنوى أنت ، أما زلت مصمما على درية أم تفكر فى نبيلة ؟.

ـ لا أفكر فى درية ولا فى نبيلة ، درية هى التى تفكر فىَّ .

قال سعد وقد شعر بشىء من الألم :

ـ كيف ؟.

ـ هل تصدق أن والدتها زارتنا فى بيتنا ؟.

ـ غير معقول ، متى حدث ذلك ؟.

ـ من حوالى أسبوع .
ـ وبأية مناسبة ؟.
ـ جاءت خصيصا لتطلب منى الابتعاد عن ابنتها لأننى ، كما تدَّعى ، أشغل تفكيرها بمسألة الزواج !.
ـ شىء عجيب . وهل هذا صحيح ؟.
ـ بل محض افتراء ، فلقد ابتعدت عنها منذ مدة طويلة ولم أحاول التحدث معها على الإطلاق ، حتى المجموعة التى هى فيها استبدلت بها مجموعةً أخرى ولم أر وجهها منذ أكثر من شهر .
ـ إذا كان الأمر كذلك فأعتقد أن أمها زارتكم لتحثك على خِطبتها .
ـ ليس هذا بمستبعد ، ولكننى حسمت الموضوع وسأتزوج من خارج الكلية ، إنها فتاة من الإسكندرية .
ـ خيرا تفعل ، درية ركبها الغرور .

عندما عاد مختار إلى البيت وجد خطابا فى صندوق البريد ، فتحه بلهفة فوجده من والده يخبره بأن محمودا شقيق مختار مريض واحتار الأطباء فى علاجه بمدينة الزقازيق ، وسوف يحضر للعلاج بالقاهرة بصحبة والدته وشقيقته فاطمة .

حزن مختار لمرض أخيه ، ولكنه فى الوقت ذاته فرح لقدومهم . ذهب إلى المحطة لانتظارهم فى القطار الذى أشار إليه والده فى الخطاب . عندما رآهم يهبطون من القطار أسرع إليهم وساعدهم على النزول .

كانت بصمات الحزن واضحة على وجهى الأم وفاطمة ، وبدا محمود هزيلا شاحب الوجه يسير بصعوبة مستندا على ذراع فاطمة ، فأمسك به مختار وسار معه ببطء واستقلوا تاكسيا اتجه بهم نحو بيت مختار .

أسرع مختار بشراء سرير لمحمود وسرير لوالدته وشقيقته فاطمة ، وأصرت والدته على إعطائه ثمن الأَسِرّة والمراتب وغيرها ، وعندما انفرد بوالدته سألها عن مرض محمود فقالت :
ـ لا أحد من الأطباء فى الزقازيق تمكن من معرفة حقيقة مرضه ونصحوا بعلاجه هنا .
ـ ومن سيعالجه ياترى ؟ هل ذكروا اسم طبيب بالذات ؟.
ـ بعض أصدقاء والدك اقترحوا علاجه عند الدكتور جعفر ، وقالوا إنه سيلزم عمل تحاليل طبية .
ـ سأتصل بالدكتور جعفر ليحضر للكشف عليه وسننفذ ما يأمر به .
بكت الأم وقالت وهى تجفف دموعها :
ـ أنا خائفة عليه .
ـ إن شاء الله سيشفى ، الله هو الشافى .
ـ لو شفاه الله سأصوم الستة البيض طوال حياتى .

تولى الدكتور جعفر علاج محمود ، وفى خلال نحو شهر بدأت حالته تتحسن وسمح له بتناول أنواع من الطعام لم يكن أطباء الزقازيق يسمحون له بتناولها . فرح عندما علم أنه سيأكل اللحم والدجاج والبيض ، وجلس مختار جنبه يحدثه عن قرب شفائه وعن الأماكن التى سيزورها فى القاهرة عندما يسمح

له الطبيب بالخروج من البيت ، سوف يأخذه إلى دور السينما وحديقة الحيوان وإلى أماكن أخرى كثيرة .
ضحك محمود ضحكة لا إرادية من فرط الفرح وقال :

ـ أحقيقةً ؟ أنا لا أصدق أننى سأعود كما كنت

ـ ستعود أحسن مما كنت .

ـ ليتك تشترى راديو يسليني .

ـ سأشترى لك راديو .

عمت الفرصة البيت عندما اشترى مختار الراديو ، إذ لم تقل فرحة فاطمة عن فرحة محمود به . بعد نحو أسبوع ، بينما الجميع منصتون لأغنية « عينىَّ فيها الدموع » لأم كلثوم انقطعت إذاعة الأغنية فجأة . قالت فاطمة :

ـ لماذا قطعوا إذاعة هذه الأغنية الحلوة ؟.

قال مختار :

ـ لست أدرى .

انبعث من الراديو صوت المذيع يقول :

ـ ألقى الملك جورج السادس ملك بريطانيا كلمة فى الراديو أعلن فيها الحرب على ألمانيا ...

وقال الملك فى حديثه إن انجلترا كانت قد أنذرت ألمانيا بإعلان الحرب عليها لو غزت بولندا ، وتجد انجلترا الآن نفسها مضطرة لتنفيذ هذا الإنذار بعد إقدام ألمانيا على هذا الغزو ، إذ أن بريطانيا لا تستطيع البقاء مكتوفة اليدين حتى تلتهم ألمانيا جميع دول أوربا دولة بعد أخرى ..

وأذيعت عقب ذلك موسيقى عسكرية . قالت فاطمة بذعر شديد :

ـ أعلنوا الحرب ؟ إنها مصيبة .

ثم أذاعوا بعد ذلك نص حديث الملك جورج باللغة الإنجليزية ، ولاحظ مختار أن صوت الملك تهدج عندما قال إن انجلترا تجد نفسها مضطرة لتنفيذ هذا الإنذار .

بعد أيام ، بينما كانت فاطمة مطلة من النافذة رأت شيئا غريبا لم تدرك معناه ، صاحت قائلة :

ـ يامختار ، تعال لترى ماذا يفعلون .

هرع مختار إليها ونظر من النافذة ورأى ما رأته فقال :

ـ إنهم يدهنون فوانيس النور باللون الأزرق حتى لا يستطيع الطيارون رؤية المدينة فى أثناء الغارات الجوية .

قالت فاطمة بدهشة :

ـ الغارات الجوية ؟ وماهى هذه الغارات الجوية ؟.

ـ عندما تأتى الطائرات لتضربنا بالقنابل .

سرى الرعب فى جسد فاطمة وقالت :

ـ ولماذا يضربوننا بالقنابل ؟ ماذنبنا ؟.

ـ وربما يلقون علينا أيضا غازات سامة ، ولذا فلقد طلبوا من المواطنين ضرورة الذهاب إلى أقسام البوليس لاستلام الكمامات الواقية من الغازات السامة .

ـ وهل لو لبسنا هذه الكمامات لا تقتلنا الغازات السامة ؟.

ـ الكمامات تحمينا من هذه الغازات .

كان نوم فاطمة فى تلك الليلة يقطعه الأرق وتصله الكوابيس ، فكان فزعها فى النوم لايقل عن رعبها . فى اليقظة . كانت تتوقع وصول الطائرات فى أية لحظة لتلق قنابلها على المدينة ، ولكن عندما مرت الأيام ولم تحدث أية غارة جوّية بدأ رعبها يخف تدريجيا إلى أن تلاشى . ذات يوم قالت لمختار :

ـ أريد أن أسألك سؤالا يامختار .

ـ خيرا يافاطمة ، ماهو السؤال ؟.

ـ منذ حضورى إلى هنا ولى رغبة فى سؤالك هذا السؤال ولكننى خجلانة .

ـ لابد أنه سؤال خطير ، ماهو ياترى ؟.

ـ من هذه البنت الحلوة التى تضع صورتها فوق المكتبة ؟.

ضحك مختار وقال :

ـ هل هذا هو السؤال الذى خجلتِ من توجيهه لى منذ حضورك ؟.

ـ أجل ، ووالدتى أيضا كانت تود سؤالك عن الشىء نفسه .

ـ المسألة لا تستحق كل هذا الاهتمام . كانت الكلية قد أقامت معرضا علميا لنشر بعض الثقافة العلمية بين الجماهير ، وأشرف على هذه التجارب أساتذة الكلية وبعض الطلبة والطالبات ، وانتشر المصورون فى أنحاء الكلية يسجلون هذا النشاط العلمى ، وهذه صورة لإحدى هذه التجارب وظهرت هذه الطالبة فى الصورة . كانت هناك صور كثيرة فاخترت منها هذه الصورة تذكارا للمعرض .

ـ هل عندكم فى الكلية بنات بهذا الجمال ؟ هذه البنت جميلة جدا ، هل تعرف اسمها ؟.

ـ أجل ، اسمها درية .

ـ ولماذا اخترت صورة هذه البنت ؟ لابد أنها أعجبتك .

ـ بالصراحة ، أعجبتنى .

ـ لقد أحبها قلبى عندما رأيت صورتها ، لماذا لا تخطبها مادامت تعجبك ؟.

ـ وهل تعتقدين أننى أستطيع الزواج من أى بنت تعجبنى ؟.

ـ أنت تتزوج ابنة السلطان ، وهل ستجد من هو أحسن منك ؟.

ـ يبدو أن كثيرين أحسن منى .

فى هذه اللحظة انطلقت زمارة الإنذار ، وكانت قد انطلقت قبل ذلك عدة مرات على سبيل التجربة . قالت فاطمة :

ـ أليس هذا صوت زمارة الإنذار ؟.

ـ أجل ، إنها تنذر بغارة جوية .

ارتفعت فى الشارع أصوات تصيح :

ـ اطفئوا النور ، أطفئوا النور .

قال مختار :

ـ لابد من الهبوط إلى البدروم فى المخبأ .

وأردف صائحا :

ـ يانينه ، هيا اهبطا للمخبأ أنت وفاطمة وسأحضر معى محمودا . أسرعوا قبل أن أطفئ النور .

ارتفعت الأصوات مرة أخرى تطلب إطفاء الأنوار . كانت الوالدة وفاطمة قد وصلا إلى المخبأ ، فأسرع مختار بإحضار مفتاح الشقة ثم ذهب إلى محمود فوجده جالسا فى فزع شديد ، يغمغم قائلا :

ـ لا أريد البقاء هنا . أريد الذهاب إلى البلد .

ـ لا وقت لهذا الكلام ، هيا معى يامحمود ، لابد من الذهاب إلى المخبأ .

تعالت الأصوات فى الشارع تنادى :

ـ اطفئ النور . اطفئ النور .

أطفأ مختار أنوار الشقة وأخذ معه محمودا برفق ، وفى أثناء هبوطها السلم دوى صوت أحد المدافع لأول مرة ، إذ أنهم فى الغارات السابقة لم يسمعوا أصوات مدافع أو انفجار قنابل . أحس مختار بخوف محمود على الرغم من الظلام الذى يلتف حولها . صاح محمود بصوت مرتجف :

ـ إنها قنابل .

قال مختار محاولا تهدئة محمود فى حين أنه هو لايقل عنه رعبا :

ـ ليست قنابل ، إنها المدافع المضادة للطائرات تحاول إسقاط الطائرات المغيرة . لا تخف .

دخل مختار بصحبة محمود إلى المخبأ مخترقا الظلام فلم يستطع رؤية والدته أو أخته ، ولكنه عرف مكانهما عندما سمع صوت فاطمة تقول لوالدتها :

ـ هل تقوم الحرب ياربى فى أول مرة أحضر فيها إلى هنا ؟.

قالت الوالدة :

ـ ربما تتوقف الحرب ياابنتى لو تركنا هذا المكان وعدنا إلى البلد .

اتجه مختار ساحبا محمود إلى مصدر الصوت قائلا :

ـ شىء يقرف ، كل ساعة نازلين طالعين .

دوى من جديد صوت المدافع وانبعث من الشارع صوت كلب ينبح .

قالت فاطمة :

ـ أرثى لحال هذا الكلب المسكين الهائم فى الشارع فى وقت كهذا .

قال مختار :

ـ بالصراحة ، أنا أرثى لحالكم أنتم .

قال محمود بصوت ضعيف :

ـ هل ستطول هذه الحرب ؟.

قال مختار :

ـ من يدرى ، قد تستمر شهرين أو ثلاثة .

قالت فاطمة بدهشة وفزع :

ـ هذا غير معقول ، هل نستطيع الحياة فى هذا الرعب ثلاثة شهور ؟.

قالت الوالدة :

ـ لكل شيء آخر.

اشتد صوت المدافع وبدت كما لو أنها تنطلق فوق سطح البيت ، وسُمع صوت الطائرات واضحا . التصق محمود بمختار قائلا :

ـ أنا خائف.

قال مختار وقد أحاط كتفى محمود بذراعه :

ـ لا تخف ، إنها مدافع وليست قنابل .

قال محمود :

ـ وهل المدافع لاتخيف ؟ ألا تنطلق منها قنابل ؟.

شق الظلام من أحد جوانب المخبأ صوت غاضب يقول :

ـ اعملوا معروفا ياجماعة ، لا داعى للكلام ، الطائرات تحوم فوق رءوسنا .

قال مختار :

ـ وهل سيسمع من فى الطائرات أصواتنا ونحن نتحدث هنا فى قاع العمارة ؟.

صاح صاحب الصوت الغاضب قائلا :

ـ لا داعى للكلام الآن ، ليس هذا وقت كلام ، كفى كلاما .

ساد الصمت فترة طويلة . قالت فاطمة :

ـ طالت مدة هذه الغارة ، هل سنبقى هنا حتى الصباح ؟.

قال محمود :

ـ لا أريد البقاء هنا . أريد الذهاب إلى البلد .

قال مختار :

ـ لا تخف ، لقد توقف إطلاق المدافع منذ فترة طويلة ، الغارة على وشك الانتهاء .

قالت الوالدة :

ـ ولماذا إذن لا تنطلق زمارة الأمان .

فى هذه اللحظة انطلقت زمارة الأمان التى لم تكن تتوقعها فاطمة فانتفضت وندت منها صرخة خوف خافتة . قال لها مختار :

ـ مابك يافاطمة ؟ لماذا فزعت هكذا ؟ إنها زمارة الأمان . انتهت الغارة يامحمود .

أضيء المخبأ وبدأ الناس يرون بعضهم حدثت ضجة وهمهمة ، وسحب الرجال والنساء أطفالهم وغادروا المخبأ وصعد مختار بصحبة محمود وخلفهما الوالدة وفاطمة . فتح مختار الباب ودخلوا . قال مختار لمحمود :

ـ هل ارتحت الآن يامحمود ؟.

ـ لا ، إننى خائف من الغارة القادمة .

ـ ٤٣ ـ

كان مختار يرتدى ملابس الخروج استعدادا للذهاب إلى الكلية ، ومحمود نائما فى سريره يستمع إلى الراديو الموضوع على المنضدة بالقرب من السرير ، والوالدة وفاطمة فى المطبخ . قالت فاطمة وهى تقلى البيض :

ـ يخيل إلىّ أن فى صدر مختار حزنا يكتمه عنا ولا يبوح به لأحد . فهو كعادته ، لا يحب الشكوى من أى شىء .

قالت الوالدة وهى تعبئ المربى فى برطمانات :

ـ قد يكون غير مرتاح لوجودنا معه .

قالت فاطمة بدهشة واستنكار :

ـ مختار لايرتاح لوجدنا معه ؟ وهل هذا معقول ؟ على العكس ، أعتقد أن وجودنا معه يخفف أحزانه . أمس أبدى محمود رغبته فى السفر إلى البلد وظل مختار يقنعه بضرورة البقاء ولم يتركه إلا بعد أن غيّر رأيه وعدل عن فكرة السفر .

ـ وكيف عرفتِ أنه حزين مادام لم يُطلع أحدا على أسراره ؟.

ـ كلما دخلت غرفته وجدته ساهما وكأنه فى دنيا غير الدنيا ، وأصبح ميالا للعزلة والصمت . مختار لم يكن هكذا .

ـ اسأليه عن سبب حزنه .

ـ يخيل إلىّ أن باله مشغول بالبنت صاحبة الصورة الموضوعة على المكتبة ، يقول إن اسمها درية .

ـ درية ؟ هل سألتيه عنها ؟!.

ـ أجل ، علمت منه أنها بنت عندهم فى الكلية ، ولما استفهمت منه عنها شحب لونه وتلعثم ، وأمس عندما دخلت غرفته لأغيّر ملاءة السرير وجدته ممسكا بالصورة يتأملها ، ولما رآنى أسرع بدسّها تحت المخدة .

ـ لو كان فكره مشغولا بشىء كهذا لما أخفاه عنا ، مختار لا يفكر فى مثل هذه الأشياء .

أدرك مختار أنه تأخر عن الكلية فأسرع إلى المطبخ لتناول فنجان من الشاى . دخل فى أثناء حديث الأم وفاطمة اللتين فوجئتا برؤيته فقال :

ـ ماذا تقولان ؟.

تورّد وجه فاطمة وخشيت أن يكون قد سمع حديثهما ، وعلى الرغم من معرفتها أنه ذاهب إلى الكلية كعادته وجدت نفسها تقول :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟.

ـ إلى الكلية طبعاً يافاطمة .

ماكاد مختار يغادر البيت حتى سمعت الأم أنينا منبعثا من غرفة محمود فأسرعت إليه وهرولت فاطمة خلفها . سألته الأم بلهفة :

ـ مابك يامحمود ؟ مابك ياحبيبى ؟.

ـ بطنى تُوجِعُنى وجعا شديدا .

ـ بمجرد عودة مختار سأطلب منه أن يستدعى الطبيبِ . سأغلى لك الآن بعض النعناع .

كان مختار جالسا فى شرفة نادى الكلية عندما أقبل شريف وفى يده خطاب سلّمه لمختار قائلا :

ـ هذا خطاب مرسل إليك وجدته فى إدارة الكلية .

اختطف مختار الخطاب بلهفة ونظر إلى المظروف محاولا معرفة المرسَل منه ولكنه لم يجده مكتوبا . فتح المظروف وما كاد يقرأ بضعة أسطر حتى لاحظ شريف شحوب وجه مختار فسأله :

ـ ماذا فى الخطاب ؟ لماذا اصفرَّ وجهك ؟.

ـ إنه خطاب عجيب ؛ لن يخطرَ مُرسلُه على بالك .

ـ من مرسله ؟.

ـ والد درية .

قال شريف بدهشة :

ـ والد درية ؟ ! وماذا يقول ؟.

ـ يقول إنه يرغب فى رؤيتى ، ويدعونى لزيارتهم لأنه هو صاحب الرأى فيما يختص بزواج درية . وأننا حتى الآن لم نتحدث معا فى هذا الموضوع .

ـ مامعنى هذا الكلام ؟.

ـ لست أدرى .

ـ وماذا ستفعل ؟.

ـ مارأيك أنت ؟.

ـ قابله لتعرف ماذا يريد .

ـ هل تظن أن درية على علم بهذا الخطاب ؟.

ـ يخيل إلىَّ ذلك ، إذ ليس من المعقول أن يرسل أبوها خطابا كهذا دون معرفة رأيها .

ـ وما الذى جعلها تغير رأيها ؟.

ـ سعد رفضوا طلبه وخطب فتاة غيرها وحسين لم يتقدم لها وخطب غيرها هو أيضا ، ولم يبق سواك .

ـ هل تعتقد أننى لو زرتهم سيوافقون على خِطبتى فى هذه المرة ؟.

ـ هذا هو التفسير الوحيد المعقول .

عندما عاد مختار إلى البيت للغداء فوجئ بازدياد وطأة المرض على محمود . نسى كل شىء عن الخطاب واستدعى الدكتور جعفر الذى حضر بعد نحو نصف ساعة . كتب علاجا . فأسرع مختار بشرائه من أقرب صيدلية ، وبعد نحو ساعتين هدأ المغص وعادت الابتسامة إلى وجه محمود وبدأ يستمع إلى الراديو .

تذكر مختار الخطاب الذى وصله من والد درية ، فاعتكف فى غرفته وأخذ يقرؤه من جديد ويعيد قراءته .

ترى هل أذهب لزيارتهم ؟ لابد من ذلك ، إذ لا ينبغى أن أعتمد على آراء وأفكار خال درية . يقول والدها فى خطابه أنه هو صاحب الرأى . لدىَّ شعور بأن المسألة ستتم اليوم على أحسن وجه .

خرج من البيت ولم يخبر أحدا بوجهته . مرَّ عليه تاكسى خالٍ فناداه واستقله . شعر بنشوة مشوبة بقلق وهو منطلق نحو بيتها . عندما ضغط على زر الجرس فتحت له الباب مشيرة التى فرحت عندما رأته وقالت :

ـ بابا موجود فى هذه المرة ، تفضل .

قادته إلى غرفة الصالون التى جلس فيها فى المرة السابقة وجلس على الكرسى الذى سبق أن جلس عليه . تركته وأسرعت لإخطار العائلة . شعر برهبة وأخذ يتصور منظر والد درية تصوره طويل القامة نحيلا أحمر الوجه أخضر العينين كثيف الشارب ، ولكن عندما دخل الغرفة وجده أميل إلى القصر حليق الشارب أسود العينين أقرب إلى البدانة . قال :

ـ أهلا وسهلا ياأستاذ مختار .

ـ أهلا بك .

جلس الوالد فجلس مختار . قال الوالد :

ـ شرفت وآنست .

تبخرت الرهبة التى كان يشعر بها مختار عندما سمع هذه الجملة وقال :

ـ متشكر .

قال الوالد :

ـ أنا متأسف إذ لم يسعدنى الحظ برؤيتك عندما شرفتنا فى المرّة السابقة ، كنت مسافرا ، الذى قابلته هو خال درية ، ورأيه بطبيعة الحال لا يعبر عن رأيى . ماذا قال لك ؟ أخشى أن يكون قد جرح شعورك .

شعر مختار بمزيد من السعادة والاطمئنان وقال :

ـ لا ، لم يجرح شعورى ، كل ماحدث هو اعتراضه على مرتبى ، قال إنه لايكفى لفتح بيت .

قال الوالد بانفعال :

ـ لا حق له فى هذا الاعتراض . لماذا يقول لك مثل هذا الكلام ؟ كل إنسان يبدأ صغيرا ثم يكبر. أرجو ألا تكون قد تضايقت أو تأثرت من كلامه .

أطرق مختار إلى الأرض ولزم الصمت . فأردف الوالد قائلا :

ـ أنا فى الحقيقة رغبت فى رؤيتك لأشكرك على عنايتك واهتمامك بدريّة فى الكلية لقد اقترب الامتحان ودرية تطمع فى الحصول على مجموع كبير.

ـ درية مجتهدة وممتازة فى دراستها .

قال الأب وكأنه يحدث نفسه :

ـ لماذا لم تأت ؟.

ثم رفع صوته مناديا :

ـ يادرية . درية ..

ـ نعم يابابا .

ـ لماذا لم تحضرى لتسلمى على أستاذك ؟.

ـ ثم التفت إلى مختار وقال :

ـ درية مصممة على استكمال دراستها .

دخلت درية مبتسمة متألقة واتجهت نحو مختار وصافحته قائلة :

ـ أهلا وسهلا .

ـ أهلا بك .

جلست بالقرب من مختار . واستطرد والدها قائلا :

ـ مسألة الزواج ياابنى قسمة ونصيب . وعلى الرغم من أن لسان درية يلهج بالثناء عليك لاهتمامك بها ، إلا أنها غير متحمسة للزواج فى الوقت الحالى .

دخلت الخادمة حاملة صينية القهوة . أخذت درية فنجانا وضعته أمام مختار وآخر قدمته لوالدها وغادرت الغرفة . استأنف الأب حديثه قائلا :

ـ كنت أقول إن كل اهتمامها الآن مُنصب على الدراسة والرغبة فى التفوق . إنها بنت طموحة ، تود الحصول على أعلى الشهادات .

كانت الصدمة قاسية على مختار الذى بذل مجهودا عنيفا ليبدو متماسكا . قال بصوت ضعيف :

ـ لن يتعارض الزواج مع الدراسة .

ـ الزواج له مشاغله ومشاكله ، وهى لاتود أن يشغلها أى شىء عن الدراسة .

قال الأب وقد لاحظ شحوب وجه مختار :

ـ أرجو ياابنى ألا يكون لهذه المسألة أى تأثير على رعايتك لها فى الكلية ، إنها لاتحب أن يكون هذا الموضوع سببا فى أى سوء تفاهم بينكما قد يؤثر على درجات العملى فى مادة علم الحيوان ، ألست أنت الذى تقدر درجات الامتحان العملى ؟.

شعر مختار وكأنه تلقى صفعة قوية أوشكت أن تطيح بصوابه . وود لو يترك البركان الذى يغلى فى أعماقه يقذف بحممه ليخف الضغط عن رأسه الذى أوشك أن ينفجر . ولكنه تمالك نفسه ليبدو هادئا وقال :

ـ إذا كنت أرسلت لى هذا الخطاب لتطمئن على درجات درية فى الامتحان فأرجو أن تكون مطمئنا من هذه الجهة كل الاطمئنان . فالمعيدون لايصححون أية أوراق امتحان . لا نظرى ولا عملى . الذى يتولى هذه المهمة هم أعضاء هيئة التدريس . وحتى لو كنت أنا الذى أقدّر لها درجات الامتحان العملى فأرجو أن تعلم سعادتك جيدا أن أى سوء تفاهم بينى وبين أى طالب أو طالبة لا تأثير له إطلاقا على تقدير درجاته . كل طالبة أو طالب ينال ما يستحقه من درجات بصرف النظر عن أى اعتبار آخر .

قال الأب وقد شعر بشىء من الخجل :

ـ على أية حال ، كل ما يهمنى ألاّ تكون غاضبا أو متأثرا ، والزواج ياابنى قسم ونصيب ، لا أحب أن تغضب من درية فهى محتاجة لرعايتك .

ـ درية طالبة مجتهدة وليست فى حاجة لرعايتى أو رعاية غيرى . وإذا احتاجت لأية مساعدة فأنا على أتم استعداد لمساعدتها كما أساعد أىَّ طالب أو طالبة ، عن إذنك .

قام مختار استعدادا لمغادرة المنزل فقال الأب :

ـ إلى أين ؟ لماذا لاتبقى معنا بعض الوقت ؟.

ـ أخى مريض وأريد العودة إلى البيت لأطمئن عليه .

ـ ٤٤ ـ

شعر مختار برغبة شديدة فى زيارة شريف والتحدث معه فى هذا الموضوع الذى لن يستطيع ذكر أى شىء عنه لأفراد أسرته . عندما دق جرس الباب فتح له شريف الذى هاله الحزن البادى على وجه مختار . قال له وهما متجهان نحو غرفة الصالون :

ـ لو لم تحضر لحضرت أنا الليلة لزيارتك فى بيتك . هل زرت درية ؟

غمغم مختار قائلا :

ـ سأقص عليك كل شىء .

شعر شريف بانقباض . ترك مختار ثم عاد إليه ومعه زجاجة مياه غازية فأخذها مختار ووضعها أمامه وقال :

ـ ماذا تظن السبب الذى دفعه لإرسال خطابه ؟.

ـ ماذا ؟.

ـ لايمكن أن يخطر على بالك ولا على بال العفريت الأزرق .

ـ كيف ؟.
ـ لقد أرسل لى ذلك الخطاب لا لشىء سوى رغبته فى الاطمئنان على درية . إنه يخشى عليها منّى .
ـ يخشى عليها منك ؟ مامعنى هذا الكلام ؟.
ـ يتصورون أننى سأضطهدها وأتسبب فى رسوبها فى الامتحان أو أبخسها حقها عند تقدير درجاتها . لقد شعرت بمنتهى المهانة .
ـ هذا غير معقول ، وماذا قلت له ؟.
أطرق مختار نحو الأرض وقال بلهجة يمتزج فيها الحزن والسخرية :
ـ طمأنته .
ـ شىء عجيب . هذا آخر ماكنت أتوقع .
ثم أردف قائلا وكأنه يحدث نفسه :
ـ عدت من عندهم فى هذه المرة أيضا محطّم النفس .
ـ لا ياشريف ، لن تتحطم نفسى أبدا ، لن أفكر فى درية بعد اليوم . سأجعلهم فى يوم من الأيام يندمون على رفضهم طلبى . لا ينبغى أن يُعامل إنسانٌ مثلى هذه المعاملة . لن أذل نفسى لأى إنسان مهما كان .
ـ كل هذا لأنهم رأوك ملهوفا عليها ، تكاد تعبدها .
ـ وهل التفانى فى الحب يقابل بهذه القسوة ؟ هل هذا جزاء المحب المخلص ؟ لقد بدأتُ الآن أشعر بالراحة ، راحة اليأس . الإنسان عندما ييأس يأسا تاما من الحصول على شىء يرتاح . الأمل الكاذب هو الذى يسبب العذاب . كنت أرى شعاعا من الأمل لا وجود له ، من أجل هذا تعبت ، تعبت جدا ، تعبا شديدا فوق طاقة البشر ، ولكن اليوم انتهى كل شىء وشعرت بالارتياح عندما فقدت كل الأمل .
على الرغم من بذل كل ما لديه من طاقة ليبدو قويا حاسما ، إلاّ أن صوته تهدج فى نهاية حديثه .
قال شريف :
ـ تأكد يامختار أنك ستعثر على الإنسانة الجديرة بك وسيندمون على رفضهم طلبك .

ـ ٤٥ ـ

كان القمر بدرا ، ولكن لا أحد ينظر إليه متأملا جمال طلعته كما اعتاد مختار أن يفعل فى قريته ، فالناس فى المدينة ينظرون إلى الأرض أكثر مما ينظرون إلى السماء ، وكان مختار جالسا خلف مكتبه مرتديا (البيجامة) يقرأ أحد البحوث العلمية ويدوّن بعض الملاحظات ، ومن آن لآخر ينظر إلى غصن شجرة يبدو من خلال نافذة غرفته كان يحلو له النظر إليه عندما ينعكس عليه ضوء القمر مختلطا بضوء أزرق خافت يطل بصعوبة من مصباح الشارع .

دخلت فاطمة الغرفة حاملة فنجان شاى لمختار. وضعت فنجان الشاى أمامه. وعند خروجها لاحت منها التفاتة نحو المكتبة فلاحظت اختفاء صورة درية فقالت:

ـ أين الصورة التى كانت فوق المكتبة؟.
قال مختار دون أن يرفع عينيه عن الأوراق التى أمامه:
ـ لم يعد لها لزوم، لقد انتهى معرض الكلية. انتهى كل شىء.
دق جرس الباب فظل مختار جالسا وكأنه لم يسمعه. قالت له فاطمة:
ـ قم يامختار افتح الباب.
ـ أنا مشغول، افتحى أنت، أرجوك.

نظرت فاطمة إلى الملابس التى ترتديها لترى ما إذا كانت لائقة أم لاينبغى أن يراها أحد غريب. استمر رنين الجرس فذهبت وفتحت الباب. سمعها كل من فى الشقة تصيح قائلة:

ـ أهلا وسهلا. هذه مفاجأة سارة.
سمعت فاطمة صوت والدتها تقول:
ـ من يافاطمة؟.
ـ حامد أخى يانينة.
وحامد هو الشقيق الأكبر ويعيش فى القرية ويعمل مدرسا فى المدرسة الثانوية بعاصمة المديرية.
جلس حامد بالقرب من والدته، وأسرع مختار للترحيب به، قال له مختار:
ـ ماذا حدث؟ ما الذى أحضرك هكذا على غير انتظار؟.
قال حامد بعد فترة صمت قصيرة:
ـ الذى أحضرنى شىء مهم لم أنم بسببه طوال الليل.
غمغم مختار قائلا:
ـ يا ساتر يارب.
اتجهت جميع الأنظار. إلى حامد فى فزع وترقب.

قالت الوالدة بلهفة:
ـ ماذا حدث؟.
ـ انتظروا حتى ألتقط أنفاسى.
ثم التفت إلى والدته وقال:
ـ كيف حالك يا نينة؟
ـ الحمد لله، كيف حالكم أنتم؟.
ـ أبى تَعِب.

قالت الأم وفاطمة بلهفة معا :

ـ تعب من ماذا ؟.

ـ بعدكم عنه أتعبه . يقول لنا «هل تسونى أم ماذا؟» . يبدو أن الحياة هنا فى القاهرة أعجبتكم .

قالت الأم :

ـ أنت تعرف يا ابنى أننا لم نحضر إلى هنا للفسحة . ألم نحضر لعلاج محمود أخيك ؟.

ـ وكيف حال محمود الآن ؟.

قال مختار :

ـ الحمد لله . إنه فى تحسن . لقد طمأننا عليه الدكتور عندما رآه آخر مرة .

قال حامد :

ـ ربنا يشفيه .

قالت الوالدة :

ـ آمين يارب .

قال حامد :

ـ أين هو؟.

قالت فاطمة :

ـ نائم .

قال مختار :

ـ إذا كنت التقطت أنفاسك ، خبّرنا عن ذلك الشىء الذى أقلق منامك حتى الصباحْ .

قال حامد وقد أطرق للأرض :

ـ إنها حكاية محزنة .

قالت الوالدة بفزع :

ـ ما هى ؟ تكلم يا ابنى نشَّفتَ ريقّنا وأتعبت أعصابنا .

ـ وصل خطاب من انجلترا ، من عادل .

قالت فاطمة بلهفة وفزع :

ـ ما به ؟ هل جرى له شىء ؟.

ـ ياريت .

قالت فاطمة بدهشة :

ـ ياريت ؟! ماذا جرى ؟.

قال حامد وكأنه يمضغ الكلام :

ـ ياريت الذى جرى ما كان .

قالت الأم بصبر نافذ :

ـ ماذا حدث ؟ تكلم .

ـ حضرته تزوج هناك .

قالت الوالدة غير مصدقة :

ـ تزوج ؟! كيف يحدث هذا ؟ وفاطمة التي عقد قرانه عليها ما مصيرها ؟ ماذا يقول فى خطابه بالضبط ؟.

ـ يقول إنه اضطر ، تحت ظروف قهرية ، إلى الزواج من بنت إنجليزية وإنه لن يستطيع الجمع بين زوجين .

ـ هل يعنى أنه يريد ترك فاطمة :

ارتعشت شفتا فاطمة وكأنها كانت تود أن تقول شيئا ثم آثرت ألاّ تقوله وساد صمت حزين . ثم غمغمت قائلة بصوت متهدج مرتجف :

ـ شعرْتُ بذلك فى الصيف الماضى . فى آخر زيارة لنا .

ثم اختنقت بالبكاء فقامت واعتكفت فى إحدى الغرف . قالت الوالدة :

ـ لقد أضاع منها ثلاثة عرسان .

بللت الدموع عينى مختار وأطرق للأرض مغمغا بكلمات غير واضحة وقالت الأم موجهة حديثها لحامد :

ـ أنت يا ابنى لم تحضر لنا معك سوى الأخبار المحزنة ، ألا يوجد لديك خبر واحد يفرح القلب ؟.

مكث حامد فى القاهرة ثلاثة أيام ، وفى مساء اليوم الرابع بينما كانوا جالسين فى غرفة نوم محمود قال حامد :

ـ أبى طلب منى ألاّ أعود إلى البلد بدونكم يا نينة ، فما رأيك ؟.

ـ أنا أتمنى العودة اليوم قبل الغد ، ولكن المهم صحة محمود ، ما رأيك يا مختار ؟ هل من الممكن أن نأخذ محمودا معنا ونعود للبلد ؟.

ـ أخذْتُ رأىَ الدكتور فى هذه المسألة فقال إن محمودا الآن فى طريقه للشفاء ، ومن الممكن أن يسافر ويواظب هناك على تناول الأدوية التى كتبها له على أن أطلعه أولا بأول على حالته ـ ما رأيك أنت يا محمود ؟ هل تفضل البقاء معى هنا أم السفر إلى البلد مع والدتك ؟.

فى هذه اللحظة انطلت زمارة الإنذار ، فسأل حامد الذى لم يسبق له سماعها :

ـ ماهذا ؟.

قال مختار :

ـ زمارة الإنذار ، تنذر بغارة جوّية .

قال محمود بانفعال :

ـ أريد الذهاب إلى البلد ، لا أريد البقاء هنا .

قبل أن يطفئوا الأنوار ويهبطوا إلى المخبأ بدأت أصوات المدافع تنبعث من جهات متفرقة من المدينة.

قال حامد بفزع:

ـ ما هذا؟ إنها قنابل

قال مختار وهو ممسك بمحمود فى طريقه نحو باب الشقة:

ـ هيا بسرعة يا جماعة نهبط إلى المخبأ.

قالت فاطمة بصوت متهدج:

ـ لن أترك الشقة. سأبقى هنا.

اشتد صوت إطلاق المدافع واهتز زجاج النوافذ، فقال مختار بعصبية:

ـ هيا يا فاطمة اعملى معروفا.

ارتفعت أصوات تنادى:

ـ اطفئوا النور. اطفئوا النور.

أسرع مختار بإطفاء الأنوار قائلا:

ـ يا للمصيبة، نسينا إطفاء النور.

أخذوا يتحسسون طريقهم وهم يهبطون السلم. قال حامد:

ـ أنا لا أستطيع المشى، لا أرى شيئا. أنتم تعيشون هنا فى رعب، ما الذى يبقيكم هنا؟ نحن لا نشعر فى البلد بشىء من هذا، لا مدافع ولا غارات جوية، ولا كأن فى الدنيا حربا.

كانوا قد وصلوا إلى المخبأ عندما قال محمود وقد بدأ يرتجف:

ـ أريد العودة إلى البلد.

قال مختار:

ـ لا تخف يا محمود، ستسافر إلى البلد.

ـ ٤٦ ـ

منذ صباح اليوم التالى بدأ الاستعداد للسفر إلى القرية. استعدت الوالدة وحامد ومحمود الذى بدا سعيدا لمغادرة القاهرة، أما فاطمة فقد ظلت قابعة فى ركن غرفة نومها بدت ساهمة مطرقة للأرض واضعة كفها على خدها سابحة فى بحر من الذكريات التى كانت، فيما مضى، يحلو لها تذكُّرها وتحولت الآن إلى سياط عذاب تتمنى لو تمحى من ذاكرتها. لم تلاحظ دخول حامد غرفتها إلا عندما سمعته يقول:

ـ ما هذا يا فاطمة؟ ألن تسافرى معنا إلى البلد؟.

بوغتت عندما سمعت صوته فالتفتت نحوه ثم عادت إلى الوضع الذى كانت عليه وقالت:

ـ سأبقى هنا مع مختار ، لا أريد أن أتركه وحده .
ـ أطيعينى ، تعالى معنا ، لا يوجد فى البلد «اطفئوا النور» ولا غارات جوية .
ـ من أجل هذا أريد البقاء مع مختار ، لن أتركه وحده فى هذا الجحيم
ـ ولماذا لا يسافر مختار معنا ؟.
عندما سمع مختار اسمه دخل الغرفة . قال له حامد :
ـ لماذا تبقى وحدك هنا يا مختار ؟ أليست الآن فى إجازة الصيف ؟.
ـ لا ، الدراسة ما زالت مستمرة ، وحتى فى إجازة الصيف لن أستطيع السفر إلى البلد .
ـ لماذا ؟.
ـ أنا مرتبط بالبحث الذى أجريه فى الكلية للحصول على الماجستير توجد حشرات أقوم بتربيتها فى الكلية ولابد من ملاحظتها ورعايتها يوميا .
ـ أمِنَ الضرورى أن تمكث هنا من أجل الحشرات ؟ وهل توجد حشرات أكثر من التى عندنا فى البلد ، أنت هناك تشبع حشرات ترعى نفسها بنفسها ولا تحتاج لمن يرعاها .
ـ ولكن لا توجد هناك معامل وأدوات
ـ أنتم الجانون على أنفسكم ، هيا يا نينه ، هيا يا محمود .
ـ سأحضر معكم ونستقل تاكسيا معا حتى باب المحطة لأودعكم .
عندما عاد مختار إلى البيت وجد فاطمة فى المكان نفسه الذى كانت فيه .
قال :
ـ ما بك يا فاطمة ؟ لماذا تضعين يدك على خدك هكذا ؟ لماذا كل هذا الحزن ؟.
قالت فاطمة بصوت مختنق بالبكاء :
ـ دواعيه كثيرة .
ـ لا أحب أن أراك حزينة . أعلم أن ذلك الخطاب الذى ورد من انجلترا هو الذى أحزنك ، لكن تأكدى أن ربنا يعمل ما فيه الخير. إنت إنسانة طيبة وسيكون من نصيبك شخص طيب مثلك .
ـ ليس هذا وحده الذى يحزننى .
ـ وماذا يحزنك غير؟.
ـ أنا حزينة من أجل محمود . كان قلبى يتقطع عندما رأيته اليوم وهو يهبط السلَّم . أنا خائفة عليه .
ـ الدكتور قال إنه يتحسن بسرعة وسوف يشفى إن شاء الله ويصبح على ما يرام . ما رأيك لو نخرج معاً نتفرّج على مدينة الملاهى : أنت لم تخرجى من البيت منذ حضورك .
ـ لا رغبة لدىَّ فى الخروج ، اذهب أنت إذا كنت تريد .
ـ ذهابى من أجلك أنت ، هيا البسى بسرعة .
كانت هذه أولَ مّرة ترى فيها فاطمة مدينةَ الملاهى . استلْفتَ انتباهها الضجة المنبعثة من أماكن متفرقة ، ومن خلال الضوضاء التقطت أذناها أغنية « إن كنت أسامح وأنسى الأسية ، ما اسلمش عمرى

من لوم عينىّ» لأم كلثوم تنساب مجلجلة من مكبرات الصوت . سارت فاطمة مع مختار يشقان طريقهما بين أمواج من البشر ، وخيول من الخشب امتطاها أطفال وصِبيّة بنين وبنات وفتية وفتيات يدورون مع الخيل فى مستوى أفقى دورانا سريعا . ولفت نظر فاطمة شيخا فى نحو السبعين يمتطى إحدى هذه الخيول وقد وضع أمامه طفلا صغيرا يمسكه بكلتا يديه ، وسيارات تسير بالكهرباء يسيطر على عجلات قيادتها خليط من مختلف الأعمار محاولين تجنب التصادم ولكنهم يتصادمون كثيرا عندما وصلت الأغنية إلى المقطع الذى تقول فيه أم كلثوم « دبّل جفونها طول النواح ، فاضت شجونها ونومعها راح »كان مختار وفاطمة قد وصلا إلى العجلة الكبرى المعلق بها مقاعد مزدوجة تدور فى مستوى رأسى ، بدت لعينى فاطمة وكأن قمتها تلمس السحاب . قال مختار لفاطمة .

ــ ما رأيك لو نركب هذه العجلة العالية التى تلف .

ــ وهل من المعقول أن أركب أشياء كهذه ؟ هل أنا طفلة ؟.

ــ ألا ترين الراكبين ؟ إن معظمهم أكبر منا سنا .

ــ لا أستطيع ركوبها ، فمقاعدها ترفع فى السماء . أخشى أن يعترينى دوار .

ــ لن تشعرى بأى دوار ، هيا تعالى .

بدأت العجلة تخفف من سرعتها تدريجيا ، وكلما وصل زوج من المقاعد إلى الأرض تتوقف العجلة ليهبط من هذه المقاعد من عليها من الركاب ويحتل مكانهم ركاب جدد . جذب مختار شقيقته فاطمة من ذراعها فلم تستطع منع نفسها من دخول المكان المعد للركوب . اشترى تذكرتين وركب مع فاطمة فى مقعدين متقابلين .

وجدت فاطمة نفسها تعلو تدريجيا حتى وصلت إلى قمة العجلة فشعرت وكأنها مسوقة إلى حبل المشنقة ، فأغمضت عينيها حتى لاتشعر بالارتفاع الهائل الذى وصلت إليه ، وبدأت العجلة تسرع فى الدوران شيئا فشيئا فارتفع الصراخ من أماكن كثيرة وقبضت فاطمة بكل قوتها على قضيب معدنى أمامها ولكنها لم تصرخ لأن الصوت احتبس فى حلقها ، وبعد نحو ثلاث دقائق مرت على فاطمة وكأنها ثلاثة أعوام شعرت بأن سرعة الدوران بدأت تبطئ . فتحت عينيها فوجدت نفسها عند قمة العجلة فأسرعت . بإغماض عينيها حتى خيل إليها أن العجلة لن تستأنف الدوران قال لها مختار بعد أن وضعا أقدامها على الأرض :

ــ ما رأيك ؟ هل خفتِ ؟.

ــ كنت سأموت من الخوف . كان يخيل إلى أننى سأطير فى الهواء .

سارا نحو السيارات التى بالكهرباء ، وبغتة امتقع لون مختار وبدا مرتبكا وقال لفاطمة بلهفة :

ــ تعالى ، تعالى بسرعة :

فزعت فاطمة وخشيت أن يكون أخوها قد شعر بتعب مفاجئ ، قالت :

ــ ما بك ؟ هل تعبت من الدوران ؟.

ــ لا شيء ، لا شيء ، هيا نغادر هذا المكان بسرعة .

قالت فاطمة بدهشة :

ـ لماذا ؟ ماذا جرى ؟.

قال وهو يجرها بعيدا عن المكان :

ـ هل تذكرين الصورة التى كانت فوق المكتبة ؟.

ـ صورة درية ؟

ـ أجل ، مابها ؟.

ـ صاحبة الصورة ، درية ، مرت من أمامنا الآن .

ـ ولماذا فزعت هكذا ؟ هل هذا شىء يدعو للفزع ؟

ـ لا أريد أن أراها .

ـ ولكننى أريد أن أراها .

ـ ها هى ذى قد عادت مرة أخرى .

إنها جميلة جدا ، أجمل من الصورة . ومن هؤلاء الذين معها ؟.

ـ أخواتها .

ـ ولكن لماذا لم تسلم عليك ؟ ألا تعرفك ؟.

ـ لا أود أن تعرفنى أو أعرفها .

ـ حاولت أختها الاتجاه نحوك لتسلم عليك ولكنها جذبتها من يدها . شىء عجيب . لماذا فَعَلتْ ذلك ؟.

ـ حدث سوء تفاهم بيننا .

ـ وهل من المعقول أن يُحدث أحد سوء تفاهم مع بنت حلوة كهذه ؟.

ـ هيا نجلس فى هذا الكازينو ، تعبت من المشى .

ماكان يتجهان نحو الكازينو حتى انطلقت زمارة الإنذار . قالت فاطمة بفزع :

ـ ما هذا ؟ أليست هذه زمارة الإنذار ؟.

ـ أجل ، هى بعينها .

قالت فاطمة وقد شعرت برجفة تسرى فى جسدها :

ـ وماذا ننتظر ؟ ألا يوجد هنا مخبأ ؟ هيا بسرعة .

ـ أرى الناس يجرون فى هذا الاتجاه .

ـ نجرى معهم .

أسرعا بالجرى مع من يجرى ، وفى أثناء ذلك انطلقت المدافع تدوى من أماكن شتى فازدادت سرعة دقات قلبى فاطمة ومختار وبدآ يشعران بتعب شديد ويلهثان فى أثناء الجرى وجدا نفسيهما أمام مبنى من طابقين امتلأ الدور الأرضى منه بالنساء والرجال والأطفال ، ولاحظا وجود سلم وعددا كبيرا من الناس يهبطون ذلك

السلم الذى اتضح أنه يؤدى إلى بدروم . فضّل مختار وفاطمة البقاء فى الدور الأرضى خوفا من الزحام الشديد فى البدروم . استأنفت المدافع طلقاتها ، قالت فاطمة :

ـ أنا خائفة .

ـ لا تخافى ، سليمة إن شاء الله .

ـ ليتنا ما خرجنا من البيت .

ـ لا أحد يدرى أين الأمان ، قد يكون الأمان هنا أكثر من البيت .

همست فاطمة قائلة :

ـ درية وأخواتها يقفن خلفنا .

ـ لا أريد أن أراهن .

ثم أردف قائلا بعد فترة صمت قصيرة :

ـ أصبح مصيرنا فى هذه اللحظة كمصيرهن .

ازداد ارتفاع صوت طلقات المدافع ، قالت فاطمة :

ـ القنابل اقتربت منا .

ـ أنا سامع صوت الطيارات فوق رءوسنا بالضبط .

ـ استر يارب . لماذا لا نسافر إلى البلد يا مختار ؟.

ـ لا أستطيع ، لابد من مواصلة البحث العلمى الذى أقوم به لأحصل على الماجستير .

ـ وهل ستموت لو لم تستمر فى هذا البحث ؟.

ـ لا ، يبدو أننى سأموت لو واصلت المضى فيه .

استمر إطلاق المدافع ، أخذت فاطمة تغمغم قائلة :

ـ أشهد ألاّ إله إلا الله ، أشهد الاّ إله إلا الله ، يا ساتر ، ياساتر يارب ، لا أستطيع إيقاف الرعشة التى فى جسدى .

ـ لا تخافى ، العمر واحد والرب واحد ، كل إنسان سيأخذ نصيبه .

طالت الغارة على الرغم من توقف صوت المدافع . قالت فاطمة بصبر نافد :

ـ هل سنظل واقفين هنا حتى الصباح ، ألن تنتهى هذه الغارة ؟.

ـ لكل شىء نهاية ، لا شىء يستمر إلى الأبد .

فى هذه اللحظة انطلقت زمارة الأمان ، قال مختار :

ـ ها هى ذى الغارة انتهت ، وها نحن أولاء على قيد الحياة ، ألم أطلب منك الاّ تخافى ؟

قال هذا وهو يعلم جيدا أنه كان أكثر منها رعبا . عادا إلى البيت وكأنهما عائدان من ميدان القتال .

وجدا قطة جالسة أمام باب شقتهم وقطيطاتها الثلاث منهمكات فى الرضاعة .

ـ أنظر يا مختار ، هل تذكر القطة التى كانت تحبو أمام منزلنا ؟.

ـ مابها ؟.

ـ لقد كبرت ، وها هى ذى جالسة بأولادها .
ـ كل شىء يكبر . كل شىء يتغير . شىء يحيّر .
ـ وما الذى يحير فى ذلك ؟
ـ هناك شىء يحيرنى ويشغل بالى .
ـ أنا أعرفه .
ـ شىء آخر غير الذى تعرفينه .
ـ ماهو ؟.
ـ مشكلة الوجود والعدم ، كيف جاء كل هذا الوجود من العدم ؟ وما معنى وجودنا فى الدنيا . ولماذا يتحتم على كل كائن حى أن ينجب ذرية ؟.
ـ ألا تريد أن يتزوج الناس ؟.
ـ لا أقصد زواج الناس فقط ، أريد أن أعرف لماذا تتزاوج جميع الكائنات الحية وتنجب ذرية . وكل ذرية تكبر وتموت وتحل محلها ذرية أخرى ، ما معنى هذا وما الهدف منه ؟ مخى يكاد ينفجر عندما أفكر فى هذه الأشياء ؟.
ـ وما تعلمته فى المدرسة والجامعة طوال هذه السنين لم يستطع أن يفسر لك هذه الأشياء ؟
ـ كلا ، ما تعلمته لم يستطع تفسير هذه الألغاز .
ـ إذن ما فائدة التعليم ؟ هذا يدل على أن المتعلم تَساوَى مع من لم يتعلم .
ـ لا ، بل الذى لم يتعلم أصبح أفضل من الذى تعلم .
ـ كيف ؟.
ـ الذى لم يتعلم لايوجع رأسه فى التفكير فى مثل هذه الألغاز ، إنه يحيا ليأكل وينام وينجب ذرية . من الذى علم القطة الحنان على أولادها ؟. هذه مسألة أخرى تحيرنى لم يفسرها العلم .
ـ وهل هذا يحتاج لتعليم ؟ هكذا خلقها الله . الذى علمها إنجاب الذرية علمها محبة أبنائها . سأذهب لأحضر طعاما لهذه القطة ، مسكينة ، لابد أنها جوعانة .

ـ ٤٧ ـ

كان مختار يهبط السلم الداخلى للكلية فى طريقه إلى غرفة أفلاطون أستاذ علم الحشرات عندما تقابل مع شريف صاعدا السلم للوصول إلى غرفة المعيدين بقسم علم الحيوان ، وقفا فى منتصف السلم يتحدثان ، قال شريف :
ـ مبروك يا مختار ، لماذا أخفيت عنى هذا النبأ السعيد ؟.
قال مختار بدهشة :

ـ أىّ نبأ هذا ؟ لا توجد فى حياتى أنباء سعيدة .

ـ درية رأتك مع خطيبتك فى مدينة الملاهى ونقلت الخبر لمريم . تقول إن خطيبتك جميلة جدا .

ضحك مختار وقال :

ـ لا ياشريف ، البنت التى رأتها درية معى هى أختى .

ـ لم أكن أعلم أن لك أختا بهذا الجمال لكن قل لى ، درية قالت لمريم إنك حتى الآن مازال وجهك يشحب عندما تراها ، ألم تقل لى أنك لم تعد تفكر فيها ؟.

ـ أنا لا أفكر فيها مطلقا . لقد قتلت العاطفة التى كانت بيننا . كل شىء انتهى . طردتها من قلبى شر طردة .

دق جرس الإسعاف دقات شبه متواصلة ، فأسرع شريف ومختار إلى باب المبنى وتمكنا من رؤية السيارة وهى تمرق متجهة نحو معمل الكيمياء . قال مختار :

ـ ترى لماذا حضرت هذه السيارة إلى الكلية ؟ لقد وقفت عند معمل الكيماء .

أقبل زميلهما كمال واصف قادما من المكان الذى وقفت عنده السيارة . نادى شريف كمالا وسأله عن سبب مجيئها ، قال كمال :

ـ وقع حادث لإحدى الطالبات فى معمل الكيمياء .

قال شريف :

ـ من هى هذه الطالبة ؟.

ـ بنت اسمها درية .

قال مختار بفزع :

ـ ماذا حدث لها ؟.

ـ ابتلعت سماً .

ـ كيف ؟.

ـ كانت تمتص بالماصة سائلا به مادة سامة فى أثناء إجراء إحدى التجارب فتسرب إلى معدتها غصبا عنها .

انطلق مختار مهرولا نحو معمل الكيمياء وقد فقد السيطرة على أعصابه صائحا :

ـ لابد أن أراها ، لابد من رؤية درية .

أسرع شريف خلف مختار خوفا عليه عند مواجهة الموقف ، وقبل وصولها بأقل من دقيقة تحركت السيارة وأسرعت نحو باب الخروج فجرى مختار خلفا وهو لايدرى لماذا يجرى ، ورنين أجراسها يلطم أذنيه ، ولكنه توقف عن الجرى عندما أسرعت السيارة واختفت عن الأنظار وتلاشى تدريجيا صوت جرسها ، فأسرع بالاتجاه نحو معمل الكيمياء للاستفسار عن حالة درية وظل شريف واقفا فى مكانه ناظرا إلى مختار بإشفاق . رأى مختار نبيلة خارجة من معمل الكيمياء فسألها بلهفة :

ـ ماذا حدث لدرية يا نبيلة ؟ أين هى ؟.

ـ نقلوها فى سيارة الإسعاف إلى المستشفى ؟.

ـ أين هذه المستشفى ؟

ـ لست أدرى ، يخيل إلىّ أنها مستشفى قصر العينى

ـ كيف حالها ؟ هل رأيتها ؟.

ـ يبدو أن حالتها خطيرة ، فهى لاتستطيع النطق .

ـ وهل من الممكن أن تشفى ؟.

صاح شريف وفى حديثة رنة تأنيب واستنكار :

ـ ما بك يا مختار؟ لماذا ترتعش هكذا ؟ يبدو أنك أنت أيضا محتاج لسيارة إسعاف .

ظلت نبيلة ناظرة إلى مختار مدهوشةً لما أصابه من اضطراب . قال مختار :

ـ من قال إننى أرتعش ؟ أنا لا أرتعش .

قال مختار منفعلا :

ـ بل ترتعش ووجهك اصفرّ .

ـ إننى أتألم لأى إنسان يصاب .

ـ لا ينبغى أن تبدو بهذا الاضطراب المخجل . لماذا لا تسيطر على مشاعرك ؟ أنت لا تدرك ما تفعله

ثم أردف صائحا :

ـ يا مختار أوقف هذه الرعشة ، سوف يُجرون لها غسيل معدة وتشفى . أنا خائف عليك أنت .

سارت نبيلة متجهة نحو قسم النبات ، وسحب شريف مختارا من يده واتجها معا نحو قسم علم الحيوان .

فزعت فاطمة عندما رأت مختارا عند عودته للبيت فى ذلك اليوم ، سألته بلهفة :

ـ ما بك يا مختار؟ هل تشعر بتعب ؟.

ـ لا أشعر بأى تعب .

ـ لا ، لست فى حالة طبيعية ، ماذا حدث ؟.

ـ أنا مريض . يخيل إلىّ أن حرارتى مرتفعة .

ـ اذهب واسترح فى السرير ، هل تحب أن أعمل لك شيئا ؟

ـ أريد فنجان شاى .

ـ حاضر .

شرب مختار فنجان الشاى وابتلع اسبرينتين وشعر برغبه فى النوم فنام .

عندما صحا من نومه بعد نحو ساعة قالت له فاطمة :

ـ كيف حالك الآن ؟.

ـ أشعر بتحسن .

ـ نسيتُ شيئا ، ورد لك خطاب اليوم .

ـ أين هو ؟.

ـ عندك فى درج الكومودينو .
فتح الدرج فوجد الخطاب ، أسرع بفتحه ثم قال :
ـ إنه من حامد أخى .
ـ ماذا يقول :
أخذ يقرأ الخطاب فى صمت ثم قال :
ـ يقول «ولقد تم بحمد الله يوم الخميس الماضى عقد قرانى على فتحية ابنة خالتى . . »
ـ الحمد لله . كنت أتمنى أن يتزوج . عقبالك
ـ عقبالك أنت يافاطمة ، يبدو أننى لن أتزوج .

ـ ٤٨ ـ

كانت فاطمة منهمكة فى تقميع البامية بالمطبخ عندما دخل مختار وفى يده أقة لحم وضعها على المنضدة قائلا :
ـ ارتفع سعر اللحم يا فاطمة .
ـ لماذا ؟ أصبح بكم ؟
ـ تسعة قروش للأقة
قالت فاطمة بدهشة :
ـ تسعة قروش ؟! ولماذا ارتفع سعرها ؟.
ـ إنها الحرب ، وأتوقع أن يرتفع سعرها أكثر من ذلك .
صاحت فاطمة قائلة :
ـ غير معقول ، هل يرتفع سعر الأقة عن تسعة قروش ؟.
ـ ربما . من يدرى ؟ لقد أفلت الزمام ، قد يصل سعرها فى يوم من الأيام إلى عشرين قرشا .
ـ تكون كارثة لو حدث ذلك .

ـ ٤٩ ـ

بعد نحو أسبوع وصل إلى مختار خطاب من والده يفيد بأن حلمى قُبل بكلية الطب وأنه سوف يعيش مع مختار وفاطمة ، فأسرع مختار بشراء مكتب متوسط الحجم من خشب الزان بمبلغ خمسة وسبعين قرشا ليذاكر عليه دروسه عندما يحضر ووضعه فى الغرفة التى كان يشغلها محمود .
ـ ما رأيك فى هذا المكتب يا حلمى ؟.
ـ هائل .

ـ إنه مكتبك ، وهذا سريرك ، والمهم الآن أن تهتم بدروسك وتذاكرها أولاً بأول فالدراسة فى إعدادى الطب تحتاج لمجهود كبير. وما هى أخبار محمود ؟

ـ سيستأنف الدراسة هذا العام بعد أن أجبره المرض على الانقطاع عنها عاما كاملا.

نسى مختار جميع أحزانه وهزته الفرحة من الأعماق وصاح قائلا :

ـ يا فاطمة ، فاطمة.

هرولت فاطمة إليه قادمة من المطبخ قائلة :

ـ خيرا يا مختار ، ماذا حدث ؟.

قال مختار وفى صوته فرحة :

ـ محمود شفى وسيذهب إلى المدرسة.

شعرت فاطمة بسعادة لم تشعر بها من مدة طويلة وقالت :

ـ أحقيقةً ؟ الحمد لله ، كنت نذرت جنيها للفقراء ودستتى شمع لضريح السيدة زينب لو شفى.

انطلقت زمارة الإنذار. صاح حلمى بدهشة وفزع قائلا :

ـ ماهذا ؟

قال مختار متظاهرا بعدم الاكتراث :

ـ لا شيء ، إنها مجرد غارة جوية.

قال حلمى :

ـ غارة جوية ؟.

ـ أجل بعض الطائرات الإيطالية جاءت لتلقى علينا بعض القنابل.

صاح حلمى قائلا وقلبه يكاد يقفز من صدره :

ـ قنابل ؟.

ـ لا تخف ، لماذا فزعت هكذا ؟ هيا معنا نسرع بالنزول إلى المخبأ ، هيا يا فاطمة.

ارتفعت الأصوات كالعادة تنادى من الشارع :

ـ اطفئوا النور. اطفئوا النور.

دوت أصوات المدافع تخترق السكون من أماكن متفرقة وكأنها سيمفونية مرعبة تعزفها شياطين مجنونة. صاح حلمى قائلا :

ـ إنها قنابل.

اندفع الجميع يهبطون السلّم وقد ارتفع صوت وقع أقدامهم كنغمة نشاز. انفلتت من قدم حلمى فردة خف فلم يفكر فى البحث عنها وواصل هبوطه بفردة واحدة فى قدمه اليمنى ، ولم يشعر بأن هذه الفردة هى الأخرى قد انفلتت إلا عندما وصل إلى المخبأ واكتشف أنه حافى القدمين.

قال مختار محاولا تهدئة حلمى :

ـ لا تخف ، القنابل بعيدة عنا.

ـ وهل تحدث هذه الغارات كثيرا ؟

ـ لا . لا تحدث كثيرا .

ـ وكيف يستطيع الإنسان المذاكرة فى هذا الجو؟

ـ ستعتاد ذلك وتتكيف معه .

ـ غير معقول . لا أعتقد أننى قادر على التكيف مع هذا الرعب .

ـ الحياة صراع وكفاح .

صاح حلمى ثائرا :

ـ ولماذا تكون الحياة كفاحا وعذابا وصراعا مريرا بهذا الشكل ؟ لماذا لا تكون الحياة جميلة يستمتع بها الإنسان ؟

علا صوت المدافع . فصاح حلمى قائلا :

ـ الله الله ! إنها قريبة جدا فى هذه المرة .

قالت فاطمة وفى صوتها رجفة :

ـ إنها شديدة هذه الليلة . أشد من الغارات السابقة .

قال حلمى :

ـ فى أول ليلة لى هنا يحدث كل هذا ؟.

قال مختار محاولا السيطرة على الرعب الذى لا يقل عن رعبهما :

ـ لو علم الإيطاليون أنك ستحضر هنا اليوم لما قاموا بهذه الغارة

اشتد زئير المدافع فلم تستطع فاطمة السيطرة على أعصابها وصاحت قائلة :

ـ اللهم إنى لا أسألك رد القضاء ، بل أسألك اللطف فيه .

سرت همهمة بين رواد المخبأ وارتفع عويل الأطفال ، واخترق الظلامَ صوتُ طفل يقول مختنقا بالبكاء :

ـ أنا خائف يا ماما .

قالت الأم التى نمَّ صوتُها على أنها أكثر رعبا من ابنها :

ـ لا تخف يا حبيبى ، لا تخف .

قال الطفل :

ـ أنا ارتعش يا ماما .

قالت الأم التى كانت هى أيضا ترتعد :

ـ لا ترتعش يا حبيبى ، لا ترتعش .

ارتفع صوت فى الشارع يصيح :

ـ اطفئوا النور ، أنتم يا من فى الدور الثالث .

ازداد بكاء الأطفال فقال مختار :

ـ هل تعلمين يافاطمة أن الإنسان أشد الحيوانات وحشية ؟ إنه الحيوان الوحيد الذى يَلْتذّ بتعذيب بنى جنسه

قالت فاطمة :

ـ ذكرتنى . نسيت إطعام القطط اليوم

صاح مختار قائلا :

ـ هل هذا معقول يافاطمة ؟ لا أحد منا الآن يضمن حياته لحظة واحدة وأنت تفكرين فى القطط ؟

قالت فاطمة :

ـ وما ذنب القطط ؟ هل هى التى أشعلت الحرب ؟.

غمغم مختار قائلا :

ـ أجل . ليست القطط هى التى أشعلت نيران الحرب . الذين أشعلوها ناس مجانين.

انطلقت بعض المدافع من أماكن قريبة فاهتز المبنى هزا عنيفا وكأنه زلزال .

ارتفع صراخ الأطفال وبال بعضهم وتبرز البعض الآخر وقد أفقدهم الخوف السيطرة على هاتين العمليتين .

قال حلمى :

ـ لست أدرى كيف أستطيع المذاكرة وسط هذه المصائب

قال مختار :

ـ أنت مثل ملايين الناس ، هل تُغير الطائراتُ عليك وحدك ؟.

ـ ٥٠ ـ

لم يتسع وقت مختار للذهاب إلى البيت لتناول غذائه فذهب مع شريف للغذاء فى مطعم « الوردة البيضاء » القريب من الكلية . كان مختار يحن لتناول الطعام فى ذلك المطعم الذى يذكّره بأيام الدراسة ، فلقد كان مطعمه المفضل لنظافته واعتدال أسعاره فضلا عن خفة ظل صاحبه اليونانى البدين الذى كان دائم المرح حتى فى أثناء الغارات الجوية ، ويقدم الطعام لزبائن المحل قائلا :

ـ كلوا بالهنا والشفا ، من غير فلوس .

وكان كوستا حريصا على راحة الزبائن فلا يرفع راديو المطعم إلاّ بالدرجة التى تسمح بسماعه دون إزعاج . فى ذلك اليوم ، فى أثناء تناول الطعام ، كان مختار منصتا لأغنية من تأليف أحمد رامى وغناء أم كلثوم تقول « ما دام تحب بتنكر ليه ؟ داللى يحب يبان فى عينيه » . قطع شريف الصمت عندما قال :

ـ درية شفيت وعادت إلى الكلية .

لم يستطع مختار إخفاء فرحته ، فقال بلهفة :

ـ أحقيقةٌ ؟ هل رأيتها ؟.

ـ أجل ، رأيتُها صباح اليوم وصحتها على مايرام ، كأن لم يحدث شيء ، ألم أقل لك إنها ستشفى ؟.

قال مختار محاولا الظهور بمظهر اللامبالاة كابحا جماح العاطفة فى هذه المرّة :

ـ وما شأنى بها ؟ لم يعد يهمنى أمرها . لقد طردتها من ذهنى .

قال شريف ساخرا :

ـ طردتها من ذهنك ؟ كنت أتمنى أن ترى وجهك فى المرآة عندما سمعت أنها ابتعلت السم فى المعمل .

ـ لا يهمنى ما إذا ابتعلت السم أو لم تبتعله فلا شأن لى بها .

ـ لقد اصفرَّ وجهك عند سماع الخبر وبدا فى عينيك رعب لم أر له مثيلا فى حياتى . أنت مازلت تحب هذه البنت حبا عنيفا ، ولكنك تقاوم ، أنا أرثى لحالك .

ـ من قال إننى أحبها ؟ لقد انتهى كل شيء بيننا .

ثم أردف قائلا بعد لحظة صمت قصيرة :

ـ هل زارتها مريم ؟.

ـ زارتها فى المستشفى فى أثناء مرضها .

قال مختار بعد فترة تردد :

ـ ألم تقل شيئا لمريم ؟.

قال شريف مبتسما :

ـ شيء مثل ماذا ؟.

ـ أى شيء .

ـ على أية حال لم يرد اسمك على لسانها .

أطرق مختار للأرض وقد بدا الحزن العميق فى ملامح وجهه . قال شريف :

ـ ما بك ؟ لماذا هذا الوجوم ؟ ألم تقل إن كل شيء انتهى ؟.

غمغم مختار قائلا :

ـ أجل . كل شيء انتهى .

ـ أنصحك يا مختار أن تركز كل اهتمامك فى البحث العلمى لتحصل على الماجستير ثم الدكتوراه فى أقرب وقت لتصبح أستاذا عظيما

ـ ألم تسمع أخبارا عن البعثات ؟.

ـ لا أحد يعلم ماذا سيحدث غدا . من يدرى . قد تنتهى الحرب فى أية لحظة وتستأنف البعثات .

ـ إنها حرب تبدو بلا نهاية .

ـ لكل شيء نهاية .

ـ ولكن توجد لا نهاية . أنت تعلم أن فى الرياضيات مايسمى « لانهاية » .

ـ أجل ، ولكن للحرب نهاية .

ـ مسألة اللانهاية هذه أتعبتنى جدا يا أخى .

ـ ولماذا تتعب نفسك دائما هكذا ؟ مرة من أجل مشكلة الوجود والعدم . ومرّة من أجل اللانهاية . يجب أن تتوقف عن التفكير فى مثل هذه الأشياء حتى لا تفقد عقلك .

ـ لا أستطيع التوقف عن التفكير فى مثل هذه الأشياء . إننى أجد نفسى أفكر فيها غضباً عنى . مسألة اللانهاية مسألة عجيبة .

ـ كيف ؟.

ـ لو تصورنا جسما ينطلق بسرعة رهيبة فى الفضاء دون أن يعترضه شىء ، ومستمر فى الانطلاق ، إلى أى شىء سيصل ؟.

ـ لن يصل إلى أى شىء ، يظل منطلقا إلى مالا نهاية .

ـ هذا هو ما يتعبنى .

ـ ٥١ ـ

فى صباح اليوم التالى ، كان مختار جالسا إلى مكتبه بالمنزل يرتب بعض الأوراق عندما دخلت فاطمة ، قالت بدهشة :

ـ هل وضعت هذه الصورة مرة أخرى فوق المكتبة ؟.

قال مختار متظاهرا بعدم الفهم :

ـ صورة ماذا ؟.

ـ صورة درية .

ـ آه ، هذه الصورة ؟ أنا الحقيقة لم أجد مكانا أضعها فيه فرميتها هنا فوق المكتبة .

ـ أنا مستخسرة فيها الإطار الجميل ، ليتك تضع فيه بدلا منها صورة وردة أو قطة .

ـ لا مانع لدىّ ، لو عثرت على صورة قطة أو وردة .

ويبدو أن مختارا لم يعثر على صورة أية قطة أو وردة فبقيت صورة درية فوق المكتبة .

بعد نحو أسبوع ، بينما كان مختار مارا بالقرب من معمل الكيمياء بصحبة شريف لاحظ شيئا عجيبا . قال لشريف :

ـ ماذا جرى للدنيا ؟ هل هذا معقول ؟.

ـ ما هو هذا الشىء غير المعقول ؟

ـ ألا ترى ؟ نبيلة تسير هنا داخل الكلية متأبطة ذراع الدكتور حسين فريد ؟!.

ـ ماذا فى هذا ؟.

ألا يدعو هذا إلى العجب فى نظرك ؟ أنا لا أصدق عينىّ .

ـ يبدو أنك تعيش فى دنيا غير الدنيا ، ألم يصلك نبأ عقد قران نبيلة على الدكتور حسين فريد ؟.

ـ نبيلة عقد قرانها على الدكتور حسين فريد ؟ متى حدث ذلك ؟.
ـ من حوالى شهر.
ـ شيء عجيب لم يكن يخطر على بالى.
ـ ولكنه حدث. وماذا كنت تتوقع ؟ هل كنت تنتظر من نبيلة أن تتزوج معيدا ؟ هاهى ذى قد تزوجت دكتورا فى الكيمياء.

قال مختار وقد شعر بشيء من المرارة والألم :
ـ يخيل إلىّ أن درية هى أيضا تنتظر الزواج من أحد الأساتذة.
ـ لا ، درية لن تتزوج أحدا من الأساتذة أو المعيدين.
ـ وكيف عرفت ذلك ؟.
ـ درية ستتزوج طالبا من زملائها.
قال مختار بذهول :
ـ هل من المعقول أن تقبل درية الزواج من أحد الطلبة ؟.
ـ هذا اللامعقول هو الذى سيحدث.
صاح مختار قائلا بعصبية :
ـ كيف ؟ تكلم.
ـ وهل رأيتنى توقفت عن الكلام ؟.
سيطر مختار على مشاعره وقال مصطنعا الهدوء :
ـ من هو هذا الطالب ؟.
ـ أحد زملائها الذى يذهب للمذاكرة معها فى البيت اسمه عبد الرحمن نصر ، ويحضران معا إلى الكلية أحيانا.

ـ لا أستطيع تصديق هذا الكلام.
ـ إنها مسألة أصبحت معروفة لكل من فى الكلية ، يبدو أنك آخر من يعلم.
شعر مختار بحزن قاتل ، ولم يكن كلامه يعبر عن حقيقة مشاعره عندما قال :
ـ لا شأن لى بها ، فلا أنا أبوها ولا ولىّ أمرها ، ولا علاقة لى بها أو بغيرها من البنات.
أدرك شريف أنه جرح مشاعر مختار بلا داع ، فقال :
ـ أنا لم أقل هذا الكلام لأحزنك ، بل على العكس ، قلت لك ذلك لتعرف أن هذه البنت لاتستحق منك التفكير فيها لحظة واحدة.

فى ذلك اليوم ، لاحظت فاطمة أن مختارا ، على غير عادته ، ظل معتكفا فى غرفة مكتبه منذ حضوره من الكلية حتى نحو منتصف الليل مغلقا باب الغرفة. فتحت فاطمة الباب فتحة استطلاعية ضيقة وأطلت منها فوجدته ممسكا بكتاب فى يده ولكن نظره كان شاردا. بحركة انعكاسية أسرعت بالنظر

إلى المكتبة فلم تجد صورة درية . أصبحت هذه الصورة بالنسبة لفاطمة كمؤشر يدل على حالة مختار النفسية . قالت :

ـ ماذا حدث يا مختار ؟ أين الصورة التي كانت فوق المكتبة ؟.

ـ ذهبت فى ستين داهية .

ـ ٥٢ ـ

كانت الساعة الواحدة والنصف تقريبا عندما تجمع الثلاثة : فاطمة ومختار وحلمى ، حول مائدة الغداء يوم الجمعة . كانوا يتناولون الطعام فى صمت وكلٌ منهم يفكر فى شىء يختلف تمام الاختلاف عما يفكر فيه الآخر . كان حلمى يفكر فى الغارات الجوية ، وتفكر فاطمة فى تقديم بعض الطعام للقطة التى اعتادت الجلوس أمام باب الشقة وقت الغداء ، أما مختار فكان يفكر فى درية . قطعت فاطمة الصمت عندما قالت :

ـ مختار .

ـ نعم .

ـ هل أطلب منك طلبا ؟.

ـ أنا مستعد لتلبية أى طلب .

ـ أريد مشاهدة فيلم «ليلى» الذى تغنى فيه ليلى مراد .

ـ وأنا أيضا أود رؤيته . نذهب لمشاهدته نحن الثلاثة فى حفلة الساعة الثالثة .

قالْ حلمى :

ـ أدعو الله ألا تفاجئنا غارة جوية فى أثناء ذهابنا وعودتنا .

قالت فاطمة :

ـ ذكرتنى بالغارات . نكّدت علىّ .

قال مختار :

ـ لا داعى للنكد ، العمر واحد والرب واحد ، والخطر هنا لا يقل عن الخطر فى أى مكان آخر ، كما سبق أن قلت لك .

استقل الثلاثة تاكسيا أوصلهم حتى باب السينما ، وبعد انتهاء العرض وإضاءة الأنوار لاحظ مختار أن فاطمة تمسح دموعها فسألها :

ـ هل أعجبك الفيلم يافاطمة ؟.

ـ أعجبنى ولكنه أتعبنى .

ـ كيف ؟.

ـ أبكانى كثيرا . هل كان من الضرورى أن تموت ؟.

ـ هذا الفيلم مقتبس من رواية «غادة الكاميليا» التى أعجبتك عندما قرأتها .
ـ العجيب أن الرواية التى تبكينى هى التى تعجبنى .
انتقلوا إلى الرصيف المقابل ليلتقطوا تاكسيا يوصلهم إلى البيت ، وفى أثناء انتظارهم قال مختار :
ـ الإنسان أغرب حيوان فى الدنيا ، يسعى للبكاء ليشعر بالمتعة ، وينفق المال لكى يبكى .
قال حلمى :
ـ الدنيا كلها مآسى ، والناس عندما يقرأون رواية مؤثرة أو يشاهدون فيلما محزنا يرون الدنيا على حقيقتها .
قال مختار :
ـ هذا الكوكب الذى تعيش على سطحه كوكب مرعب ، بشع ، الحياة عليه سلسلة من المآسى تنتهى بالمأساة الكبرى .
قالت فاطمة :
ـ وما هى المأساة الكبرى ؟.
قال مختار :
ـ الموت .
قال حلمى :
ـ قد يكون الموت أحيانا نهاية سعيدة .
قال مختار :
ـ هذه هى المأساة .
قال حلمى :
ـ ولكن لاتنس أن فى الحياة أشياء جميلة .
ـ مثل ماذا ؟.
ـ الحب .
ـ الحب ؟! الحب خدعة خبيثة لحفظ النوع .
قالت فاطمة بدهشة واستنكار :
ـ خدعة خبيثة ؟! كيف ؟.
وقال حلمى :
ـ إذا كان الحب فى نظرك خدعة ، فلا يمكن أن يكون خدعة خبيثة ، بل خدعه لذيذة .
قال مختار :
ـ الحب هو الطُّعم الموضوع فى سنارة الزواج ، ولماذا يتزوج الناس ؟ إنهم يتزوجون ليتركوا ذرية بعد موتهم ، وهذه الذرية تكبر فى السن وتتزوج هى بدورها لتنجب ذرية ، وهكذا ، أى أن الحب من مستلزمات الفناء ، لو لم يوجد الموت لما وجد الحب .
قال حلمى :

ـ لا ، أنا لا أوافق على هذه الأفكار ، أنت شديد التشاؤم فى هذه الأيام . الحب شيء جميل ، أجمل شيء فى الدنيا .

قالت فاطمة بعد تردد .

ـ أنا فى الحقيقة رأيى كرأى حلمى .

قال حلمى :

ـ لو أُلغى الموت وأُلغى معه الحب لما أصبحت الحياة تستحق أن نحياها .

قال مختار :

ـ اتعتقد ذلك ؟.

ـ بكل تأكيد ، تصبح الحياة مملّة لا طعم لها .

ـ حتى ولو كان الحب من طرف واحد ؟ حب بلا أمل ؟.

ـ الحب الذى من طرف واحد معناه أن الإنسان لم يحسن اختيار الشخص الذى منحه حبه . الحب ليس مجرد عاطفة ، لابد من وجود إرادة ، لابد أن يحكّم الإنسان عقله .

قال مختار بشيء من الانفعال :

ـ ماذا تقول ؟ الحب معناه عاطفة ، وعندما يتغلب العقل على العاطفة لايصبح الحبُّ حبا . هل عندما يحب الإنسان يجلس ويفكر قائلا لنفسه : هل أحب هذه أم أحب تلك ؟ الحب فى رأيى كالقضاء والقدر ، لا يملك الإنسان ردّه .

انطلقت زمارة الإنذار ، فصاحت فاطمة قائلة بفزع :

ـ هذا ماكنت أخشاه .

وقال حلمى :

ـ ماذا نفعل الآن ؟.

قال مختار :

ـ هيا نختبئ فى هذه العمارة .

دخلوا إحدى العمارات وتواروا فى مدخلها بعيدا عن الباب الخارجى وسبحت الشوارع فى ظلام أزرق شاحب واختفت الأنوار المنبعثة من النوافذ وساد صمت مرعب . أخذت فاطمة تغمغم قائلة :

ـ اللهم إنى لا أسألك رد القضاء ، بل أسألك اللطفَ فيه .

وبعد نحو عشر دقائق انطلقت زمارة الأمان ولم تنطلق أية مدافع فى هذه المرّة .

قال حلمى وهم خارجون من باب العمارة :

ـ أخشى أن تكون هذه مقدمة لغارة شديدة .

مرَّ تاكسى فاستقلوه واتجهوا نحو حدائق القبة . لم يصدقوا أنهم وصلوا إلى المنزل سالمين ، فأسرعوا بمغادرة التاكسى وأعطى مختار لسائق التاكسى أجره واندفع الثلاثة نحو البيت وكأنه معبد مقدس لا تجرؤ القنابل على الاقتراب منه .

انتهى حلمى من امتحان النقل من السنة الثانية إلى السنة الثالثة بكلية الطب . وعلم أن اليوم موعد ظهور النتيجة . شعر بشيء من الخوف فلم يستطع تناول فطوره واكتفى بفنجان من الشاى وارتدى ملابس الخروج على عجل للذهاب إلى الكلية . دعت له فاطمة بالتوفيق وتمنى له مختار النجاح بتفوق . وبينما يهم بالخروج ناداه مختار وطلب منه أن يحضر معه عند عودته أقة لحم وأقة تفاح وأقة موز وأعطاه عشرين قرشا .

عندما عاد مختار فى نحو الثانية والنصف وجد حلمى قد سبقه فى العودة . استبشر عندما رأى الفرحة بادية على ملامح وجه حلمى فسأله :

ـ ماذا فعلت فى الامتحان يا بطل ؟.

ـ نجحت بدرجة جيد جدا .

ـ مبروك .

ـ الله يبارك فيك .

اتجه مختار نحو غرفته ، ولكنه تذكر شيئا فتوقف وقال لحلمى :

ـ هل أحضرت ما طلبته منك ؟.

ـ أجل .

ـ أين باقى الفلوس ؟.

ـ لم يبق منها شيء .

قال مختار بدهشة .

ـ لم يبق شيء ؟ كيف ؟.

ـ ارتفع سعر اللحم فأصبحت الأقة باثنى عشر قرشا . وأقة التفاح بخمسة قروش والموز بثلاثة قروش . وسوف نرى ما هو أعجب من ذلك . هل تظن الحرب لعبة ؟.

ـ إذا استمرت الأسعار فى الارتفاع بهذا المعدل فليس بمستبعد أن تصبح أقة اللحم فى يوم من الأيام بخمسة وعشرين قرشا .

ـ لا أعتقد أن الأمور ستسوء إلى هذا الحد ، وعلى أية حال ستعود الأسعار إلى سابق عهدها عندما تنتهى الحرب .

ـ لست أدرى متى ستنتهى هذه الحرب الملعونة . لم يعد المرتب كافيا لضروريات الحياة .

ـ سمعت أنهم سيقررون علاوة غلاء لجميع الموظفين . لقد منحت الحكومة فى الحرب العالمية الأولى علاوة غلاء للموظفين مقدارها مائة فى المائة من مرتباتهم ، ولابد أنهم سيفعلون ذلك فى هذه الحرب .

ـ عندما يرتفع سعر سلعة واحدة ، ترتفع أسعار جميع السلع الأخرى نتيجة لذلك ، وينخفض سعر الإنسان .

قالت فاطمة التى أقبلت فى هذه اللحظة :

ـ لابد أن الحكومة سترفع مرتبات الموظفين . لن تتركهم يموتون من الجوع .

قال مختار :

ـ بالتأكيد ، ليس من المعقول أن يتركوا الموظفين يموتون جوعا .

دق جرس الباب ، وعندما فتحه حلمى رأى حافظ إبراهيم الذى كان يدرِّس له علم الحيوان العملى فى إعدادى الطب قال حافظ :

ـ الأستاذ مختار موجود ؟.

قال حلمى مبتسما كعادته :

ـ أجل ، تفضل .

أسرع مختار إلى حافظ فى غرفة الصالون . وماكاد يرى مختارا حتى ابتدره قائلا :

ـ أحمل لك اليوم بشرى عظيمة ، إنه خبر سيجعلك تقفز من الفرحة

امتزجت الفرحة بالحزن المقيم فى قلب مختار وقال :

ـ ترى ما هى هذه البشرى ؟.

ـ فى أثناء وجودى فى غرفة الاستاذ أفلاطون بك ظُهر اليوم وصله خطاب من انجلترا بشأن رسالتك للماجستير .

طغت الفرحة على الحزن فى هذه اللحظة وقال مختار بلهفة :

ـ وماذا فى الخطاب ؟.

ـ مبروك ، أنت حصلت على الماجستير .

ـ الحمد لله . كنت خائفا

ضحك حافظ وقال :

ـ خائف ؟! الأساتذة المتحنون كتبوا عنك تقارير هائلة . يقولون إن رسالتك ممتازة وكان من الممكن أن تحصل بها على الدكتوراه . أفلاطون بك يرغب فى رؤيتك . سأل عنك فى الكلية فلم يجدك ويريد تهنئتك .

ـ أشكرك من صميم قلبى على هذه الأخبار السارّة . كنت أتمنى أن أسافر فى بعثة للحصول على الدكتوراة .

ـ بمجرد انتهاء الحرب ستكون أنت أول من يسافر .

ـ لا أحد يدرى متى تنتهى الحرب . هذا شىء فى علم الغيب .

ـ لا أظن أنها ستطول ، فألمانيامنتصرة انتصارا مذهلا ، ويخيل إلىَّ أنه بعد شهرين على أكثر تقدير ستستسلم انجلترا كما فعلت فرنسا . هتلر سيكتسح العالم .

ـ الدكتور رياض تركى عندما بدأت الحرب قال إن هتلر سيضيّع ألمانيا .

ضحك حافظ وقال بسخرية :

ـ هتلر يضيّع ألمانيا ؟! وهل هذا معقول ؟ هتلر أعظم شخص حكم ألمانيا . سيكون صاحب الفضل فى عظمة ألمانيا وازدهارها

ـ الدكتور تركى والدكتور رشاد الطوبى والدكتور حامد جوهر يرون عكس ذلك ، يقولون إنه سيكون سببا فى خراب وضياع ألمانيا .

ـ غير معقول ، إن فرنسا التى تمتلك أقوى جيش فى أوربا لم تصمد أمامه أكثر من أسبوعين ، وبدلا من ذهابك فى بعثة إلى انجلترا ستذهب فى بعثة إلى ألمانيا ، ستصبح ألمانيا أعظم وأقوى دولة فى أوربا .

ـ أتظن ذلك ؟.

ـ هذا شىء بديهى لا يحتاج لتفكير .

قال حلمى لفاطمة :

ـ يبدو أن مختارا حصل على الماجستير .

لم تفهم فاطمة على وجه التحديد معنى الماجستير . ولكنها أدركت أنها شهادة كبيرة كان مختار يتمنى الحصول عليها . فصاحت قائلة بفرح :

ـ أحقيقةً ؟ وكيف عرفت ؟.

ـ سمعت الأستاذ حافظ يقول ذلك .

ـ الحمد لله ، أنت كريم يارب ، صبر ونال ، مختار كان محتاجا فى هذه الأيام لشىء يفرحه ، فلقد لاحظت أنه فى منتهى التعاسة والقرف . سأعمل الشربات واذهب قدمه للأستاذ حافظ

قال حافظ لمختار :

ـ وأريد أن أهنئك على شىء آخر .

ـ ماهو ؟.

ـ على التمثيلية الرائعة التى سمعناها فى الراديو ليلة أمس ؟

قال مختار بدهشة :

ـ هل أذيعت ليلة أمس ؟

ـ ألم تستمع إليها ؟

ـ لا ، لم أستمع للراديو أمس . هل أعجبتك ؟.

ـ كل من سمعها من أهل منزلى أعجب بها .

دخل حلمى حاملا صينية بها كوبان من الشربات وتقدم نحو حافظ قائلا :

ـ تفضل .

قال حافظ :

ـ يبدو أن هذا شربات الماجستير . هل سمعتنى وأنا أهنئ مختارا ؟.

ضحك حلمى وقال :

ـ الحقيقة ، أجل .

ـ كيف حالك فى الدراسة ياحلمى ؟.
قال مختار :
ـ ظهرت نتيجة امتحانه اليوم وحصل على تقدير جيد جدا .
ـ ألف مبروك . أتعشم أن تظل متفوقا مثل أخيك مختار وتحصل على الماجستير والدكتوراه .
قال حلمى وهو يقدم كوب الشربات لأخيه :
ـ إن شاء الله . بعد عمر طويل .
اتجه حلمى نحو باب الغرفة . وبينما هو عند عتبة الباب قال له حافظ :
ـ السنوات تمر سريعا يا حلمى .
ابتسم حلمى لحافظ وخرج وأغلق باب الغرفة . قال مختار لحافظ :
ـ اللحظات فى هذه الأيام تمر وكأنها أجيال .
ـ هذه هى سنّة الحياة . الحياة صراع . الحياة حرب . الحياة كفاح .
أطرق مختار للأرض وقال بصوت حزين :
ـ أنا لا أضمن الحياة لحظة واحدة ولا أعرف كم يوم أو كم ساعة سأستمتع بالماجستير والقنابل تطاردنا فى جميع ساعات الليل والنهار .
ـ لاتكن متشائما لهذه الدرجة ، تفاءل . فى أعماق نفسى شعور غامض لا أعرف له سببا ، بأننا سننجو من أخطار هذه الحرب ونظل على قيد الحياة . وهذه . بطبيعة الحال . ستكون آخر الحروب . لن تنشب بعد ذلك أية حرب أخرى .

ـ ٥٤ ـ

فى الصباح ، كان مختار جالسا وحده فى غرفة المعيدين بالقسم . دخل شريف وصافحه بحرارة . فتعجب مختار ، إذ أن من عادة شريف أن يكتفى بإيماءة من رأسه وابتسامة عند دخوله الغرفة . جلس شريف فى مكانه وفتح حقيبته وأخرج منها كتابا فتحه أمامه وبدا شارد الذهن ناظرا إلى نافذة الغرفة .
التفت نحو مختار مرتين ، وفى كل مرة يبدو وكأنه يود أن يقول شيئا ثم يحجم عن ذلك . وأخيرا قال وهو يقلب صفحات الكتاب :
ـ هل سمعت آخر الأنباء ؟.
ـ أخبار ؟ يبدو أنها أخبار مؤلمة كالعادة .
ـ درية تم عقد قرانها .
خيل لشريف أنه سمع صوت تحطّم قلب مختار وكأنه إناء من زجاج . غمغم مختار قائلا وقد شعر بانهيار :
ـ تم عقد قرانها ؟.

ـ أجل . ولماذا اصفرَّ وجهك هكذا ؟ أما زلت تفكر فيها ؟.

ـ اصفر وجهى ؟ لا . لم يصفرّ وجهى . ومن الذى حمل إليك هذا النبأ ؟.

ـ درية زارتنا فى البيت أمس وقالت لمريم . ودَخْلَتها يوم الخميس القادم .

بذل مختار ما فى وسعه ليبدو متماسكا ولكنه لم يستطع . فلقد خرجت الكلمات من بين شفتيه متقطعة وكأنه كان يعدو ، قال :

ـ تزوَّجَت من ؟ هل هو أحد الأساتذة ؟.

ـ لا ، بل شخص من خارج الجامعة .

ـ كنتَ قد ذكرت لى أنها ستتزوج عبد الرحمن نصر .

ـ قلت لك إن هذه البنت تُحكِّم عقلها لا عاطفتها كانت تنتظر العثور على شخص غنى . هذا النوع لا يصلح لك . أنت محتاج لزوجة من نوع خاص . تكون شاعرية ورقيقة مثلك .

ـ هل تعرف اسم هذا الرجل ؟.

ـ وفيم يُهِمك اسمه ؟ أنا شخصيا لم أهتم بمعرفة اسمه . كل ما قالَتْه عنه درية هو أنه مقاول غنى . كأبيها ، وفى مثل سن أبيها ، وسيسافران معا إلى إحدى الدول العربية . الكويت أو العراق ، أو شىء كهذا .

قال مختار بدهشة :

ـ كبير السن ؟! أهذا هو الذى قَبِلت درية الزواج منه أخيرا ؟.

ـ أجل يا سيدى ، هذا هو الذى وافَقت على الزواج منه ، كل ما يهمها الفلوس .

ـ أنا لا أريد البقاء فى هذه الكلية .

قال شريف بدهشة :

ـ ولماذا ؟.

ـ كل مكان فى الكلية يذكرنى بدرية ، وأنا أريد أن أنساها . ولذا فلقد قررت ترك هذه الكلية .

ـ درية انتهت من الدراسة وحصلت على البكالوريوس ولن تراها بعد الآن وسوف تنساها مع مرور الأيام ، ولا داعى لترك الجامعة وتغيير مجرى حياتك من أجل بنت لن تشعر بوجودك ولن تخطر على بالها .

ـ أنت تعلم أن الحكومة ستنشئ جامعة فى الإسكندرية هذا العام ، ونجيب الهلالى باشا وزير المعارف متحمس لهذه الفكرة ، سأطلب نقلى إلى كلية علوم الإسكندرية .

ـ إذا طلبتَ نقلك إلى جامعة الإسكندرية فسأنتقل معك ، سيكون المجال هناك أكثر اتساعا ، ولكننى خائف من شىء

ـ ماهو ؟.

ـ أنت تعلم بشاعة الغارات الجوية فى الإسكندرية فى الوقت الحاضر .

ـ لم يعد يهمنى ما إذا مت أو عشت . تساوى لدىَّ الآن الموت والحياة . سأذهب إلى الإسكندرية مهما كانت الظروف .

ـ وسأنتقل معك . الأعمار بيد الله . «أينما تكونوا يدرككم الموت . ولو كنتم فى بروج مشيدة» .
ـ وهل تقبل مريم الانتقال إلى الإسكندرية ؟.
ـ كل ما يهم مريم هو وجودها معى فى أى مكان . تقول لى دائما إننى لو ألقيت بنفسى فى البحر فستلقى بنفسها خلفى دون أى تفكير .
ـ أنت إنسان سعيد الحظ يا شريف . كنت أتمنى أن تكون درية مثل مريم .
ـ لا تحزن . أنت تستحق كل خير . وأنا واثق من أن الله سيعوضك ويوفقك إلى إنسانة أفضل من درية .

قال مختار بصوت متهدج :
ـ لا أظن أننى سأفكر فى الزواج بعد ذلك . سأظل وحيدا فى الدنيا
ـ ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ سوف تتزوج وتسعد فى زواجك . من هى درية هذه ؟ ملايين الفتيات الفضليات يتمنين الزواج من شخص مثلك . لو كنت فى مكانك لتزوجت على الفور .

ـ ٥٥ ـ

ظل مختار طوال اليوم يفكر فى موضوع نقله إلى جامعة الإسكندرية كانت المشكلة الوحيدة التى تشغل باله هى وجود حلمى معه فى البيت واعتماده عليه .

لا يستطيع حلمى الحياة بمفردة . لابد من بقائى معه . هل يقبل الأنتقال معى إلى جامعة الإسكندرية ؟ لا أعتقد ذلك ، فهو يخاف من الغارات الجوية وهى فى الإسكندرية أبشع منها فى القاهرة ، ولو حدث له شيء ، لا قدَّر الله ، فسأكون أنا المسئول عن ذلك . أنا لا أحب أن أكون سببا فى عذابه ، ولكن لماذا لا يبقى بالقاهرة ويعيش فى هذا البيت ؟ لقد عشت أنا طوال فترة الدراسة دون أن يكون معى أخ أو أخت . فى إمكانه أن يفعل كما فعلت أنا . يشترك مع بعض زملائه ويعيشون معا فيصبح أكثر خبرة بالحياة ويعتاد الاعتماد على النفس . ولكن عبد الحميد غريب كان يساعدنا . لن يجدو هو من يساعده . على أية حال هذه ليست معضلة . عشرات الطلبة يعيشون بمفردهم بعيدين عن أهلهم

عندما عاد مختار إلى منزله كانت فاطمة جالسة بمفردها بالبهو . لاحظ وجود بقايا دموع فى مآقيها . شعر بعطف شديد عليها فقال :
ـ ما بك يا فاطمة ؟ هل كنت تبكين ؟.
ـ كلما جلست وحدى ، أفكر غصباً عنىّ فى أشياء محزنة .
ـ لا تحزنى يا فاطمة ، عسى أن تكرهى شيئا وهو خير لك . وعسى أن تحبى شيئا وهوشرٌّ لك . الإنسان لا يعرف الغيب .
ـ لو حدث لك مثل ما حدث لى لحزنت . .

ثم تذكرت شيئا فأردفت قائلة .
ـ ساعي البريد أحضر لك خطابا وضعته على مكتبك .
أسرع مختار بإحضار الخطاب . فتحه وبدأ قراءته ثم قال :
ـ إنه من حامد أخي
ـ ماذا يقول ؟.
غمغم مختار قائلا :
ـ الحمد لله . فُرِجَت . أمر هام كان يشغل فكري . ولكن ربنا سهلها يقول في خطابه إنه انتقل إلى القاهرة وسيسكن معنا هنا هو وزوجته إلى أن يعثر على شقة
ـ وهل سيتسع البيت لنا جميعا ؟
ـ أجل . لأنني أنا لن أكون هنا .
قالت فاطمة بدهشة وفزع :
ـ هل ستترك له البيت ؟.
ـ أجل . سأترك لكم البيت لأنني سأنتقل من القاهرة .
في هذه اللحظة فتح باب البيت ودخل حلمي . قالت فاطمة :
ـ تعال اسمع ياحلمي مايقوله مختار :
قال حلمي لمختار .
ـ ماذا تقول ؟.
ـ سأنتقل إلى الإسكندرية .
قال حلمي بدهشة :
ـ لماذا ؟ هل ستترك الجامعة ؟
ـ لا . لن أترك الجامعة . ستُنشأ جامعة جديدة في الإسكندرية وسأنتقل إلى كلية العلوم بالجامعة الجديدة .
ـ وهل هذا النقل مفروض عليك ؟.
ـ لا . أنا الذي طلبت نقلي .
قال حلمي وقد شعر بخيبة أمل :
ـ ولماذا طلبت نقلك ؟.
ـ لقد قررت ذلك ولا يمكنني الرجوع في قراري .
ـ وأنا ؟ ألم تفكر فيَّ ؟ هل سأظل هنا بمفردي ؟.
ـ حامد أخي سينتقل إلى القاهرة ويسكن هنا هو وعائلته .
ـ لماذا فعلت ذلك ؟ لماذا ؟ كنا سعداء معا .
ـ ستكون سعيدا مع حامد كما كنت سعيدا معي ولن تشعر بأي تغيير .

ـ كنت مرتاحا لوجودك أنت معى

حانت من مختار التفاتة نحو فاطمة فوجدها تبكى فقال بفزع .

ـ مابك يا فاطمة ؟ لماذا تبكين ؟.

قالت فاطمة بصوت مختنق بالبكاء :

ـ لن أمكث هنا سأعود إلى البلد . لم أقبل البقاء هنا إلاّ من أجلك أنت .

قال حلمى :

ـ لماذا عملت هذه العملة السوداء ؟

ـ توجد ظروف معينة تدفع الإنسان لاتخاذ قرارات مهمة فى فترة من فترات حياته

ـ وماهى هذه الظروف التى تراها أقوى من الموت فى الغارات الجوية الرهيبة التى نسمع عنها فى الإسكندرية ؟

ـ توجد ظروف أقوى من الموت .

ـ ٥٦ ـ

شعر حلمى بتغيير جذرى فى حياته بالقاهرة . فلقد عادت فاطمة إلى القرية . وأقبل حامد وزوجته فتحية ليعيشا فى الشقة مع حلمى بعد أن سافر مختار إلى الإسكندرية . ولأول مرة شعر حلمى بالغربة أصبح يقضى معظم الوقت داخل غرفته لايغادرها إلا عند خروجه من البيت أو عندما ينادونه لتناول الطعام أو عند حدوث غارة جوية . ولايدرى لماذا كان يشعر بشىء من الأمان فى أثناء الغارات الجوية عند وجود مختار وفاطمة مع علمه بأنهما كانا أشد فزعا من حامد وفتحية اللذين فى كثير من الأحيان يرفضان مغادرة الشقة والنزول إلى المخبأ فى أثناء الغارات . ولايشعران أحيانا بتلك الغارات . فلا يوقظهما من نومهما صوت زمارة الإنذار أو طلقات المدافع فى حين أن مختارا فى بعض الليالى كان يصحو من نومه قبيل انطلاق زمارة الإنذار وكأنه استشعر الخطر قبل وقوعه ، وذات مرّة غادر الفراش ولم يشعر بنفسه إلاّ عندما وصل إلى المخبأ فلم يجد أحدا ووجد الأضواء تنبعث من بعض نوافذ المنازل فعاد إلى فراشه واستأنف النوم !.

عثر مختار فى الإسكندرية على شقة فى عمارة ضخمة فى كليوباترا الحمامات تطل على شريط الترام . وكان مثار تندّر بين زملائه ووصفوه بالتهور والتبذير لأنه أجر شقة فاخرة بمبلغ أربعة جنيهات وخمسة وعشرين قرشا ، فى حين أن جميع زملائه فى الكلية من أعضاء هيئة التدريس والمعيدين لم يكن إيجار مساكنهم يزيد على جنيهين ، فلقد عثر شريف ، مثلا ، على شقة ممتازة بمنطقة سيدى جابر بالقرب من البحر إيجارها مائة وثمانون قرشا . اعتنى مختار بتأثيث شقته واشترى مزيدا من الأثاث والتحف التى يهوى اقتناءها . قال لشريف :

ـ سأنتظرك مساء اليوم لترى شقتى الجديدة .

قال شريف بإصرار :

ـ بل أنت الذى ستحضر للعشاء عندنا غدا مريم مصممة على ذلك وستغضب لو لم تحضر .

ـ أنا لا أحب أن أغضبها . أشكرها وأشكرك على هذه الدعوة الكريمة .

ـ تشكرنا على ماذا ؟ نحن اللذين نشكرك على تلبية دعوتنا . أعتقد أنك تشعر بوحشة وتعانى من الوحدة .

ـ سأعتاد الوحدة . كل شىء بالتعود .

ثم أردف قائلا بحزن :

ـ كان من المفروض أن تكون معى درية .

ـ أمازلت تفكر فى هذه السيدة ؟ لقد انتقلْتَ إلى الإسكندرية فى هذه الأيام السود لتبتعد عن الذكريات الحزينة فتنقل معك الذكريات ؟ لماذا انتقلت إذن ؟.

ـ أنت تعلم أن التذكر والنسيان لاسيطرة للإرادة عليهما . لقد رأيتها أمس فى الحلم ؟.

قال شريف بغضب ونفاد صبر :

ـ ولماذا تراها فى الحلم ؟ لقد أصبحت الآن سيدة متزوجة ولاحق لك فى رؤيتها فى أحلامك .

قال مختار بدهشة :

ـ لاحق لى فى رؤيتها فى الحلم ؟!.

ـ أجل . هذا يدل على أنك تفكر فيها . ولو لم تفكر فيها لمارأيتها فى الحلم .

ـ شىء عجيب . وهل فى استطاعة أى إنسان السيطرة على أحلامه ؟

قال شريف ومازالت نبرة الغضب فى صوته :

ـ ماذا رأيت فى الحلم ؟

ـ رأيتها واقفة فى بهو كبير فى مكان لا أعرفه يموج بالبشر ولكننى لا أسمع فيه صوتا . كصورة تعرضها آلة سينمائية تعطل فيها جهاز الصوت كنت أرى الناس واقفين يتحدثون ويضحكون بالقرب منى فى صمت كصمت الفضاء اللانهائى فاعتقدت أننى فقدت السمع ، ولكن ظهرلى خطأ اعتقادى هذا عندما اقتربت منىّ وقالت لى إنها أصبحت أرملة . ولم أسمع من الأصوات التى حولى سوى صوتها . عند ذلك فقط لاحظت أنها ترتدى ثوبا أسود . ماتفسير هذا الحلم ؟.

ـ تفسيره زفت وقطران ، أنت تتمنى فى أعماق نفسك موت زوجها . هذا هو تفسيرى له .

ـ ولكن هذه الفكرة لم تخطر على بالى إطلاقا . أنا لا أتمنى وفاة زوجها فهو لاذنب له ، ولا أتمنى موت أى إنسان

ـ أنت نفسك لاتشعر بذلك . إنها الأفكار السجينة داخل ذلك الكهف المظلم الذى يسمونه العقل الباطن . ولا تنطلق منه إلاّ عند النوم .

قال مختار بانفعال :

ـ لا . هذا غير صحيح . لاتجعلنى أكره نفسى .

رحبت مريم ترحيبا شديدا بمختار عند زيارته لهم فى الموعد المتفق عليه جلسوا جميعا فى البهو وجلست سامية ابنة شريف ملتصقة بأمها محتضنة الدمية الضخمة التى أحضرها لها مختار وأخذت تربت على ظهرها .

قال شريف لمريم :

ـ لم يقبل المجيء للعشاء الليلة إلاّ بعد أن قلت له إن مريم ستغضب إن لم يحضر .

قالت مريم لمختار :

ـ ولماذا لاتحضر؟ إنه بيتك . فأنت وشريف أخَوان

وما كادت تنطق هذه الجملة حتى انطلقت زمارة الإنذار . كانت هذه أول مرّة يسمعون فيها تلك الزمارة فى الإسكندرية . كاد قلب مريم ينخلع من مكانه وقالت :

ـ ماهذا ؟.

قال مختار محاولا أن يبدو رابط الجأش غير مبال ولو أنه موقن بأن وجهه قد شحب لونه :

ـ لاشىء ، إنها زمارة الإنذار .

قال شريف :

ـ جئنا للجد ، هيا بنا إلى المخبأ فى الدور الأرضى .

حملت مريم ابنتها سامية التى ظلت محتضنة دميتها . أطفأوا الأنوار وأغلقوا باب الشقة وأخذوا يهبطون السلم على ضوء بطارية فى يد شريف .

كان المخبأ ضوءه بمصباح محجوبٌ ضوءه بورقة زرقاء نصف شفافة . وكانت به بعض الكراسى التى احتلها الذين أسرعوا بالنزول ، أما باقى السكان . ومن بينهم شريف ومختار ومريم . فلقد جلسوا على أرض المخبأ العارية من أية سجادة أو حصيرة . احتضنت مريم ابنتها وظلت سامية محتضنة دميتها . سمعوا صوت مدافع مختلطا بانفجار قنابل قريبة جعلت هواء المخبأ يتخلخل فسقط البعض من فوق الكراسى وانزلق الجالسون على الأرض نحو المخبأ انزلاقا لاإراديا نتيجة لهذا التخلخل ، وعلا صراخ عدد كبير من الأطفال ووجدت مريم نفسها تصيح قائلة :

ـ ياساتر يارب ، يارب استر . ارفع مقتك وغضبك عنا يارب .

علت الضجة فى المخبأ وتداخلت الأصوات مختلطة بالبكاء والصراخ . فغمغم مختار قائلا :

ـ الغارات هنا شنيعة .

دوى صوت قنابل فاهتز البيت . قال شريف :

ـ القنابل قريبة من البيت . لم أكن أحب أن يحدث ذلك فى أول ليلة تزورنا فيها يامختار .

استمر انفجار القنابل وارتفع صراخ الأطفال وبعض النساء . صراخا ينم عن رعب شديد . وصاحت مريم قائلة :

ـ استر يارب ، بحق سيدى أبو العباس وسيدى جابر ، استر يارب .
قالت طفلة :
ـ أنا خائفة ياماما ، أنا خائفة . سنموت ياماما .
اشتدت فرقعة القنابل مختلطة بصوت تحطم زجاج . ارتفعت أصوات تقول :
ـ ياساتر .
ـ استر يارب .
قالت مريم وقد اشتد احتضانها لابنتها التى كانت تبكى :
ـ يامن ترانى ولا أراك يارب . الطف بنا ولاتعذبنا فلاذنب لنا .
قال رجل :
ـ القنابل ستسقط فوق البيت
انفجرت قنبلة وكأنها أمام باب البيت وتحطم مزيد من الزجاج فازدادت الضجة وعلا صراخ الأطفال والنساء وبعض الرجال وترددت فى أماكن مختلفة من المخبأ أصوات تقول :
ـ يا سيدى أبو العباس .
ـ يامغيث يارب .
ـ يا أرحم الراحمين ارحمنا .
وعادت مريم تصيح قائلة :
ـ ارفع مقتك وغضبك عنا يارب ، يارب ارفع مقتك وغضبك عنا .
اشتدت زمجرة القنابل وارتطمت الكراسى ببعضها وانبعثت صرخات هستيرية ملأت المخبأ بالرعب .
غمغم شريف محدثا مختارا :
ـ هل تعجبك غارات اسكندرية هذه ؟ كل هذا من أجل علاوتين استثنائيتين لم نقبض منهما مليما واحدا حتى الآن .
ـ أنت تعلم جيدا أننى لم أنتقل إلى الإسكندرية من أجل علاوتين أو ثلاثة . أنت تعلم لماذا أتيت .
ـ يبدو أننى أخطأت فى هذا النقل . لقد سعينا إلى جهنم بأرجلنا .
استأنفت المدافع طلقاتها مختلطة بانفجار قنابل . صاحت مريم قائلة :
ـ ياساتر يارب ، يا ستّار . لماذا كل هذا يارب ، لماذا ؟ نحن لا ذنب لنا يارب ، يا أرحم الراحمين . يا أرحم الراحمين .
صاح شريف قائلا بانفعال وقد فقد السيطرة على أعصابه :
ـ ماهذا يامريم ؟ ماذا تركتِ للأطفال الصغار ؟.
قالت مريم باكية :
ـ أعصابى تعبت ، لا أستطيع احتمال كل هذا العذاب .
بعد نحو عشر دقائق بدأت أصوات المدافع تخفت تدريجيا مما يدل على انطلاقها من أماكن بعيدة عن البيت ، ثم هدأت ولم تعد يسمع لها صوت ، وبعد نحو ربع ساعة من الصمت انطلقت زمارة الأمان .

- ٥٨ -

على مائدة الإفطار ، فى صباح يوم من أيام شهر أغسطس . بدا شريف مهتما بقراءة الصحيفة بشكل غير عادى . قالت مريم :

ـ اترك الصحيفة ، لاتقرأ فى أثناء الأكل لئلا توجعك معدتك . يجب أن تقلع عن هذه العادة الذميمة .

ولكن شريف لم يسمع حرفا واحدا مما قالته مريم . ورُوِّعَت عندما رأته مكتئبا بدرجة لم تعهدها فيه فى أقسى اللحظات التى مرَّت بهما . فقالت بصوت مرتجف :

ـ ماذا حدث ؟ ماذا قرأت فى الصحيفة ؟

ازداد رعبها عندما قال وعيناه مازالتا مصوبتين نحو الصحيفة ؟.

ـ أخبار فظيعة . شيء بشع . الإنسان حيوان مفترس ، شرس ، متوحش .

ـ ماذا حدث ؟.

ـ أمريكا ألقت على اليابان نوعا من القنابل الرهيبة . قنابل ذرية .

ـ قنابل ذرية ؟ وهل هذه أقوى من القنابل التى يلقونها على الإسكندرية ؟.

ـ أقوى مليون مرّة . قنبلة ذرية واحدة من الممكن أن تنسف مدينة كالإسكندرية وتحيلها إلى رماد .

ـ أعوذ بالله . هل ألقت أمريكا هذه القنابل على اليابان ؟.

ـ نعم ، وفى لحظة واحدة مات ملايين الناس .

ـ تكون مصيبة لو ألقوا علينا إحدى هذه القنابل .

ـ شيء مخيف . لاحول ولا قوة إلا بالله . فقدت الرغبة فى الأكل . سأقوم لأصلى ركعتين .

غمغمت مريم قائلة وهى تمسح دموعها :

ـ لماذا يعذب الناس بعضهم بهذه القسوة ؟ لماذا كل هذا ؟.

- ٥٩ -

كان شريف فى هذه اللحظة يبحث فى مكتبته عن كتاب نسى مكانه ، وكانت مريم فى المطبخ مشغولة بعمل كفتة جمبرى عندما دق جرس الباب بإلحاح . أسرع شريف يفتح الباب وفوجئ بمختار واقفا يلهث مما يدل على أنه قفز درجات السلم فى بضع ثوان . كان منظر مختار بأنفاسه المتلاحقة يوحى بنبأ هام ، كما أن الابتسامة التى تملأ نصف وجهه توحى بأن هذا النبأ مفرح ، ولكن ماسمعه شريف من مختار لم يكن يخطر له على بال ، كان آخر مايتوقع سماعه .

ـ مختار ؟ أهلا وسهلا ، تفضل . مابك ؟.

ـ هل سمعتم الراديو الآن ؟.

ـ لا ، لم نفتح الراديو اليوم . هل أذيعت أنباء هامة ؟
ـ الحرب انتهت ! .
وقف شريف لحظة مشدوها لايصدق أذنيه ثم قال :
ـ الحرب انتهت ؟! غير معقول . أمتأكد أنت من ذلك ؟.
ـ أجل ، الحرب انتهت .
قاد شريف مختارا إلى غرفة الصالون ، جلس مختار وخرج شريف إلى البهو صائحا :
ـ يا مريم ، مريم .
أجابت مريم من بعيد قائلة :
ـ نعم يا شريف
ـ تعالى بسرعة .
أسرعت مريم بخطوات مضطربة متوقعة سماع كارثة . فوجئت برؤية مختار .
ـ مختار هنا ؟ أهلا وسهلا
قال شريف :
ـ الحرب انتهت يامريم . مختار سمع الخبر فى الراديو .
قفزت مريم من الفرحة وكأنها طفلة فى العاشرة قائلة :
ـ أحقيقةٌ ؟ أنا لا أستطيع تصديق ذلك .
قال مختار :
ـ لم أكن أتصور أنكم لم تسمعوا الخبر حتى الآن .
اجتاحت مريم حالة هستيرية جعلتها تضحك وتردد هذه الجملة وكأنها لاتدرى ماذا نقول :
ـ لا أستطيع تصديق ذلك . لا أستطيع تصديق ذلك ..
جلس شريف وجلست مريم . قال شريف مخاطبا مريم :
ـ ها هى ذى الحرب قد انتهت ومازلنا على قيد الحياة .
قالت مريم وقد بدأت تخشى أن تكون فى حلم :
ـ مازلت أتوقع الغارات الجوية فى أية لحظة . عندى اعتقاد بأننى سأموت فى غارة جوية .
قال مختار :

ـ لن تحدث غارات جوية بعد الآن . انتهت الحرب بقنابلها وغاراتها ومخابئها . كان من المفروض أن أكون الآن سعيدا ، فهذا هو اليوم الذى طالما انتظرته .

قالت مريم :
ـ أنا أعرف السبب .
ضحك مختار وقال :
ـ لا ، إنه شىء آخر غير الذى فى ذهنك .

ـ وماهو ياترى ؟.

ـ شيء أحزننى ، ويخيل إلىَّ أنه سيحزن شريفا أيضا .

نظرت إليه مريم نظرة ترقّب وقال شريف :

ـ ياساتر يارب ، وما هو هذا الشيء ؟.

ـ الحكومة ألغت جميع العلاوات الاستثنائية التى تمت فى عهد الوفد . ونتيجة لذلك فلقد ألغيت العلاوتان الاستثنائيتان اللتان لم تلمسها يدنا حتى الآن .

صاح شريف قائلا :

ـ غير معقول ! إذن فلقد جئنا إلى الإسكندرية وألقينا بأنفسنا إلى التهلكة والرعب الدائم بلا مقابل .

قالت مريم وفرحتها بانتهاء الحرب تطغى على كل ماعداها :

ـ لاتحزنا ، نحمد الله الذى نجانا من الغارات الجوية .

قال شريف بانفعال :

ـ والعلاوتان الاستثنائيتان ، هل طارتا ؟.

قالت مريم والابتسامة لم تغارق ثغرها :

ـ ولايهمك ، أخذتا الشر وراحتا . ما رأيك يادكتور مختار ، أليس من الواجب أن نحتفل الليلة بانتهاء الحرب ؟.

ـ أين نحتفل ؟.

ـ هنا فى البيت ، نتعشى معا . عندنا كفتة جمبرى التى تحبها .

ـ أنا ضعيف إزاء كفتة الجمبرى ، لايمكننى مقاومتها .

اتجهت مريم نحو المطبخ ، وأسرع شريف بفتح الراديو وجلس هو ومختار ينصتان إلى أغنية محمد عبد المطلب التى كانت الإذاعة قد أعدتها لهذه المناسبة ، وفى مطلعها تقول الأغنية : «الحرب خلاص غنوا معانا وقيدوا الأنوار ...» .

ـ ٦٠ ـ

كان اليوم يبدو عاديا كغيره من الأيام ، وكان الدرس العملى لمختار يبدأ فى العاشرة . ولكنه كعادته فى أول كل شهر ذهب إلى الكلية مبكرا . استلم مرتبه من الصراف وصعد إلى غرفته فلم يجد أحدا سواه بالقسم سواء من المعيدين أو أعضاء هيئة التدريس . بعد نحو نصف ساعة توالى حضور باقى الزملاء ووصل شريف فى نحو العاشرة .

دخل شريف غرفة مختار فوجده جالسا يقرأ درس العملى ، ودون تحية أو سلام قال :

ـ يبدو أن الدراسة لن تنتظم اليوم فى الكلية .

ـ وكيف عرفت ؟.

ـ الطلبة احتلوا مدرج على إبراهيم ويتبارون فى إلقاء الخطب الحماسية .

فى هذه اللحظة سُمع صوت طلقات نارية ووقع أقدام عديدة فوق درجات السلم المؤدى إلى قسم علم الحيوان بالدور الثالث . قال شريف :

ـ هيا بنا نرى ماذا يحدث .

قال مختار الذى شحب لونه :

ـ لا داعى للذهاب ، أفضل البقاء هنا بعيدا عن ضرب الرصاص

رأى مختار سعد الدين صبحى مهرولا نحوهما فى الممر المجاور لمعمل علم الحيوان فنظر إليه وكأنه ينظر إلى شبح وقال لشريف :

ـ ما الذى أحضر سعدا هنا ؟.

نظر إليه شريف بدهشة وقال :

ـ تبدو وكأنك غير موجود بالكلية .

ـ كيف ؟.

ـ ألا تعلم أن سعدا انتقل إلى جامعة الإسكندرية منذ نحو شهر معيدا بقسم الجيولوجيا ؟.

ـ لا ، لا علم لى بذلك

علا صوت إطلاق الرصاص وبدأ سعد مجهدا يلهث من تأثير الخوف وسرعة صعود درجات السلم ، بادره مختار قائلا :

ـ ماذا حدث ياسعد ؟.

قال سعد بصوت متقطع :

ـ حدثت مصيبة كبيرة .

قال مختار وقد أسرعت دقات قلبه :

ـ ماذا حدث ؟.

ـ فى أثناء تجمّع البوليس أمام باب الكلية ، صعد أحد الطلبة فوق سطح المبنى المطل على الشارع وأطلق رصاصة على ضابط بوليس .

قال مختار بلهفة :

ـ وماذا حدث للضابط ؟.

ـ مات على الفور ، ونتيجة لذلك أصيب رجال البوليس بحالة هستيريا فأخذوا يطلقون الرصاص على الطلبة عشوائيا فقتلوا تلميذا من مدرسة محرم بك الابتدائية ، ولقد استولى الطلبة على جثة التلميذ وحفروا حفرة فى فناء الكلية جنب الحديقة ودفنوه فيها .

غمغم مختار قائلا :

ـ المسألة خطيرة ، فى غاية الخطورة .

قال سعد :

ـ البوليس الآن يحاصر الكلية من جميع الجهات ولايسمح بدخول أو خروج أى شخص.
قال مختار :
ـ إذا كان الأمر كذلك فمن احتمل أن يدخل البوليس الكلية ويطلق علينا الرصاص
صاح شريف قائلا :
ـ هذا غير معقول . إن مريم الآن فى انتظار المرتّب

نزل الثلاثة إلى الدور الأرضى ليكونوا على مقربة من غرفة عميد الكلية فوجدوا الدكتور جمال خارجا منها سأله مختار بلهفة :

ـ ماهى الأخبار؟ ماذا يقول العميد؟.
ـ الأخبار لاتسر.
قال شريف :
ـ كيف؟.
ـ يقول العميد إن النائب العام سيحضر من القاهرة للتحقيق فى مصرع ضابط البوليس وستظل الكلية محاصرة حتى ينتهى التحقيق
قال سعد :
ـ ومتى سينتهى التحقيق؟.
قال الدكتور جمال :
ـ هذا شىء علمه عند الله . من يدرى؟ قد يستمر التحقيق حتى الصباح
قال شريف بفزع :
ـ ومريم؟ هل تبيت وحدها فى البيت مع سامية؟.
قال سعد :
ـ وماذا يحدث لو باتت وحدها فى البيت؟ هل هى طفلة صغيرة؟.
قال شريف :
ـ أجل . إنها تبدو أحيانا وكأنها طفلة صغيرة . لا حول ولاقوة إلا بالله.
قال سعد :
ـ ألديك مانع يادكتور جمال من أن نحضر معك إلى غرفتك ونغلق علينا الباب فهى بعيدة عن الخطر؟.
ـ أهلا وسهلا ، تفضلوا ، ولو أن غرفتى ليست بعيدة عن الخطر كما تتصورون . فلقد اخترقت رصاصة إحدى نوافذ الغرفة وكسرت لوحاً زجاجيا.
قال مختار بفزع :
ـ رصاصة اخترقت النافذة؟ هذه كارثة . وماذا نصنع؟.
قال الدكتور جمال :

ـ تعالوا ونحن وحظنا . الأعمار بيد الله .

ساروا نحو غرفة الدكتور جمال وصوت طلقات الرصاص لايتوقف وهتافات الطلبة تزلزل المكان مناديين بسقوط الحكومة . قال شريف :

ـ ما سبب هذه المظاهرات ؟

قال الدكتور جمال :

ـ يريدون إسقاط الحكومة .

قال شريف :

ـ هذا واضح . ولكن لماذا ؟.

ـ لم ترفع المرتبات كما وعدت ارتفعت الأسعار ولم ترتفع المرتبات .

قال سعد :

ـ إذا كان الأمر كذلك فلهم الحق فى التعبير عن المعاناة التى تسحقهم .

وصلوا إلى غرفة الدكتور جمال فدخلوها بحذر وكأنهم يتوقعون انفجار قنبلة فى أحد أركانها . وما كادوا يجلسون حتى دق جرس التليفون فالتقط الدكتور جمال السماعة وهو يغمغم قائلا :

ـ لابد أنه العميد . ألو ، أهلا وسهلا . أنا هنا فى أحسن حال أنصت إلى موسيقى إطلاق الرصاص . لا . الرصاص بعيد عنى . كيف حالِك أنتِ ؟ أجل . اطمئنى من هذه الجهة . لا أحد يدرى . قلت لك اطمئنى من هذه الجهة . لن يُسمح لنا بمغادرة الكلية إلا بعد انتهاء التحقيق ، أجل . سيحضر النائب العام بنفسه من القاهرة لإجراء التحقيق . لاتقلقى . إنها فى الحفظ والصون .

وضع السماعة وانفجر ضاحكا . قال مختار :

ـ علام تضحك يادكتور جمال . هل فى هذا مايستوجب الضحك ؟.

ـ لا ، أنا أضحك على شيء آخر .

ـ ماهو ؟.

ـ زوجتى تريد الاطمئنان على المرتب فقلت لها إنه فى الحفظ والصون . هذه رابع مرّة تتصل بى تليفونيا لتطمئن على المرتب . لقد ذهبت إلى غرفة العميد هرباً منها .

انفجر الجميع ضاحكين واختلطت ضحكاتهم بطلقات الرصاص . قال مختار :

ـ ياساتر . أصبحنا وكأننا فى ميدان قتال .

قال شريف :

ـ ولكنها حرب غير متكافئة . نحن لانملك سلاحا .

قال الدكتور جمال مبتسما :

ـ سوى الطوب .

قال سعد :

ـ لو لم يوجد سوى الطوب لكان أفضل . لاتنس أن مسدَّساً قتل ضابطا . وهذا هو سبب الحصار المضروب حولنا الآن .

مرت الساعات والرصاص يدوى خارج أسوار الكلية وهدير الهتافات يكاد يطغى على ضرب الرصاص وبدأ الجميع يشعرون بوطأة الجوع . قال مختار مخاطبا الدكتور جمال :

ـ ألا يوجد هنا من يعمل لنا فنجان شاى ؟

ابتسم الدكتور جمال وقال :

ـ حاولت ذلك عدة مرات . ظللت أضغط على زر الجرس فلم يستجب لى أى فرّاش ، الحابل مختلط بالنابل ولا أحد يوجد فى مكانه .

قال مختار :

ـ أكاد أموت جوعا . فأنا لم أتناول فى عشائى أمس سوى سلطانية زبادى ولم أتناول أى فطور هذا الصباح ، ولا مجرد فنجان شاى .

قال الدكتور جمال مبتسما :

ـ ما باليد حيلة .

قال سعد منفعلا :

ـ المصيبة أننا لانعلم متى سيطلق سراحنا من هذا السجن . لو علمت موعد السماح لنا بالخروج لارتاحت نفسى مهما كان الموعد متأخرا ، ولكن عدم علمى بموعد خروجى يكاد يقتلنى .

قال شريف :

ـ أنا فى الحقيقة لست قلقا على نفسى بقدر قلقى على زوجتى وابنتى . إننى أتصور زوجتى الآن جالسة تبكى حتى تورمت عيناها .

قال مختار :

ـ لماذا لم تتصل بها تليفونيا لتطمئنها ؟.

قال شريف :

ـ ماذا جرى لك يامختار؟ هل أثر عليك الجوع ؟ ألا تعلم أننا لانملك تليفونا ؟.

ـ ألا يوجد تليفون عند أحد الجيران ؟.

ـ لا اعتقد ذلك .

ـ ولماذا لم تتصل هى من أى تليفون فى أى مكان ، من عند البقال أو الجزار القريب من بيتكم ؟.

ـ لابد أنها حاولت الاتصال مرارا ولم تستطع فتليفون الكلية دائما مشغول .

قال سعد :

ـ كلنا قلقون . مختار هو الوحيد الذى لايوجد مايقلقه ، فلا زوجة له ولا أولاد .

قال مختار بصوت حزين :

ـ كنت أتمنى أن يوجد فى بيتى من أقلق عليه ويقلق علىَّ .

همس شريف فى أذن سعد قائلا :

ـ هل ستظل طوال حياتك هكذا ؟ لم يكن من اللائق ذكر هذه الكلمات لمختار . أنت تعلم ظروفه وحساسيته الشديدة لهذا الموضوع .

قال سعد :

ـ لن أستطيع البقاء جالسا هنا طوال الوقت . سأخرج لأرى ماذا يحدث .

وقام منفعلا وغادر الغرفة . قال مختار :

ـ أشعر بأمعائى تتمزق من الجوع . سأخرج للبحث عن أى طعام .

قال الدكتور جمال مبتسما :

ـ وأين ستجد الطعام ؟ الكلية محاصرة وممنوع دخول أى طعام .

قال مختار :

ـ هذا يعنى أن موتنا جوعا أصبح مؤكدا .

قال شريف :

ـ اطمئن . لن نموت جوعا من الممكن أن يظل الإنسان على قيد الحياة بلا طعام نحو خمسة أسابيع .

قال مختار :

ـ إنها مصيبة ، كارثة . لا أدرى كيف نتصرف

فى هذه اللحظة اقتحم الغرفة صبحى تادرس المعيد بقسم الفيزياء فتوقعوا سماع مزيد من الأخبار المزعجة ولكنه جلس وقال :

ـ الطعام ينهال على الكلية من المنازل المجاورة .

قال مختار بلهفة :

ـ طعام ؟ كيف ؟.

ـ إنهم يقذفون الخبز والدجاج والسمك وجميع أنواع الطعام ، ولكن الطلبة ينقضون عليه غير مبالين بطلقات الرصاص ويلتهمونه ولم أستطع الحصول على شىء .

وقف مختار متأهبا للخروج وقال :

ـ سنموت جوعا لو بقينا فى هذه الحجرة ، هيا بنا نلتقط رزقنا .

قال تادرس :

ـ لن تستطيع الحصول على كسرة خبز . الطلبة لن يتركوا لك الفرصة .

قال مختار :

ـ فلنجرّب حظنا .

خرج مختار من الحجرة ووقف فى الفناء الخارجى القريب من المساكن المطلة على الكلية ، فوجد قذائف الطعام ملفوفة جيدا فى ورق الصحف أو قطع القماش تلقى من النوافذ فينقض عليها الطلبة وكأنهم

سرب من الجراد يفترسون مافيها فى مثل لمح البصر. ووجد مختار نفسه عاجزا عن الحصول على أى طعام ، فذهب إلى قسم النبات عسى أن يجد شيئا يصلح للأكل وحد الدكتور عزيز فكرى رئيس القسم والدكتور الشيشيني والدكتور حجاب جالسين حول منضدة فى المعمل وأمامهم طبق به قرع مقطع إلى أجزاء صغيرة ومغموس فى كمية من الزيت .كانوا يأكلون بشهية دعوا مختارا ليأكل معهم فأسرع بلا تردد . صدم عندما اكتشف أن القرع غير مطهو . ولكنه استمر فى الأكل . وتعجب من استساغته لهذا القرع النيئ فى حين أنه فى الظروف العادية لم يكن يحب القرع المطهو.

عاد مختار إلى غرفة الدكتور جمال فأخبرهم بأن الطعام ينهال على فناء الكلية من المنازل المجاورة . وأنه رأى من بين هذا الطعام دجاجا وسمكا ورنجة وفطائر وجبنا من جميع الأنواع . ولكن الطلبة لم يتركوا له الفرصة ليلتقط ولو جناح دجاجة ، وانتهى به المطاف إلى قسم النبات حيث أكل ثلاث قطع من القرع الذى لم تمسسه نار

قال الدكتور جمال :

ـ ومن أين حصل قسم النبات على القرع ؟.

قال مختار :

ـ لابد أنه كان مُعدًّا للدراسة فى حصة العملى .

قال الدكتور جمال :

ـ من سوء الحظ أن قسم الفيزياء لاتوجد به أشياء صالحة للأكل .

قال سعد :

ـ ولا يوجد فى قسم الجيولوجيا سوى أحجار وحفريات . ألا يوجد عندكم يامختار حمام أو دجاج أو أرانب أو سمك أو جمبرى معد للدراسة ؟.

قال شريف :

ـ يوجد حمام كان من المفروض أن يدرس الطلبة تشريحه اليوم .

قال الدكتور جمال :

ـ ولماذا لاتحضر لنا زوجا أو زوجين أو ثلاثة أزواج نذبحهم وندفع ثمنهم ليشتروا غيرهم عندما تنتهى هذه الأزمة ؟.

قال مختار :

ـ ولكن لايمكننا أكل الحمام بدون طهو . من سيطهوه ؟.

قال الدكتور جمال :

ـ سأقوم أنا بهذه المهمة ، ليست مشكلة ، اذهب يامختار احضر لنا ولو زوج حمام واحد .

أسرع مختار بالذهاب إلى قسم علم الحيوان ، ثم عاد بعد نحو ربع ساعة . ابتدره سعد قائلا :

ـ أين الحمام ؟.

قال مختار :

ـ التهموا كل الحمام الذى فى القسم . لم يبق سوى الضفادع والصراصير .

صاح شريف قائلا :

ـ نأكلهم . إنهم يأكلون الضفادع فى فرنسا ولامانع من أكل الصراصير أيضا فى هذه الليلة السوداء .

قال الدكتور جمال :

ـ نموت من الجوع وأمرنا لله .

انتفض شريف واقفا وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا . قال الدكتور جمال :

ـ مابك ياشريف ؟ إنك تبدو كدجاجة تبحث عن مكان تضع فيه البيضة .

قال شريف وقد توقف عن المشى وجلس متوتر الأعصاب :

ـ أنا قلق على مريم . لست أدرى ماذا تفعل الآن . لقد جاوزت الساعة الثانية عشرة . بعد منتصف الليل .

قال مختار :

ـ يبدو أننا سنضطر للمبيت فى الكلية فى هذه الليلة .

صاح شريف قائلا :

ـ غير معقول . ستموت مريم إذا لم أذهب إلى البيت الليلة .

قال الدكتور جمال وبدا حزينا لأول مرة فى ذلك اليوم :

ـ ما باليد حيلة ياشريف . ماذا نصنع ؟ اسمع يا سيدى ، سأنام أنا على المكتب . وأنت ياشريف ضم هذين الكرسيين لبعضهما ونم فوقهما . وأنت يامختار نم على الكنبة الجلد هذه . وأنت ياسعد ..

قاطعه سعد قائلا :

ـ لاتحمل همى . سأبيت فى قسم الجيولوجيا . ولن يغمض لى جفن حتى الصباح .

وغادر الغرفة متجها نحو قسم الجيولوجيا . صاح شريف قائلا :

ـ وأنا . لن أستطيع النوم وأنا بعيد عن البيت .

قال الدكتور جمال مبتسما :

ـ زوجتى الآن فى منتهى القلق على المرتب . على أية حال لقد طمأنتها وقلت لها إن المرتب فى أمان الله .

ثم ضحك وقال :

ـ المهم أن يسمحوا لنا بمغادرة الكلية حتى لايظل المرتب إلى الأبد فى الحفظ والصون فى جيبى .

سمعوا وقع أقدام عديدة وضجة فأسرع الدكتور جمال وأقفل الغرفة بالمفتاح وغمغم قائلا :

ـ يبدو أن البوليس دخل الكلية .

شحب وجه مختار وأسرعت دقات قلب شريف ، وماكاد الدكتور جمال يعود إلى مكانه حتى سمع طرقا على باب غرفته فقال :

ـ يبدو أن البوليس سيهاجمنا ويريحنا من العذاب الذى نقاسيه فى هذه الدنيا الفانية

لم يستطع شريف السيطرة على مشاعره فطفرت الدموع من عينيه . قال له مختار :

ـ لا تحزن يا شريف . سنرجع إلى بيوتنا سالمين بمشيئة الله .

اشتد الطرق على الباب . وهم الدكتور جمال بفتحه . قال مختار بانفعال شديد :

ـ لاتفتح لهم .

قال الدكتور جمال :

ـ سيكسروه . كسر باب غرفتى لايحتاج لمجهود كبير .

استمر الطرق على الباب وسمعوا من خلفه صوتا يصيح قائلا :

ـ افتحوا يا جماعة . أنا سعد .

غمغم الدكتور جمال قائلا وهو ذاهب لفتح الباب :

ـ خيبك الله . نشفت دمنا .

اندفع سعد إلى الغرفة مبتسما وقال :

ـ أحمل لكم أخبارا سارة .

أنصتت إليه جميع الآذان . قال :

ـ سمحوا للمعيدين وأعضاء هيئة التدريس بمغادرة الكلية .

صاح شريف قائلا بفرح شديد :

ـ أحقيقةً ؟

لم تظهر أية تعبيرات على وجه مختار الذى ظل ناظرا إلى سعد بعينين تلمع فيهما الدموع وقال :

ـ كنت أفضل البقاء هنا معكم . سأشعر بقسوة الوحدة عند عودتى للبيت .

قال الدكتور جمال :

ـ سمحوا بالإفراج عن المعيدين وأعضاء هيئة التدريس فقط ؟ والطلبة . ما مصيرهم ؟.

قال سعد :

ـ سيبقون داخل أسوار الكلية حتى ينتهى النائب العام من التحقيق .

قال الدكتور جمال :

ـ وهل هذا يليق ؟ نخرج نحن ونذهب إلى بيوتنا ونترك الطلبة هنا ؟ سأتصل بالدكتور حسين فوزى لأعرف رأيه فى هذا الموضوع .

طلب من عامل التليفون توصيله بالعميد . قال :

ـ ألو . علمت يادكتور حسين بك أنهم سيطلقون سراحنا ولا يسمحون بخروج الطلبة فهل هذا صحيح ؟... هكذا ؟ أنا أوافق على هذا الرأى ... شكرا .

وضع الدكتور جمال السماعة واتجهت نحوه جميع الأبصار . ابتسم كعادته وظل مطرقا نحو مكتبه فترة من الزمن وقال :

ـ لقد رفض العميد وجميع أعضاء هيئة التدريس مغادرة الكلية قبل خروج الطلبة .

ظهرت ملامح الحزن على وجه شريف ولكنه لزم الصمت فى هذه اللحظة دخل أحد الطلبة يحمل فى يده لفافة ضخمة . قال له الدكتور جمال :

ـ ما هذا ؟.

ـ كفته وكباب . الطعام ينهمر كالمطر من المنازل المجاورة للكلية ولقد لاحظنا أن الاستاذ مختار حاول منذ ساعات الحصول على شيء من الطعام فى فناء الكلية فلم يستطع . وعلمنا أنكم رفضتم مغادرة الكلية قبلنا .

انقض الجميع على الطعام فأتوا عليه فى دقائق معدودة . بعد نحو نصف ساعة دق جرس التليفون فى غرفة الدكتور جمال . فالتقط السماعة وظل ينصت إلى المتحدث بعض الوقت ثم قال :

ـ شكرا . هذا خبر سار .

وضع سماعة التليفون ونظر إليه الجميع بلهفة وترقب لمعرفة هذا الخبر السار . ولكن الدكتور جمال تعمد أن يظل صامتا مبتسما إلى أن صاح شريف قائلا :

ـ ماهذا الخبر السار يادكتور جمال ؟

قال الدكتور جمال :

ـ هيا اذهبوا إلى منازلكم . لقد فكوا الحصار المضروب حول الكلية وسمحوا بخروج الجميع . الأساتذة والطلبة .

قال مختار :

ـ أخشى أن تكون مصيدة لاصطيادنا عند خروجنا من باب الكلية .

قال الدكتور جمال :

ـ هيا يامختار ولا داعى لهذه الهواجس ، سكرتيرة العميد قالت لى إن كل الكلية عرفت هذا النبأ ماعدانا ، يبدو أننا كنا كأهل الكهف .

قال شريف :

ـ الحمد لله . سأذهب لأصلى ركعتين .

قال الدكتور جمال :

ـ اعمل معروفا أرجوك . صل ماتريد من ركعات فى بيتك . هيا . أريد أن أغلق الغرفة .

قال سعد :

ـ نحمد الله على السلامة ياجماعة .

قال مختار :

ـ هذه الليلة شيبتنى .

قال شريف :

ـ لم يشب شعرك . ها هو ذا أسود كالفحم

قال سعد :

ـ هل من المعقول ألا يشيب شعرك من الغارات الجوية وتشيب فى ليلة واحدة كهذه ؟

ـ ٦١ ـ

كانت مريم تظن أن الخوف قد انتهى بانتهاء الحرب . ولكن ستار الغيب كان يحجب عنها مصيبة لم تكن فى الحسبان دخل عليها أشرف ذات يوم مكفهر الوجه وقال بدون أية مقدمات :

ـ اسمعى يامريم .

قالت مريم وقد استشعرت سماع خبر مرعب :

ـ نعم ؟.

ـ ابتداء من هذه اللحظة لابد من الحرص على تسخين الخبز قبل أكله . ولابد من غسل جميع الفواكة والخضروات بالبرمنجانات . والماء يجب غليه قبل شربه . وأى شخص يدخل البيت لابد من غسل وتطهير يديه . واعصروا ليمونا على كل شىء

كانت مريم تنصت مشدوهة لهذه التعليمات التى لاتعرف لها سببا . قالت بدهشة :

ـ ولماذا كل هذا العذاب ؟.

ـ الكوليرا منتشرة فى البلد .

ظلت مريم ناظرة إلى شريف فى ذهول وغمغمت قائلة :

ـ كوليرا ؟! هل انتهت الحرب لتفترسنا الكوليرا ؟ هل كتب علينا أن نعيش فى رعب مستمر ؟ عيشة تقصف العمر .

ـ المهم الآن أن تهتمى بتنفيذ التعليمات التى ذكرتها لك بحذافيرها . وراقبى سامية مراقبة دقيقة حذار أن تحضر لها الخادمة أى طعام من خارج البيت . حياتنا متوقفة على هذه الاحتياطات .

انفجرت مريم تبكى فصاح شريف قائلا :

ـ ماذا حدث ؟ هل كل شىء يبكيك ؟.

التزمت مريم بتنفيذ تعليمات زوجها بكل دقة كانوا يطالعون فى الصحف ويسمعون فى الإذاعة أخبار انتشار الوباء وعدد الوفيات التى كانت بالمئات يوميا . كان خطر الموت فى أثناء الغارات الجوية تسبقه زمارة تنبه الناس للذهاب إلى المخابئ لتجنب الأخطار . ولكن هذا الموت الجديد ينقض على الضحايا بلا سابق إنذار . عاش الناس فى هذه الفترة فى رعب أشد مما كانوا يرزحون تحت وطأته فى سنوات الحرب . كانت مريم تحمد الله على كل يوم يمر وهى وجميع من يهمها أمرهم على قيد الحياة .

بعد فترة مرت وكأنها أجيال عديدة بدأ يقل عدد الوفيات إلى أن تلاشى .

قال شريف لمريم :

ـ ها هى ذى الكوليرا قد اختفت ومازلنا أحياء . لقد نجانا الله من الحرب ومن الكوليرا .

ولكن مريم ظلت مدة طويلة تسير على التعليمات التى كانت تتبعها فيما يتعلق بالاحتياط الشديد من المرض . وذات صباح قالت مريم لزوجها وهو يهم بالخروج من البيت :

ـ انتظر . أريد التحدث معك .

ـ خيرا

ـ مصروف البيت الذى تعطيه لى لم يعد كافيا .

شحب وجه شريف وقال :

ـ أنا أعطيك كل المرتب .

ـ المرتب لم يعد يكفى لشراء الأشياء الضرورية . الأسعار فى ارتفاع مطرد . كنت أتخيل أن الأسعار بعد انتهاء الحرب ستعود إلى ماكانت عليه قبل الحرب ولكنها فى ارتفاع مستمر . أصبح ثمن أقة اللحم خمسة عشر قرشا .

قال شريف بدهشة :

ـ غير معقول ، إذا استمرت الحال كذلك فليس بمستبعد أن يصبح سعر أقة اللحم أربعين قرشا بعد عامين أو ثلاثة .

ـ تكون كارثة . .

ـ ٦٢ ـ

أصبحت سامية فى نحو التاسعة من عمرها ، جميلة الوجه ، خمرية اللون ، فى عينيها ابتسامة دائمة . كانت جالسة بجوار نافذة غرفتها تقرأ إحدى مجلات الأطفال . حانت منها التفاتة نحو الشارع فرأت منظرا استرعى انتباهها فنادت أمها :

ـ ماما ، ماما .

كانت مريم مشغولة بتنظيف الأثاث من التراب ، ردت على سامية قائلة :

ـ ماذا تريدين يا سامية ؟.

ـ تعالَى انظرى ماذا يعملون .

أسرعت مريم إلى سامية وسألتها :

ـ ماذا يعملون ؟.

ـ لماذا يوسّخون مصابيح الشوارع باللون الأزرق مرّة أخرى بعد أن مسحوه ؟.

ـ حتى لاترى طائرات الصهاينة المدينة عندما تطير فوقها فى الليل .

قالت سامية وقد شعرت بخوف :

.ــ هل سترجع الغارات والقنابل ؟.

ــ أجل .

ــ ولماذا ؟.

ــ لأننا الآن نحارب الصهاينة .

ــ وهل ستطول هذه الحرب ؟.

ــ لا ، لن تطول إن شاء الله .

عاد جو الحرب يخيم على البلاد ، وعادت زمارة الإنذار تنعق ليلا ونهارا . كان شريف جالسا ذات مساء ينصت للراديو عندما دخلت مريم الغرفة ، سألته :

ــ ماهى آخر الأخبار ؟.

ــ الأخبار لاتسر.

ــ كيف ؟.

ــ الصهيونيون طوقوا جزءا كبيرا من الجيش المصرى فى الفالوجة .

أنطلقت زمارة الإنذار لأول مرّة منذ بدء الحرب مع الصهيونيين . قالت مريم وكأنها لاتريد أن تصدق :

ــ أليست هذه زمارة الإنذار ؟.

ــ هى بعينها . لابد من النزول إلى المخبأ .

ــ سامية نائمة ولا أريد أن أوقظها ، لاداعى للنزول إلى المخبأ لو انتزعناها من الفراش فقد تصاب بانفلونزا .

ارتفعت الأصوات فى الشارع تنادى :

ــ اطفئوا النور ، اطفئوا النور .

قال شريف :

ــ اطفئى الأنوار بسرعة .

وبينما تطفئ مريم الأنوار دوت طلقات المدافع ، فأسرعت إلى غرفة سامية وهرول شريف خلفها وغمغمت مريم قائلة :

ــ أخشى أن تصحو سامية . لو صحت وسمعت صوت المدافع فستصاب بذعر شديد .

قال شريف :

ــ يخيل إلىّ أن خوفك أكثر من خوفها .

ــ يبدو أن الخوف قد كتب علينا طوال حياتنا . لم نعد نجد وقتا لالتقاط أنفاسنا .

عاد قصف المدافع بعد أن كان قد هدأ قليلا ، فالتصقت مريم بسامية وكأنها تمنعها من الاستيقاظ ،

ولكن هذه الحركة كانت سببا فى استيقاظ سامية التى تشبثت بعنق والدتها عندما اشتد قصف المدافع وأخذت تبكى فأحتضنتها مريم قائلة :

ـ لاتخافى ياحبيبتى من صوت المدافع ، إنها تدافع عنا وتمنع الطائرات من الاقتراب منّا .

ولكن سامية لم تقتنع بمثل هذه المهدئات ولم تطمئن إلا عندما سمعت زمارة الأمان وأضيئت الأنوار .

ـ ٦٣ ـ

فى وسط هذا الظلام لاح شعاع من نور . كان شريف جالسا فى غرفته يفحص بالميكروسكوب قطاعا فى كلية الضفدعة استعدادا لتدريسه لطلبة إعدادى الطب فى فترة العملى التى ستبدأ بعد ربع ساعة عندما دخل مختار وعلى فمه ابتسامة . سأله شريف عن سر تلك السعادة البادية على وجهه فقال :

ـ كنت فى إدارة الجامعة اليوم وسمعت أخبارا مفرحة .

قال مختار بلا اكتراث وعينه لم تفارق عدسة الميكروسكوب :

ـ خيرا ، من مدة طويلة لم أسمع خبرا واحدا يشرح القلب .

ـ إذَن فاسمع ها هو ذا خبر يشرح قلبك ، أنت وأنا وعلى عبد الكريم وفتحى البديوى والتهامى وعبد القادر فطين سنسافر فى بعثات للحصول على الدكتوراه .

ترك مختار الميكروسكوب واستدار نحو شريف بزاوية مقدارها نحو تسعين درجة وقال بلهفة :

ـ أحقيقةٌ ماتقول ؟ إياك أن تكون كاذبا فأصاب بانهيار عصبى .

ـ لن تصاب بانهيار عصبى ، فأنت تعلم أننى لا أمزح فى مثل هذه الأمور .

ـ ومن قال لك ذلك ؟.

ـ سكرتير عام الجامعة .

ـ وإلى أين سنذهب ؟.

ـ كلنا سنسافر إلى انجلترا ، فيما عدا التهامى وعبد القادر فطين ، فيسافران إلى إيرلندا ، لكن قل لى ، إذا سافرت فهل ستصحب معك مريم وسامية ؟.

ـ أجل ، لابد أن نسافر معا . وأنت يامختار لماذا لاتبحث لك عن فتاة طيبة تتزوجها وتأخذها معك إلى انجلترا ؟.

ـ ولماذا ؟ لاداعى لذلك . أنا لا أفكر فى الزواج .

ـ هل من أجل فتاة لاتستحق اهتمامك تحكم على نفسك بالبقاء طوال حياتك بلا زواج ؟.

ـ كرهت الزواج وكرهت كل البنات اللاتى فى الدنيا . كل همىّ الآن محصور فى الحصول على الدكتوراة ، لا أحب أن تشمت فىَّ درية .

قال شريف ساخرا :

ـ درية تشمت فيك ؟! لا أظن أن درية تفكر فيك على الإطلاق أو تهتم بمعرفة أى شىء عنك ،

بل أنت الذى ترهق نفسك بالتفكير فى فتاة لم تعد تذكر عنك شيئا .

قال مختار بانفعال :

ـ قلت لك إننى لا أفكر فيها .

ـ كلامك وروايتك الأخيرة يدلان على تفكيرك فيها . أنت غير قادر على نسيانها يامختار .

قال مختار وقد انخفض صوته إلى مايشبه الهمس :

ـ رأيتها أمس فى الحلم .

ـ ألم أقل لك ؟ وماذا رأيت ياسيدى ؟.

ـ رأيتها واقفة فوق برج عال فى وسط البحر مرتدية ثوبا أبيض طويلا وأنا أعوم حول البرج .

ـ ولكنك لاتعرف العوم .

ـ كنت أعرفه فى الحلم يا أخى ، وظللت أصارع الأمواج وأدور حول البرج باحثا عن باب أدخل فيه ، ولكننى لم أجد أى باب . كانت ناظرة إلىَّ من أعلى البرج مبتسمة . وشعرتُ بأننى أغرق . فأخذتُ أنادى بأعلى صوتى طالبا النجدة . ثم وجدت البرج قد تلاشى فجأة وحل محله هلال فى المستوى الذى كانت فيه قمة البرج ورأيتها جالسة فوق الهلال مرتدية سروالا فضفاضا وتهز ساقيها مبتسمة

ـ هلوسة ، لاتهلوس هكذا مرة أخرى .

ـ ٦٤ ـ

قبل السفر بيومين بينما كان شريف يسير فى شارع سعد زغلول رأى شيئا لم يكن يخطر على باله . لم يصدق عينيه فى بادئ الأمر وكان يريد أن يتجاهلها ويسير فى طريقه ، ولكنه وجد نفسه وجها لوجه أمام درية فاضطر لمصافحتها .

تعجب مختار عندما علم بذلك وقال :

ـ وماذا تعمل هنا فى الإسكندرية ؟ ألم تخبرنى أنت أنها سافرت مع زوجها إلى إحدى الدول العربية ؟.

ـ ليس معنى هذا أن تظل مدى الحياة بعيدة عن مصر .

ـ وما الذى جاء بها إلى الإسكندرية ؟.

ـ لست أدرى ، لابد من وجود سبب لذلك لم أسألها عنه .

ـ ربما جاءت للتصييف .

ـ ربما ، لقد سألتنى عن مريم وقالت إنها ترغب فى زيارتها وأن لديها كلاما كثيرا تود أن تقوله .

ـ وماذا قلت لها ؟.

ـ قلت لها إن مريم سافرت إلى القاهرة لزيارة أهلها وستسافر بعد ذلك إلى انجلترا مباشرة ، وقلت لها إنك مسافر معنا فى البعثة . هل تذكر يامختار عندما كانت تريد الزواج من سعد بسبب إشاعة عن سفره فى بعثة ؟ هاهو ذا سعد لم يسافر وأنت الذى ستسافر . دنيا عجيبة .

قال مختار وقد اجتاحته ذكريات عديدة متشابكة :

ـ لم أرها من عدة سنوات ، منذ حصولها على البكالوريوس ، ترى هل تغير شكلها ؟.

ـ لم تتغير إطلاقا يا أخى . إنها كما كانت وهى طالبة وكأن السنوات لم تمر عليها .

ـ أما زالت جميلة كما كانت ؟

ـ يخيل إلىَّ أنها ازدادت جمالا . على أية حال سوف ترى فى انجلترا من يفوقها جمالا .

أطرق مختار إلى الأرض وقال بنبرة حزينة :

ـ لا أظن أن فى انجلترا ولا فى أوربا كلها من هى أجمل منها .

ـ ولكننى لا أدرى لماذا ترتدى ثوبا أسود ، لابد أنها فقدت شخصا يمت لها بصلة حميمة .

ـ ترى من هو ذلك الشخص ؟.

ـ الله أعلم .

ـ ٦٥ ـ

كان المسافرون إلى انجلترا قد باتوا ليلة فى أحد فنادق بورسعيد ، وكان موعد قيام السفينة فى منتصف الليل . فى نحو الرابعة بعد الظهر كانوا جميعا على متن السفينة ، وبمجرد صعودهم سمعوا فى مكبرات الصوت مايفيد بأن وجبة طعام معدة لهم فى قاعة الأكل الفسيحة ، فساروا يبحثون عنها حتى وجدوها مسترشدين باللافتات والأسهم التى تشير نحوها . كان على جانبى باب غرفة الطعام غلامان يرتديان زيا مزركشا ، ولما اقترب مختار وزملاؤه من ذلك الباب فوجئوا بالغلامين ينحنيان لهم ويفتحان الباب . قال على عبد الكريم :

ـ أقسم برحمة جدى أن مدير الجامعة لو علم بهذا العز وتلك الأبهة التى نستمتع بها هنا لأرسل طائرة هليكوبتر لاستدعائنا من عرض البحر .

ما كادوا يجلسون حول منضدة مستديرة كبيرة حتى سمعوا صوت شاب وفتاة رائعة الجمال يتحدثان معا باللغة العربية ويبحثان عن مكان يتناولان فيه الطعام . قال على عبد الكريم :

ـ إنهما مصريان ، لماذا لانستدعيهما ليجلسا معنا على هذه المنضدة ؟.

قال فتحى البديوى :

ـ تول أنت هذه المهمة اللذيذة .

كانت الفتاة بيضاء البشرة سوداء العينين ذات شعر كستنائى ناعم ، فى حين أن الشاب الذى معها أسمر ذو شعر خشن مجعَّد . قام على عبد الكريم وأشار إليهما فأقبلا نحوه . قال :

ـ فرحة عثورنا على مصرى فى هذه السفينة لاتقل عن فرحتنا بالعثور على كنز ، لماذا لاتشاركانا الجلوس على مائدة واحدة ؟.

ابتسمت الفتاة وقال الشاب :

ـ بكل سرور .

جلسا على كرسيين متجاورين . قال الشاب مقدما الفتاة :

ـ إنها سميرة مسافرة لزوجها فى لندن الذى سبقها فى السفر ، وأنا إبن عمها واصف غالى سأتولى حراستها حتى أسلمها لزوجها .

قال شريف :

ـ هل هذه كل مهمتك هنا ، حراستها طوال الطريق ؟

ـ لا ، هذه مهمة ثانوية ، فأنا ذاهب إلى جامعة مانشستر لدراسة الكيمياء .

قال فتحى البديوى :

ـ أنا أيضا ذاهب إلى جامعة مانشستر ، سنكون زميلين هناك .

ـ يشرفنى ذلك .

لاحظوا أن بجوار كل منضدة بصالة الطعام يقف صبى يرتدى الزى نفسه الذى يرتديه الصَّبيَّان الواقفان عند الباب . قال مختار للصبى :

ـ نحن من مصر .

قال الصبى :

ـ مرحبا بكم .

قال فتحى مشيرا نحو سميرة .

ـ هذه أميرة مصرية ، ونحن حاشيتها .

فانحنى الصبى وقدم لهم قائمة الطعام وانتظر أوامرهم . همس شريف فى أذن فتحى قائلا :

ـ لماذا قلت ذلك ؟ إنها ليست أميرة مصرية .

ـ أعتقد أن هذه المنضدة ستحظى بمزيد من العناية والاهتمام لهذا السبب .

قال على :

ـ ولكن هذه الكذبة التى لم يكن لها أى داع ستكلفنا الكثير .

قال فتحى بدهشة :

ـ كيف ؟

ـ من المفروض الآن يكون (البقشيش) متناسبا مع مقام أميرة مصرية ، ونحن المسئولون عن تقديمه ، فنحن الحاشية كما ذكرت .

ضحك الجميع ماعدا مريم التى بدت واجمة . كانت سامية جالسة ملتصقة بها وكأنها خائفة من شىء . اختاروا ألوان الطعام التى يريدونها ولم تمض دقائق حتى كانوا يلتهمونها بشهية واضطرت سميرة إلى الظهور بمظهر الوقار فى أثناء جلوسها فلقد أعجبتها اللعبة وكادت تصدق أنها حقيقةً أميرةٌ مصرية .

انتهى تقديم جميع ألوان الطعام ، فقال صبى المنضدة :

ـ قهوة أم شاى ؟

قال مختار :

ـ بيض مقلى !.

فأحضر له بيضا مقليا للمرة الثانية ، وأحضر للباقى القهوة أو الشاى ، كلّ حسب طلبه .

انتهوا من تناول الطعام وسار مختار مع شريف ومريم وسامية يكتشفون مسارب السفينة ودهشوا عندما وجدوا بها حماما للسباحة وعرفوا مواقع الكبينتين اللتين سيبيتون فيهما . كانت كبينة شريف وعائلته رقم ١٤ وكبينة مختار رقم ١٦ . ذهبت مريم مع سامية إلى الكبينة لإخراج بعض الأشياء من الحقائب وبقى مختار وشريف جالسين فى (الكافيتيريا) . لاحظت مريم أن سامية تغالب النعاس فوضعتها فى الفراش وظلت بجوارها حتى نامت

مر الوقت سريعا وأقبل الظلام . قام شريف ومختار لإلقاء نظرة الوداع على بورسعيد ، فلم يجدا المدينة ، كانت السفينة قد تحركت منذ فترة وابتعدت عن الشاطئ . أقبلت مريم وأخذت تنظر فى جميع الاتجاهات ثم قالت :

ـ أين بورسعيد ؟ أنا لا أراها .

ضحك شريف وقال :

ـ لن تستطيعى رؤية بورسعيد قبل ثلاث سنوات .

قالت مريم وقد شعرت وكأنها اختطفت :

ـ لم أشعر بالسفينة عندما تحركت .

قال مختار :

ـ ولا نحن ، كنا مستغرقين فى الحديث ونظرنا فلم نجدها .

قالت مريم :

ـ العجيب أن المركب لاتميل يمينا أو يسارا ، إنها تسير وكأنها فوق الأرض .

قال شريف :

ـ إنها سفينة كبيرة ثابتة ، حمولتها أربعون ألف طن .

قالت مريم :

ـ أتمنى أن تظل ثابتة هكذا .

قال شريف :

ـ يقال إنها سوف تهتز عندما تدخل خليج بسكاى ، ستكون هذه أصعب فترة فى الرحلة .

قالت مريم :

ـ ومتى سنصل إلى انجلترا ؟.

قال شريف :

ـ بعد أسبوع بالضبط .

قال مختار لشريف :

ـ ألا تعلم أرقام كبائن فتحى وعلى ؟.
ـ على فى رقم ثمانية وعشرين وفتحى فى خمسة وثلاثين
قال مختار :
ـ هيا نبحث عنهما .
وجدوهما جالسيْن على ظهر السفينة مع فتاتين ، إحداهما سميرة . قالت مريم :
ـ من هذه الفتاة الأخرى ؟
قال مختار :
ـ لابد أنها فتاة مصرية تعرَّفا عليها ، فلنتركهم على راحتهم . لاداعى لإزعاجهم .
جلسوا على مقاعد متجاورة ولاحظوا أن على وفتحى والفتاتين قاموا متجهين نحوهم . قال شريف :
ـ يبدو أنهم هم الذين سيأتون إلينا .
اتضح أن الفتاة الأخرى تدعى عفاف ، وأنها موفدة فى بعثة إلى لندن لدراسة التمريض .
انبعث من كبرات الصوت صفير متقطع ، ففزعت مريم وقالت :
ـ ما هذه الصفارة ؟.
قال على بدون اكتراث :
ـ يبدو أنها صفارة الإنذار .
قالت مريم وقد شعرت بقشعريرة تسرى من رأسها إلى جسدها :
ـ هل تُلاحقُنا صفارة الإنذار ونحن فى عرض البحر ؟ ولماذا هذه الصفارة . هل هى غارة جوية ؟.
قال على بهدوء ولامبالاة :
ـ لابد أن السفينة فى خطر .
انتفضت مريم واقفة وقالت :
ـ خطر ؟ ! .
وأسرعت نحو السلم المؤدى إلى كبائن الدرجة الأولى سألها شريف :
ـ إلى أين أنت ذاهبة ؟.
قالت دون أن تتوقف :
ـ سأذهب لسامية ، تركتها نائمة وحدها فى الكبينة .
هرول شريف نحوها قائلا :
ـ سأحضر معك .
رأى أحدَ البحارة واقفا ناظرا نحو البحر فسأله :
ـ لماذا هذا الصفير ؟.
ـ السفينة تسير فى ضباب ، وهذا شىء خطير ، إذ من الممكن أن تصطدم فى أية لحظة بسفينة أخرى .

صرخت مريم قائلة :

ـ ضباب ؟! يا للمصيبة .

أسرعت هي وشريف إلى الكبينة فلم يجدا سامية . كانت صفارة السفينة مازالت ترسل صوتا متقطعا . أسرعا بالبحث عنها سائلين كل من يصادفهما . أخبرهما أحد الركاب أنه شاهد طفلة تسير وحدها باكية ، وأن سيدة كبيرة السن أخذت يدها وسارتا معا .

انفجرت مريم تبكي . قال شريف لهذا الراكب :

ـ ألا تعرف أين ذهبتا ؟.

قال الرجل :

ـ اتجهتا نحو حمام السباحة .

قال شريف وقد طاف بذهنه أسوأ مايمكن أن يحدث :

ـ ليتنا تركناها في مصر . أف ، لايوجد في الدنيا ماهو أصعب من تربية الأولاد .

قالت مريم باكية :

ـ لابد أن نبحث عنها في كل شبر في السفينة .

قال شريف وفي صوته يأس :

ـ إنها سفينة في حجم مدينة لا أول لها ولا آخر ، هيا بنا إلى حمام السباحة .

رأت مريم سيدة جالسة على أحد كراسي البحر ، سألتها :

ـ ألم ترى طفلة صغيرة تسير مع سيدة عجوز ؟.

قالت المرأة :

ـ يوجد أطفال وعجائز كثيرون في السفينة .

قالت مريم بصوت متهدج :

ـ طفلة صغيرة ترتدي رداء أزرق .

ـ متأسفة ، لم أرها .

انهارت مريم وشعرت بأن ساقيها لاتقويان على حملها ، فألقت بنفسها على أحد الكراسي واستسلمت لبكاء عنيف . قال شريف ليطمئنها وهو في الواقع أكثر منها قلقا :

ـ مهما كان حجم السفينة فهي محدودة المساحة ولابد أننا سنجدها في مكان ما ، فلا داعي لهذا العويل .

ما كاد شريف ينتهي من كلامه حتى سمعا صوتا من مكبر الصوت يقول :

ـ « توجد طفلة تدعى سامية في الصالون الكبير تبحث عن والدتها » ، وتكررت هذه الجملة عدة مرات .

انطلقا بأقصى سرعتهما نحو الصالون فوجدا سامية جالسة جنب السيدة العجوز تبكي وتقول :

ـ أريد أن أذهب لماما وبابا .

احتضنتها مريم وغمرتها بالقبلات . بينما غمغم شريف قائلا :
ـ ما أصعب تربية الأولاد . لقد شيبتني ، تصورت أنها سقطت فى البحر وافترستها أسماك القرش .
اندفع مختار إلى الصالون وهو يلهث . سأله شريف بفزع :
ـ ماذا حدث ؟.
ـ عندما طال انتظارى لكم أنتم الثلاثة قمت أبحث عنكم فى جميع أنحاء السفينة . لم أجد أحدا فى كبينتكم ، فواصلت البحث عنكم ، ثم سمعت فى مكبر الصوت أن طفلة تدعى سامية تنتظر أمها فى الصالون فأسرعت بالمجىء .
فى اللحظة التى عثروا فيها على سامية توقفت صفارة السفينة وانقشع الضباب .

ـ ٦٦ ـ

شعر مختار بأن الأيام التى أمضاها فى السفينة هى أسعد أيام حياته . فكمية المرح التى شعر بها فى تلك الفترة تفوق كل ماشعر به من سعادة طوال حياته .
قبل يومين من وصول السفينة إلى ساحل انجلترا أرسل مختار تلغرافا إلى زميله وصديقه أمين جاد الذى سبقه فى السفر إلى لندن بنحو شهر فى بعثة إلى الكلية الإمبراطورية بجامعة لندن للحصول على الدكتوراه فى الحشرات ، وحدد له فى التلغراف موعد الوصول بالقطار إلى محطة ووترلو بلندن .
قالت مريم لشريف :
ـ متى نصل إلى لندن ؟.
ـ بعد يومين ، سنصل أولا إلى ميناء ساوثها مبتون فى السابعة صباحا ، وسيكون فى انتظارنا فى الميناء قطار خاص ينقلنا إلى لندن ، ومن لندن سنستقل القطار إلى مدينة شفيلد .
ـ أريد الفرجة على لندن قبل سفرنا إلى شفيلد .
ـ سنقضى فى لندن يومين أو ثلاثة قبل سفرنا إلى شفيلد . حذار من أن تتوه منا سامية فى لندن فتكون كارثة .
ـ وهل هذا معقول ؟ لن أتركها من يدى .
فى صباح أحد الأيام اقتحم شريف كبينة مختار وأيقظه من نومه قائلا :
ـ قم ، وصلنا إلى انجلترا .
قال مختار بلهفة :
ـ وصلنا إلى انجلترا ؟.
ـ أجل ، ارتدِ ملابسك بسرعة ورتب حقيبتك .
عندما تحرك القطار ظلوا ناظرين من النوافذ مبهورين بالمناظر الخلابة التى يمرون بها . كل ما حولهم

تكسوه الخضرة ، تتناثر المنازل فى هذه المساحات الخضراء ، وتبدو أجساد البقرات وكأنها مغسولة بالماء والصابون .

وصل القطار إلى محطة ووترلو بلندن فهبطوا منه . أخذ مختار يتلفت باحثا عن أمين جاد فلم يجده . قال شريف :

ـ أين أمين جاد الذى تقول إنه سينتظرنا فى المحطة ؟ أخشى ألاّ يكون قد وصله تلغرافك .
ـ غير معقول ، جميع التلغرافات لابد أن تصل . انتظرونى هنا لحظة حتى أبحث عنه .
ثم صاح قائلا :
ـ ها هو ذا ، يا أمين ، أمين
أقبل أمين متهلك الوجه قائلا :
ـ كنت أبحث عنك فى جميع أنحاء المحطة .
ثم صافح مختار وجميعَ الزملاء بحرارة ، فهو يعرفهم عندما كانوا معًا بجامعة القاهرة . قال مختار لأمين :
ـ أين يذهب الآن ؟.

ـ قبل كل شىء هيا بنا نتغذى .
فى أثناء اتجاه أمين وضيوفه إلى محطة مترو الأنفاق الذى يوصلهم إلى المطعم سأل أمين سامية :

ـ هل أعجبتك لندن يا سامية ؟.
ـ أريد الذهاب إلى بيتنا فى اسكندرية .
ضحكوا ، وقال أمين لسامية :

ـ سأفرجك الآن على شىء عجيب .
ـ ما هو؟
ـ السلم الكهربائى .
قالت سامية لمريم وهم يتحركون مع السلم إلى أسفل :
ـ إلى أين نحن ذاهبون يا ماما ؟.
ـ سنذهب تحت الأرض يا حبيبتى .

وصل السلم إلى ميدان تحت الأرض ووقفوا عند رصيف المحطة . بعد دقيقة أقبل المترو وأسرعوا بركوبه . لم تكن سامية وحدها المبهورة ، بل كان الجميع يشعرون وكأنهم فى مدينة مسحورة من مدن الجن . تمنى شريف لو توجد مثل هذه الأنفاق فى مدينة القاهرة ، وتعجب مختار من قدرة الإنسان على القيام بهذه الإنجازات الرائعة تحت سطح الأرض ، أما باقى الزملاء فكانوا يتلفّتون يمينا ويسارا مشدوهين .

بعد الانتهاء من الغداء أخذوا يجولون فى الشوارع ، ثم دعا أمين صديقه مختارا لقضاء ثلاثة أيام فى بيته

الذى يعيش فيه مع عائلة انجليزية فى إحدى ضواحى لندن . وفضّل شريف وعائلته السفر مباشرة إلى إشفيلد حيث كان أمين عن طريق أحد أصدقائه قد حجز لهم هناك شقة مفروشة فى بيت يضم عدة شقق ، بينما ذهب على وفتحى إلى فندق بلندن كان أحد أصدقاء على قد حجز لهم أماكن فيه .

بعد قضاء فترة الضيافة سافر مختار إلى شفيلد واكتشف أن المكان الذى حجزه له أمين يقع بالقرب من المبنى الذى يسكن فيه شريف وعائلته فشعر براحة نفسية .

- ٦٧ -

بعد نحو ثلاثة شهور قالت مريم لشريف :

- كنت أتصور أن مدينة شفيلد مجموعة من مصانع الحديد والصلب . لم أكن أتصور أنها بهذا الجمال . تحيط بها الغابات والبحيرات .

- ما رأيك لو ذهبنا للفسحة فى غابات فولوود يوم الأحد القادم ؟.

- أتمنى أن يأتى معنا مختار . أنا متألمة من أجله .

- لماذا ؟ إنه مهتم بعمله ومتقدم فيه . لايفارق المعمل حتى فى الأجازات ؟! .

- ما هذا ؟ لايفارق المعمل حتى فى الأجازات ؟!

- أجل

- إنه شبه انتحار .

- كيف ؟.

- مختار لابد أن يخرج من القمقم الذى سجن نفسه فيه . لابد أن يشعر بالدنيا التى حوله . من الضرورى أن يتفسّح ويسافر فى رحلات .

- عرضت عليه الاشتراك معنا فى الرحلات التى ذهبنا فيها فلم يقبل .

- ليس من المعقول أن نتركه هكذا . فليأت معنا فى رحلة « سكاربْرا » .

- أكلمه فى هذا الموضوع .

- ليتنا نعرّفه بفتاة جميلة تنسيه الحزن الذى يعانى منه بسبب دريّة توجد فتاة لطيفة جدا ورائعة الجمال تدعى « آن » سترافقنا فى الرحلة . سأحاول أن أعرّفه بها

كانت الرحلة تضم نحو ثلاثين شخصا ذكورا وإناثا . قال شريف لآن مقدما لها مختارا وهم داخل الأوتوبيس المنطلق بهم نحو سكاربرا :

- هذا أعز أصدقائى ، مختار بدر الدين .

وقال لمختار :

- وهذه آن طالبة بقسم الآثار بالجامعة . ومغرمة بالآثار المصرية .

قال مختار :

ـ مادامت تحب الآثار المصرية فأعتقد أنها تتوق لزيارة مصر.
قالت آن :
ـ أمنية حياتى أن أزور مصر.
قال شريف :
ـ من الممكن أن يتحقق هذا الأمل لو تزوجت مصريا .
وضحك ، وضحكت آن وقالت :
ـ أنا أرحب بذلك . فأنا أحب مصر وكل شيء من مصر.
عندما هبطوا من الأوتوبيس سار مختار بصحبة آن على شاطئ البحر. ساد الصمت بينهما فترة قصيرة . ثم قطع مختار الصمت عندما قال لآن :
ـ ألديك مانع من الجلوس معا على تلك الصخرة المطلة على البحر؟.
ـ لا مانع لدى .
كان شريف ومريم وسامية يسيرون خلفهما . همست مريم فى أذن شريف قائلة :
ـ يبدو أن عقدته سوف تحل .
ـ ياريت
جلس مختار على قمة الصخرة عاقدا ذراعيه حول ساقيه ناظرا إلى الأفق البعيد وبجواره آن كقطة سيامية . قالت له :
ـ من يراك يظنك شاعرا .
ـ أنا شاعر ، أنظم الشعر وأحبه جدا . لابد أنك أيضا تعشقين الشعر.
ضحكت وقالت :
ـ الشعر؟! أنا لا أحب الشعر. كنت أشعر بالعذاب عند قراءة أشعار شكسبير فى المدرسة . وأقرؤه مضطرة لا لشيء سوى النجاح فى الامتحان .
قال مختار وقد شعر بشيء من خيبة الأمل :
ـ أنت أول انجليزية أكتشف أنها لاتحب شعر شكسبير.
ضحكت وقالت :
ـ كثيرون من الإنجليز لايحبون شعره ، هل تعرف من هم ؟
ـ من ؟.
ـ الذين كانوا يرسبون فى الأمتحان بسبب أشعاره .
وضحكت . قال مختار متعلقا ببعض خيوط الأمل :
ـ ولكنك بلاشك تحبين الموسيقى .
ـ أحب موسيقى (الجاز) .
قال وقد خاب أمله :

ـ موسيقى (الجاز) فقط ؟
ـ لا أحب (الكلاسيك) .
ظل مختار طوال رحلة العودة صامتا يجيب عن أسئلة شريف إجابات مقتضبة غير واضحة .
عندما زار شريف مختارا فى اليوم التالى لاحظ شيئا لم يكن يتوقعه . قال :
ـ ما هذا ؟ كنت أتوقع أن أحضر اليوم فأجد صورة آن على حافة المدفأة بدلا من صورة دريّة هذه .
ـ الحقيقة أنه على الرغم من أن آن فتاة جميلة ولطيفة وبدأ لى أنها أحبتنى ، إلا أننى ...
قاطعه شريف قائلا بغضب :
ـ إلاّ أنك ماذا ؟ ماذا تريد أكثر من ذلك ؟.
ـ حاولت أن أحبها فلم أستطع .
ـ الإنسان لايحاول الحب ، فالحب يأتى من تلقاء نفسه .
ـ لم تستطع أن تحل محل درية فى قلبى .
قال شريف بيأس وقلق :
ـ لا ، حالتك أصبحت مستعصية . يقولون فى المثل يا أخى « إذا أحبتك حية تلفَّع بها » .
ـ هذه هى المأساة ، لم أستطع التلفّعَ بها .
خرجا معا من البيت وذهبا إلى الجامعة حيث اتجه مختار نحو قسم علم الحيوان وذهب شريف إلى قاعة الجلوس باتحاد الجامعة لقراءة الصحف ، وبعد فترة قصيرة دخل شريف المعمل وقال لمختار بانفعال :
ـ هل قرأت صحف اليوم ؟.
توقع مختار من ملامح وجه شريف سماع خبر مزعج . فقال بلهفة :
ـ لا . ماذا حدث ؟.
ـ يوجد خبر مهم عن مصر .
ازداد قلق مختار وقال :
ـ ماهو ؟.
ـ شخصية مصرية كبيرة اغتيلت .
ـ من ؟.
ـ النقراشى باشا . شاب أطلق عليه الرصاص داخل الوزارة .

كان مختار يذهب إلى الحقول لجمع بيض الفراشات حيث يتولى العناية به حتى يفقس فتخرج منه يرقات تتحول إلى عذارى ثم إلى فراشات ، وذلك لدراسة القوى المؤثرة على هذا التحول التى تجعل اليرقة الدودية الشكل تتحول إلى فراشة جميلة تختلف عن اليرقة كل الاختلاف . وكيف تختفى فى أثناء النمو أجزاء وتستجد أجزاء أخرى ونتيجة لذلك يحدث هذا التغيير الشديد فى الشكل والتركيب .

كان يقضى الساعات الطوال مقرفصاً يفحص أوراق الكرنب لجمع البيض فى مساحات زراعية شاسعة ودرجة حرارة الجو تقترب من الصفر أو تهبط عنه فى كثير من الأحيان ، وتسبب ذلك فى حدوث آلام فى ركبتيه ظل يعانى منها طوال حياته .

بعد نحو عام ونصف من الدراسة الشاقة فوجئ باختفاء بيض الفراشات من جميع الحقول . اجتاحه يأس شديد وذهب لزيارة شريف فى المساء بعد قضاء يوم بأكمله باحثا عن البيض بلا جدوى . كان بادى الحزن واليأس . قال لشريف :

ـ لن أستطيع الحصول على الدكتوراه . أفضل أن ألقى بنفسى فى البحر على رجوعى فاشلا خائبا .

قال شريف بانزعاج :

ـ لماذا ؟ ماذا حدث ؟ أراك مُجداً فى دراستك ، تكاد تبيت فى المعمل .

ـ بيض الفراشات التى أدرسها لم أستطع العثور عليه فى هذا الموسم . لم أجد بيضة واحدة فى نحو مائة فدان من الكرنب فحصت أوراقها ورقة ورقة .

ـ وماذا جرى للفراشات ؟ لماذا لم تضع بيضا فى هذا الموسم ؟ أين ذهبت ؟.

ـ هذه الفراشات تجىء مهاجرة من فرنسا كل موسم ، والجو القاسى هذا العام منعها من الهجرة . لاتوجد الآن فراشة واحدة من هذا النوع فى جميع أنحاء انجلترا ، لست أدرى ماذا أفعل .

ـ هل بحثت جيدا ؟.

ـ بحثت حتى هلكت وتصليت ركبتاى .

ـ هل استشرت رئيس القسم فى هذه المشكلة ؟.

ـ لا . وماذا سيعمل ، هل سيأمر الفراشات بالهجرة إلى انجلترا ؟.

ـ على أية حال إذا كانت استشارته لن تفيد فإنها لن تضر.

قال رئيس القسم لمختار :

ـ هذه ليست مشكلة . من الممكن استيراد أىّ عدد من بيض هذه الفراشات من فرنسا من جهات معينة متخصصة فى ذلك ، ونترك البيض يفقس هنا فى درجة الحرارة الملائمة فى الغرفة المخصصة لذلك .

وهكذا حُلت مشكلة اختفاء الفراشات فى ذلك الموسم وعاد لمختار أمل الحصول على الدكتوراة .

ولكن ظهرت مشكلة من نوع آخر فى منزل شريف . ذات صباح ، فى أثناء الفطور . قالت مريم لشريف بعد فترة تردد :

ـ أود أن أخبرك بشيء . لا أدرى ما إذا كان سيفرحك أم يزعجك .

ترك شريف الملعقة تسقط على منضدة الطعام والتفت إليها قائلا :

ـ خيرا ، ماهو هذا الشيء ؟.

ـ يبدو أنني حامل .

شحب وجه شريف ولكنه سيطر على أعصابه حتى لاتفلت منه وقال :

ـ حمل ؟! ألم يكن من الأفضل إرجاء ذلك إلى ما بعد عودتنا إلى مصر ؟ ألا تكفينا هنا مشكلات طفل واحد ؟.

قالت مريم بعصبية :

ـ لست أدرى ، هذا ماحدث .

ـ أول ماينبغى عمله هو الذهاب إلى الطبيب للتأكد من الحمل .

قال الطبيب :

ـ يوجد حمل .

صاح شريف قائلا بفزع :

ـ حَمْل ؟!

قال الطبيب مبتسما :

ـ لماذا كل هذا الرعب ؟ هذا شيء لا يدعو للخوف . أنت تعلم أن فى هذه البلاد نظام التأمين الصحى ، وأنت تخضع لهذا التأمين بالمجان بصفتك طالب دراسات عليا فى الجامعة . سأعطيك الآن بطاقة تسلمها لمستشفى « جيسوب » الذى ستتم فيه عملية الولادة . وبطاقة أخرى تتيح لكما من الآن أخذ فيتامينات وعصير برتقال من المستشفى بالمجان تتناولها زوجتك ، وسوف يكون لكم الحق فى شراء البيض بنصف سعره واللبن بربع السعر ، وتحصلون ببطاقتكم التموينية على مزيد من البيض ، إذ لابد من تغذية الجنين .

قال شريف :

ـ وهل نفقات المستشفى باهظة ؟.

ضحك الطبيب وقال :

ـ الولادة بالمجان لجميع المواطنين ، وعلاوة على ذلك فسوف يصرف لكم المستشفى يوم الولادة مبلغ ثمانية جنيهات للمصروفات العاجلة ، ولابد من ذهاب زوجتك إلى المستشفى كل أسبوعين ابتداء من الآن للكشف عليها حتى يحين موعد الولادة .

كان شريف وعائلته يؤجرون غرفتين فى شقة تعيش فيها عائلة انجليزية . زوج وزوجة وطفلة فى نحو التاسعة تدعى مرجريت وطفل فى نحو الخامسة يدعى بيتر. ذات ليلة عاد شريف من الجامعة فى نحو الحادية عشرة مساء حيث كان يواصل العمل بالمعمل حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل . وجد سامية نائمة وبحث عن مريم فلم يجدها . رأى مرجريت تهبط السلم المؤدى إلى الدور العلوى فسألها :

ـ أين مريم ؟.

قالت مرجريت :

ـ ألا تدرى ماذا حدث ؟.

ـ ماذا حدث ؟.

ـ نقلتها سيارة إسعاف إلى المستشفى .

قال شريف وقد شعر برعب شديد .

ـ لماذا ؟.

أسرعت مرجريت بهبوط السلم ودخلت إحدى الغرف وأحضرت بطاقة سلمتها لشريف قائلة :

ـ سائق عربة الإسعاف ترك لك هذه البطاقة

اختطف البطاقة بلهفة وقرأها فعلم أن مريم ذهبت إلى جيسوب للولادة . خرجت الأم من إحدى الغرف عندما التقطت أذناها حديث شريف ومرجريت ، قالت مرجريت :

ـ ها هى ذى ماما . اسألها فهى تعرف أكثر منى .

قالت المرأة :

ـ شعرت زوجتك بأعراض الولادة فاتصلْتُ تليفونيا بالمستشفى حيث أرسلوا على الفور عربة إسعاف نقلتها للمستشفى ، ومكتوب بالبطاقة التى بيدك أن من حقك زيارتها الليلة بالمستشفى لمدة دقيقة واحدة .

قال شريف بانفعال :

ـ ولماذا لم تتصلوا بى تليفونيا بالكلية لأعرف أنها ذهبت للولادة ؟.

ـ ولماذا نتصل بك ونعطلك عن عملك ؟ هل أنت الذى ستتولى عملية التوليد ؟ لقد أخذ المستشفى رقم تليفون المنزل ليتصلوا بك عقب إجراء عملية الولادة مباشرة .

أسرع شريف إلى المستشفى ورأى زوجته فى غرفتها ومعها الطبيب . بعد دقيقه صافحه الطبيب قائلا :

ـ لا تقلق ، إنها فى أيد أمينة .

خرج شريف وعاد إلى المنزل ولم ينم فى هذه الليلة ، بل ظل ساهرا فى انتظار رنين جرس التليفون . فى نحو الخامسة صباحا دق جرس التليفون . فأسرع بالتقاط السماعة . سمع صوتا ، اعتقد أنه صوت الطبيب ، يقول :

ـ أريد التحدث مع مستر شريف

ـ أنا شريف .

ـ هنا مستشفى جيسوب . تمت ولادة زوجتك فى الساعة الخامسة إلا عشر دقائق ، والمولودة بنت جميلة

ـ أشكركم جزيل الشكر .

وضع السماعة مغمغما :

ـ الحمد لله . لك الحمد والشكر يارب .

بعد يومين قال مختار لشريف :

ـ هل من الممكن أن أزور مريم فى المستشفى ؟.

ـ نذهب معا غدا ، فالزيارة يومان فى الأسبوع ، السبت ، والثلاثاء فقط . والمدة المسموح بها فى الزيارة ربع ساعة ، ولا يسمح بدخول أكثر من شخص واحد .

ـ كيف ؟.

ـ إذا ذهبنا نحن الاثنين لزيارتها فسوف تدخل أنت بمفردك وتمكث سبع دقائق ونصف ثم تخرج وأدخل أنا وأمكث معها سبع دقائق ونصف .

ـ وإذا كان الزوار أكثر من ذلك ؟.

ـ يقسّم ربع الساعة عليهم بالتساوى .

ـ ولماذا كل هذا ؟.

ـ لئلا تحدث ضجة داخل عنابر الولادة .

ـ وسامية . كيف تعيش بدون والدتها ؟.

ـ تعيش مع عائلة صاحب البيت كإحدى بناتهم طوال فترة غياب مريم بالمستشفى

بعد أسبوع . بينما كان شريف منهمكا فى فحص بعض الشرائح تحت الميكروسكوب أقبلت نحوه سكرتيرة القسم وفى يدها ورقة وقالت .

ـ وردت الآن إشارة من مستشفى الولادة يطلبون منك الذهاب إلى المستشفى على الفور .

قال بلهفة :

ـ لماذا ؟ ماذا حدث ؟.

ـ لا أعرف ، هذا هو كل ما ورد فى الإشارة .

انتفض واقفا فى هلع وقد سيطرت عليه أفكار سود .

لماذا يطلبون سرعة ذهابى إلى المستشفى ؟ لابد أن شيئا قد حدث لزوجتى أو للمولودة .

استقل تاكسيا انطلق به نحو المستشفى . رأى سيدة يحملها ممرضان على نقّالة . اندفع نحوها وسأل بلهفة :

ـ ما بها ؟ ماذا أصابها ؟.

توقف الممرضان ونظرا إليه بدهشة ، واتضح أنها ليست زوجته فشعر بخجل . صعد سلم المستشفى

بأقصى سرعته وبدا شاحبا مضطربا . سألته إحدى الممرضات عن سبب قلقه فقال :

ـ وصلتني إشارة من المستشفى للحضور هل حدث شيء لزوجتي ؟.

ـ السيدة المصرية ؟.

ـ أجل .

ـ لم يحدث لها أي شيء . زوجتك أمضت في المستشفى أكثر من أسبوع وسوف تنقل الآن إلى مستشفى آخر على قمة تل لتقضي فترة أخرى للنقاهة . سيارة المستشفى في انتظارها أمام الباب الرئيسي وستذهب أنت معها لتعرف مكان المستشفى الآخر . رئيسة الممرضات تريد رؤيتك ، هيا معي .

قالت له رئيسة الممرضات :

ـ ما هو الاسم الذي اخترتماه لابنتكما ؟.

ـ فريدة .

رددت رئيسة الممرضات الاسم عدة مرات وكأنها تختبر موسيقاه ، ثم كتبت الاسم في ورقة أمامها أعطتها لشريف قائلة :

ـ هل هذا هو الهجاء الصحيح للاسم ؟.

قرأه شريف وقال :

ـ أعتقد ذلك .

وضعت الورقة بجوارها على مكتبها ثم قالت :

ـ اكتب لنا عنوان المنزل الذي تعيشون فيه . وسوف يزوركم شخص موفد من المستشفى لمعرفة ما إذا كان البيت يصلح لوجود طفلة أخرى فيه .

حضر مندوب المستشفى وقرر أن المسكن لا يصلح . وأن المستشفى سيتولى مهمة البحث عن مسكن مناسب .

ظل مختار يزور مريم في المستشفى الجديد في الأيام المقررة ، ولاحظ أن غرفتها مليئة بالأزهار فسألها عن مصدرها ، قالت :

ـ عندما علم الممرضات أنك الوحيد الذي تزورني في هذا المستشفى وأننا غرباء هنا بعيدون عن وطننا وأهلنا ، تولين مهمة إحضار هذه الأزهار كل يوم . تأثر شريف حتى دمعت عيناه .

عندما خرجت مريم من المستشفى فوجئت بالمسكن الجديد . لم يكن يخطر على بالها أنها ستعيش فى بيت بهذا الجمال . كان أكثر اتساعا من المنزل الذى كانوا فيه . تحيط به حديقة واسعة لا تقل مساحتها عن فدانين ، صاحبته على علم بأمراض الأطفال ومشكلاتهم الصحية الطارئة إذا أنها كانت رئيسة الممرضات فى أحد المستشفيات قبل تقاعدها .

كان بالبيت عدد من النزلاء جميعهم من طالبات الجامعة . ولقد خصص لعائلة شريف جناح مكون من مطبخ كبير به مائدة للطعام وصالون وغرفتان للنوم . أبدى مختار إعجابه بهذا البيت وتمنى لو يوفق للعثور على بيت مثله .

ذات يوم ، عندما كان مختار فى زيارة لشريف وعائلته ، همس فى أذن شريف قائلا :

ـ من الفتاة التى تقطن الشقة المقابلة لشقتكم ؟.

ـ بنت اسمها اليزابيث فى قسم الموسيقى بالجامعة ، ولكن لماذا تسأل عنها ؟

قال شريف وقد هزته الفرحة :

ـ لقد أعجبتنى جدا هذه الفتاة .

ـ الحمد لله ، أدعو الله أن يحل عقدتك .

ـ هل تعرفها ؟.

ـ أنا فى الحقيقة لا أعرفها . ولكن مريم تعرفها .

قال مختار وقد احمر وجهه خجلا :

ـ هل من الممكن أن تعرِّفنى مريم بها ؟.

ـ بكل سرور .

ثم أردف قائلا بعد لحظة تفكير :

ـ هذه الفتاة تزور مريم كثيرا . إحضر غدا نتعشى معا وسأدعوها هى أيضا للعشاء . مارأيك ؟.

ـ يسعدنى ذلك .

تم التعارف بين مختار واليزابيث وأجلستهما مريم متجاورين حول منضدة الطعام . كان الارتباك والخجل الشديد باديا على مختار وكان اليزابيث هى التى تتصيد موضوعات للحديث .

عندما انتهوا من تناول العشاء انتقلوا إلى الصالون . كان صغير الحجم يضم عددا قليلا من المقاعد وفى أحد أركانه (جراموفون) . جلس الجميع معا . وبعد نصف ساعة قال شريف لمختار :

ـ يبدو أنك خجلان من التحدث مع إليزابيث لوجودنا معكما .

ـ جدا ، لست أدرى متى سأتخلص من هذا الخجل المؤلم .

بعد خروج شريف ومريم من غرفة الجلوس قال مختار لإليزابيث :

ـ هل تعرفين أنك أول بنت تعجبنى فى انجلترا ؟.

ضحكت وقالت :
ـ فى انجلترا كلها ؟
ـ أجل ، أجمل من رأيت فى انجلترا كلها ؟.
ـ أشكرك .
ـ إنك تذكريننى بفتاة جميلة جدا عرفتها فى مصر .
ضحكت وقالت :
ـ أشكرك .
سمع مختار طرقا خفيفا على باب الغرفة . قال :
ـ أدخل .
دخل شريف ، قال .
ـ هل تحبون سماع شىء من الموسيقى ؟
قال مختار :
ـ يسرنى ذلك .
أدار مختار موسيقى روميو وجوليت لتشايكوفسكى ثم خرج من الغرفة
قال مختار لإليزابيث :
ـ هل تحبين الموسيقى الكلاسيك ؟.
ضحكت وقالت :
ـ كيف لا أحب الموسيقى الكلاسيك وأنا فى قسم الموسيقى بالجامعة ؟.
ضحك مختار ليدارى خجلة وقال :
ـ أوه ، نسيت ذلك . ومَن أعظم الموسيقيين فى رأيك ؟.
ـ بيتهوفن وموتسارت وتشايكوفسكى .
ـ هم أنفسهم المفضلون لدى .
ـ شىء جميل أن تتشابه آراؤنا .
ـ يبدو أننا متفقون معا فى أشياء أخرى كثيرة .
ـ يفرحنى دائما أن أجد إنسانا تتشابه أفكاره وأفكارى .
قال بعد تردد :
ـ هل من الممكن أن أراك مرة أخرى ؟.
ضحكت وقالت :
ـ ولم لا ؟.
بعد عدة مقابلات تمت فى أماكن مختلفة خارج منزل شريف ، قال مختار :
ـ اليزابيث ، لقد تقابلنا كثيرا ، وجميع ميولنا وأفكارنا متشابهة . فهل تحبين أن نبقى دائما معا ؟.

قالت بدهشة :

ـ كيف ؟.

ـ نتزوج .

ـ لو أنني تزوجت كل شخص تتفق آراؤه وآرائي لتزوجت عديدا من المرات .

شعر مختار بشيء من الإحباط وقال :

ـ لماذا ؟ هل يوجد ما يمنع زواجنا ؟.

ـ أجل .

ـ ماهو ؟.

ـ شخص سبقك وخطبني .

ـ أنا متأسف ، لم أكن أعلم أنك مخطوبة لأنني لم أر في إصعبك دبلة .

ـ إنه صديق ، اتفقنا على الزواج وعائلتي وعائلته يعلمان ذلك .

عاد مختار بعد ذلك إلى العزلة ولم يتمكن شريف بعد ذلك من إقناعه بالإشتراك معهم في أية رحلة . ووضع كل همه في رسالة الدكتوراه التي كان قد بدأ كتابتها .

ـ ٧١ ـ

انتهى شريف من كتابة رسالة الدكتوراه ، وبعد أسبوعين أتم مختار كتابة رسالته . كان شريف في زيارة لمختار بمنزله ولاحظ وجود صورة فوق حافة المدفأة لم يستطع رؤيتها بوضوح فقال لمختار :

ـ صورة من هذه ياترى ؟.

ـ إلا تعرفها ؟.

ـ يبدو أن نظري ضعف من طول النظر في الميكروسكوب .

قام واقترب من الصورة ، فقال بدهشة :

ـ ما هذا ؟ إنها صورة درية ! أما زلت محتفظا بصورتها ؟ ألا يوجد في جميع بنات انجلترا الرائعات الجمال من أنستك درية ؟.

ـ الواقع أنني عثرت على الصورة في أوراق عن غير قصد ففكرت أن أرميها هنا فوق المدفأة .

ـ كان من الأفضل أن ترميها في المدفأة لا فوق المدفأة ، شيء عجيب . آن ومرجريت وميزى وباتريشيا وغيرهن ، يتمنين الزواج منك ، وحبهن لك عميق ، وكلهن رائعات الجمال . شعر أصفر وعيون زرق ، لماذا لاتتزوج واحدة منهن وتمحو من ذهنك درية وصورتها ؟.

ـ درية أجمل منهنَّ جميعا .

ـ أطعني يا مختار . تزوج مرجريت أو باتريشيا ، لن تجد أحسن منهما . درية تزوجت ، فهل تنوى أنت أن تعيش بدون زواج ؟ ألا تفكر فى تكوين عائلة وأولاد ؟.

أطرق مختار للأرض ولزم الصمت ولمعت الدموع فى عينيه .

ـ ٧٢ ـ

انتهت مناقشة رسالتىْ شريف ومختار وحصلا على الدكتوراه فقررا الاحتفال بهذه المناسبة بالذهاب إلى المسرح لمشاهدة مسرحية «بيبتريان» تأليف جيمس بارى ، وكانت فرحة مريم بقرب عودتها إلى مصر أشد من فرحتها بحصولها على الدكتوراه .

بحث مختار عن سفينة للعودة فلم يجد أماكن خالية إلا فى سفينة تركية صغيرة الحجم تدعى « شمشمون » ، وذهب إلى منزل شريف ليخبره بذلك . قال شريف :

ـ أنا لا يهمنى حجم السفينة ، المهم أن نعود إلى مصر بأية وسيلة .

ـ قرأتُ اليومَ أخبارا مهمه عن مصر .

ـ ماهى ؟.

ـ وزارة الوفد ألغت معاهدة ١٩٣٦ من طرف واحد وتطالب بخروج الانجليز من منطقة القناة ، وانجلترا تهدد مصر .

قالت مريم :

ـ هل ستظل مصر تقاسى طوال حياتها ؟ لقد اشتقت إليها . ومتى ستبحر السفينة ؟.

قال شريف :

ـ سنسافر إلى لندن بعد يومين ، ونمكث هناك أسبوعين ثم نستقل القطار من محطة ووترلو حتى مدينة دوفر ، ومن دوفر سنعبر المانش على عبّارة صغيرة إلى مدينة كاليه بفرنسا ، ومن كاليه نسافر إلى باريس ، ثم نستقل القطار حتى مرسيليا ، ومن مرسيليا نركب السفينة حتى الإسكندرية .

قالت مريم بدهشة :

ـ وهل سنقطع كل هذه المسافة للوصول إلى مرسيليا ؟ أليس من المحتمل أن نتوه فى الطريق ؟.

ضحك شريف ومختار وقال شريف :

ـ ولماذا نتوه ؟ هل نحن أطفال صغار ؟.

قالت مريم :

ـ وهل سيكون مختار معنا ؟.

قال شريف :

ـ طبعا ، سنسافر معا كما جئنا معا .

كان على عبد الكريم قد حجز لهم مكانا فى منزل سيدة عجوز عانس تعيش فى البيت بمفردها تدعى مس بارنْس ، قالت لهم :

ـ أتعشم أن تجدوا عندى الراحة فى خلال هذين الأسبوعين . ولابد من أن تستمتعوا بلندن قبل مغادرة البلاد .

قال شريف :

ـ كيف نستمتع بلندن ومعنا طفلتين ؟.

ـ لا تحملوا هم الطفلتين ، اتركوهما معى واذهبوا أنتم للفرجة على المسرحيات والمتاحف وكازينو لندن وبرج لندن وغيرها من معالم المدينة . من غير المعقول أن تكونوا فى لندن وتحبسوا أنفسكم داخل جدران البيت .

قال مختار :

ـ نشكرك جدا يا مس بارنس . أنت سيدة طيبة للغاية

قالت مس بارنس :

ـ أنا أحب المصريين .

ثم أشارت نحو صورة كبيرة الحجم معلقة فى البهو وقالت :

ـ هذه صورة شاب مصرى ، كان سيتزوجنى ، منذ سنوات عديدة .

قال شريف :

ـ لماذا لم يتزوجك ؟.

ـ رفاق السوء وسوسوا له وجعلوه يعدل عن فكرة الزواج . أنا ما زلت أحبه وأحب جميع المصريين من أجله . إنه هو الذى زرع شجرة العنب التى فى حديقة المنزل ، ولذا فسوف أعطيكم عنقودا من عناقيدها لتوصيله إليه وسأعطيكم اسمه وعنوانه ، هل تؤدون لى هذه الخدمة ؟.

قال مختار :

ـ بطل سرور .

ـ ٧٣ ـ

فى أثناء تناول فطورهم فى مطعم السفينة قالت مريم :

ـ هذه السفينة صغيرة الحجم لا تشبه تلك التى سافرنا بها إلى انجلترا .

قال شريف :

ـ لم نجد أماكن فى أية سفينة أخرى . المهم أن نصل إلى مصر بأية وسيلة .

قالت مريم وقد شحب وجهها :

ـ أخشى ألا نصل إلى مصر . المركب تميل على الجانبين ميلا شديدا .

قال شريف :

ـ لا تخافى ، إنها تميل ثم تعتدل .

قالت مريم وأمعاؤها ترتجف من الخوف :

ـ أخشى أن تميل فى إحدى المرات ولا تعتدل .

قال مختار :

ـ حقيقةً ، المركب تميل بشكل غير عادى .

قالت مريم شاعرة برعب شديد :

ـ انظروا إلى النافذة ، المركب تميل وتوشك أن تنقلب . لا ، أنا لا أحتمل ذلك . أشعر بدوار .

دخل قبطان السفينة المطعم فى تلك اللحظة محاولا الاحتفاظ بتوازنه بصعوبة وجلس عند أقرب منضدة . قال مختار :

ـ هاهو ذا القبطان ، سأسأله ليطمئننا .

قال شريف :

ـ تسأله عن ماذا ؟.

تجاهل مختار سؤال شريف وانتفض واقفا وسار نحو القبطان يترنح كالسكران وجلس بالقرب منه قائلا :

ـ تسمح من فضلك ؟.

نظر القبطان إلى مختار مترقبا ما سيقوله . قال مختار :

ـ السفينة تميل ميلا شديدا ، هل هى فى خطر؟.

ـ خطر قليل .

قال مختار وقد استبد به الخوف :

ـ هل يعنى هذا أن السفينة من الممكن أن تغرق ؟.

قال القبطان بلا اكتراث يشرح درسا فى الميكانيكا :

ـ تنقلب السفينة لو مالت فى مرة من المرات أكثر من خمسة وأربعين درجة .

ـ إنها تميل ميلا شديدا قد يصل فى أية لحظة إلى أكثر من خمسة وأربعين درجة ، من الممكن إذن أن تنقلب .

ذهل مختار عندما قال القبطان بكل هدوء :

ـ هذا ممكن بطبيعة الحال ، جميع السفن معرضة للغرق ، ولكن لا داعى للخوف ، فالإنسان لا يشعر بأى ألم عند انقلاب السفينة ، إذ يحدث ذلك فى غمضة عين ويصاب الإنسان بصدمة تجعله لا يشعر بشىء .

كانت مريم تنصت باهتمام لحديثها ، صاحت قائلة :

ـ يا للمصيبة ، لن يغمض لى جفن فى هذه السفينة . هل سنظل على هذه الحال ثلاثة أيام أخرى بلياليهم ؟.

ثم صاحت بشكل هستيرى قائلة :

ـ انظروا كيف تميل ؟ هذه السفينة ستغرق .

وانفجرت تبكى ، قال شريف بغضب :

ـ ما هذا ؟ لماذا لا تسلّمين أمرك لله ؟.

عاد مختار بعد انتهاء حديثه مع القبطان وجلس فى المكان الذى كان جالسا فيه . قالت مريم وهى مختنقة بالبكاء :

ـ أنا لا أحب الموت غرقا .

قال شريف الذى لم يستطع إخفاء شحوب وجهه .

ـ إن شاء الله لن نغرق .

غمغم مختار قائلا :

ـ هل بعد كل التعب الذى تعباه والعذاب الذى تعذبناه حتى حصلنا على الدكتوراه تغرق السفينة وتضيع الدكتوراه فى مياه البحر المتوسط ؟.

قال شريف شاعرا بيأس قاتل :

ـ سيحصل سمك القرش على الدكتوراه .

قال مختار :

ـ هيا بنا إلى الكبينة ، سأعلق فوطة فى المشجب وألاحظ زاوية الميل .

قالت مريم وكأنها لا تعى ما تقول :

ـ أجل ، أرجوك علق فوطة فى المشجب .

قال شريف بسخرية :

ـ وهل ستمنع الفوطة انقلاب السفينة ؟.

دخلوا جميعا كبينة مختار وظلوا ناظرين إلى الفوطة . صاح مختار قائلا :

ـ ياساتر استر ، زاوية الميل تقترب من خمسة وأربعين درجة .

عادت مريم تبكى وتقول بفزع شديد :

ـ المركب ستغرق . يا حبيبتى يا سامية . ياحبيبتى يافريدة .

بكت سامية قائلة :

ـ أنا لا أريد أن أغرق يا ماما .

صاح شريف قائلا لمريم :

ـ أيعجبك هذا ؟ أرعبتِ البنت .

انبعث صفير متواصل ، فاندفع مختار خارج الكبينة ليعرف سبب هذا الصفير. رأى عددا من

الركاب يعدون الخطى . عاد بأقصى سرعته إلى الكبينة صائحا :
ـ إنها صفارة الخطر ، هيا أسرعوا بارتداء ملابس الطوارئ والذهاب إلى المكان الذى حدوده لنا عند سور السفينة .

بكت مريم وأخذت تدور فى الكبينة على غير هدى . صاح شريف قائلا :
ـ أسرعى يا مريم . البسوا العوامات وهيا بنا نقف جنب قوارب النجاة .
استمرت مريم فى البكاء قائلة عن غير وعى :
ـ يا حبيبتى يا سامية ، يا حبيبتى يا فريدة .
صاح شريف قائلا :
ـ كفى بكاء ، أرجوك .
قال مختار :
ـ الموج يلعب بالسفينة .
غمغمت مريم قائلة بصوت مختنق بالبكاء :
ـ ثلاث سنوات ونحن فى شوق لمصر ، ونغرق قبل أن نراها ، لماذا ياربى ؟.
كان معظم الركاب قد اصطفوا فى أماكنهم عند قوارب النجاة . قال شريف :
ـ لن تغرق السفينة إن شاء الله . يا أرحم الرحمين يارب .
انبعث من مكبرات الصوت ترديد لهذه الجملة :
ـ على جميع الركاب الذهاب على الفور إلى الأماكن المخصصة لهم عند قوارب النجاة .
ظل جميع الركاب منتظرين الأوامر بركوب تلك القوارب ، ولكن العاصفة بدأت تهدأ فلم تصدر أية أوامر . بعد نحو نصف ساعة صدرت الأوامر بمغادرة المكان إذ لم يعد هناك ما يدعو لركوب قوارب النجاة .

انهمرت الدموع غزيرة من عينى مريم . قال لها شريف :
ـ لماذا تبكين الآن ؟ لقد هدأت العاصفة وهاهى ذى المركب لم تغرق .
قال مختار :
ـ يشعر الإنسان أحيانا برغبة فى البكاء بعد زوال الخطر .

عندما ضغط مختار على زر جرس باب شقة حلمى بالجيزة فوجئ بشقيقته فاطمة تفتح له الباب . صاحت قائلة وقد هزتها فرحة المفأجاة :

ـ مختار !؟ أهلا وسهلا .

هُرِعَ حلمى ومحمود إلى البهو عندما سمعوا ترحيب فاطمة بمختار ، وبعد تبادل القبلات والأحضان جلسوا فى البهو . قالت فاطمة :

ـ اشتقنا إليك يا مختار .

ـ وأنا اشتقت إليكم جميعا . كيف حال الوالد والوالدة .

قالت فاطمة :

ـ بخير ، ولو أننى لم أرهم منذ شهر؟.

قال حلمى :

ـ ألا تسألها لماذا هى هنا فى القاهرة منذ شهر؟

قال مختار :

ـ لماذا يا فاطمة ؟.

أحمر وجهها وأطرقت للأرض ولم تجب عن سؤاله . قال حلمى :

ـ فاطمة تزوجت .

قال مختار بفرحة منبعثة من أعماق قلبه :

ـ ألف مبروك . هذا أحسن خبر سمعته . مَنْ الزوج السعيد ياترى ؟.

قال حلمى :

ـ محام بالاستئناف العالى وتعيش الآن معه فى فيلاً رائعة بالقرب منا تطل على النيل .

قام مختار وقبَّل شقيقته وقد دمعت عيناه وقال :

ـ أنت أهل لكل خير يا فاطمة ، أدعو الله لك بالسعادة والتوفيق .

قالت فاطمة :

ـ ألا تهنئ حلمى أيضا ؟.

قال مختار :

ـ مبروك يا حلمى ، لكن علام أهنئه ؟.

قالت فاطمة :

ـ حلمى خطب أريجة ابنة خالك .

ـ مبروك ، ألف مبروك . أيحدث كل هذا فى أثناء سفرى دون أن أعلم ؟ ليس ببعيد أن يكون محمود قد خطب أو تزوج أيضا .

قال حلمى مبتسما :

ـ أجل ، تزوج منذ أسبوعين من فتاة يونانية ويسكن فى الشقة التى أمامنا .

قال مختار :

ـ مبروك يا محمود ، لقد تغيرت أشياء كثيرة .

قال محمود :

ـ الله يبارك فيك ، لابد أن تتغير الدنيا مع مرور الزمن .

غمغم مختار قائلا وكأنه يحدث نفسه :

ـ مرور الزمن أكبر مأساة فى الدنيا

قالت فاطمة :

ـ لم يبق سواك بدون زواج يا مختار ، عقبالك .

ـ لا ، أنا مرتاح هكذا .

قالت فاطمة وفى صوتها حزن صادق :

ـ ولكننى حزينة من أجلك . لن أرتاح حتى أراك مع زوجة جميلة تؤنس وحدتك .

فى هذه اللحظة انبعث من ميدان الجيزة ضجة غير عادية تتخللها هتافات غير واضحة الكلمات . انقبض قلب مختار وقال :

ـ ما هذه الضجة ؟.

قال حلمى :

ـ لست أدرى ، سأذهب لأعرف .

هبط السلم فى خطوات سريعة ثم عاد بعد نحو عشر دقائق يلهث شاحب الوجه متجهم الملامح وصاح قائلا بفزع :

ـ القاهرة تحترق .

انتفض مختار وقال بلهفة ورعب :

ـ غير معقول ، أين هذا الحريق ؟.

قال حلمى :

ـ الحرائق فى قلب القاهرة . يقولون إن أجمل المحال التجارية ودور السينما احترقت . احترق كل شىء .

غمغم مختار قائلا وقد شعر بيأس شديد :

ـ لماذا يحدث هذا يا ربى للقاهرة وأنا فى شوق لرؤيتها ؟ وكيف احترقت ؟.

ـ الناس الذين سألتهم يقولون إن المظاهرات والفوضى تجتاح شوارع وسط القاهرة ومستمرون فى إشعال النار فى جميع المبانى .

تمتم مختار قائلا :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ، يا للخسارة يا مصر .

ثم انتفض واقفا وقد شحب وجهه . سأله حلمى بلهفة :

ـ ما بك يامختار ؟.

ـ تذكرت الآن شيئا رهيبا .

ـ ماهو ؟.

ـ عائلة مريم فى منزل بوسط المدينة .

قالت فاطمة :

ـ من هى مريم هذه ؟.

ـ زوجة أحد أصدقائى ، ذَهَبَتْ بصحبة زوجها وابنتها لزيارة والدها ووالدتها . أخشى أن يكون قد حدث لهم مكروه .

لم يحدث أى مكروه لأى فرد من أفراد عائلة مريم ، إذ أن النار لم تمتد إلى منزلهم ، ولكن ما رأته مريم فى ذلك اليوم من أهوال جعلها تنخرط فى بكاء عنيف حزنا على ما أصاب القاهرة . كان شريف متوتر الأعصاب ، صاح قائلا لمريم :

ـ كفى بكاء ، لماذا تبكين ؟.

ـ أبكى على مصر .

ـ ألا تحمدين الله على نجاتنا جميعا ؟.

سافر مختار إلى البلد لرؤية والده ووالدته اللذين أصبحا وحيدين فى البيت بعد تفرّق الأبناء . مكث فى البلد ثلاثة أيام ثم سافر إلى القاهرة .

ـ ٧٥ ـ

ذات صباح سمع مختار جرس الباب يدق بإلحاح . كانت مريم نائمة وكان شريف جالسا فى غرفة المكتب يقرأ كتابا . ترك الكتاب وأسرع بفتح الباب ففوجئ برؤية مختار تبدو عليه علامات الانفعال ، وقبل أن يدخل من عتبة الباب صاح قائلا :

ـ هل سمعت الإذاعة اليوم ؟.

ـ لا ، لم أفتح الراديو ، ماذا حدث ؟.

ـ الجيش استولى على الحكم .

أسرع شريف بفتح الراديو وأيقظ مريم وجلس الثلاثة ينصتون إلى الأنباء المثيرة المتلاحقة ويعلقون عليها تعليقات شتى .

كان مختار جالسا فى شرفة منزله عندما رأى شريفاً يمد الخطى متجها نحوه . لوّح شريف لمختار بيده وعلى فمه ابتسامة فأسرع مختار بفتح الباب . قال شريف وهو يصافح مختار :

ــ مبروك الترقية ، أخيرا أصبحنا أعضاء فى هيئة التدريس بالكلية .

ــ ومبروك لك أنت أيضا ، لقد هلكنا حتى نلنا هذه الترقية .

ــ إنها أصعب وظيفة فى الدنيا ، لم يعد ينقصك سوى شىء واحد يامختار .

ــ ماهو ؟.

ــ ينبغى أن تتزوج . إن لم تلحق نفسك وتتزوج الآن فسيفوتك القطار . اسمع نصحيتى ، لا تضيع الوقت . كلما كبر الإنسان فى السن قَلّ سعره فى سوق الزواج . الأيام تمر بسرعة والشعر الأبيض ، الذى بدأ يغزو رأسك ، فى ازدياد مطرد .

ــ عندما أجد الفتاة التى تعجبنى سأتزوج .

ــ قل لى بصراحة ، أما زلت محتفظا بصورة درية ؟.

قال مختار بحزن :

ــ صورة درية ؟ صورة درية فُقدت منى . كنت وضعتها داخل كتاب عند ترتيب الحقائب فى انجلترا بمناسبة السفر ، وعندما وصلنا هنا بحثت عنها فلم أجدها . حتى صورتها فقدت منى .

ــ هذا أفضل ، لكى تنساها ، لن تستطيع نسيانها وصورتها أمامك تراها كل يوم . هذه البنت أفسدت حياتك . لا يمكننى أن أتصور إنسانا يظل يحب فتاة طوال هذه السنوات ولا يستطيع نسيانها .

غمغم مختار قائلا وفى صوته رائحة الألم :

ــ حب بلا أمل .

ــ هل تريد أن تظل معذبا هكذا حتى تموت ؟.

ــ الحياة والموت ، الوجود والعدم ، تلك هى المشكلات التى تحير العلماء وتحيرنى .

ــ توجد مشكلة أخرى ستشعر بها فيما بعد .

ــ ماهى ؟.

ــ مشكلة الوحدة فى الشيخوخة .

ــ قد لا أصل إلى سن الشيخوخة فلا تكون هناك مشكلة ، وعلى أية حال ، أعتقد أن الإنسان الذى يشغل نفسه بأداء رسالة فى الحياة ذات قيمة لايمكن أن يشعر بالوحدة .

ــ أنا شخصيا ، لو لم أتزوج لفقدت عقلى . عندما تسافر مريم والبنتان إلى القاهرة يومين اثنين أشعر بأننى سأُجَنّ من الوحدة ، أسير فى البيت أكلم نفسى .

ــ على أية حال ، لست وحدى الآن فى البيت . أحضرت رجلا من البلد يطهو الطعام وينظف البيت .

- ٧٧ -

كان مختار متجها نحو قسم علم الحيوان عندما سمع شخصيا يناديه ، التفت فإذا به سعد يهبط من سيارته التي اشترتها له زوجته ، قال لمختار :

ـ مبروك يا دكتور مختار ، لقد وافق مجلس الجامعة اليوم على ترقيتكما أنت وشريف إلى وظيفة أستاذ مساعد . أنا قادم من إدارة الجامعة .

غمغم مختار قائلا :

ـ الحمد لله .

- ٧٨ -

كانت مريم ما زالت نائمة عندما تناول شريف الصحف التي وجدها خلف باب الشقة كما اعتاد أن يضعها البائع كل يوم في نحو السادسة صباحا ، وما كاد يطالع العناوين الرئيسية حتى فزع وهرع إلى مريم قائلا :

ـ أما زلت نائمة ؟ قومي بسرعة . حدثت مصيبة كبرى .

قامت مريم من نومها مرعوبة وقالت بلهفة :

ـ مصيبة ؟! ألن تنتهي المصائب ، ما هي المصيبة هذه المرّة ؟.

ـ اسرائيل هاجمت مصر ومعها انجلترا وفرنسا .

اتسعت عينا مريم وقالت بدهشة :

ـ غير معقول . من قال ذلك ؟.

ـ ها هي ذي في الصحيفة .

بعد يومين كانت فريدة تطل من النافذة فرأت شيئا لم تر مثله من قبل ، نادت أمها قائلة :

ـ ماما ، تعالى لترى ماذا يفعلون .

أسرعت إليها مريم ونظرت إلى النافذة وقالت :

ـ إنهم يطلون اللمبات الكهربائية التي في الشوارع باللون الأزرق .

ـ ولماذا يفعلون ذلك ؟.

ـ لئلا ترى طائرات الأعداء البلد عندما تأتي في الليل .

ـ ولماذا تأتي طائرات الأعداء ؟.

قالت سامية :

ـ لتضربنا بالقنابل .

نهرتها مريم قائلة :

ـ اسكتى يا سامية ، إياك أن تنطق هذه الكلمات مرة أخرى .

بكت فريدة والتصقت بأمها قائلة :

ـ أنا خائفة يا ماما ، أنا خائفة .

نظرت مريم إلى سامية نظرة قاسية وقالت :

ـ أرأيت ماذا فعلتِ ؟ لقد أخفتِها .

بعد أربعة أيام فى نحو التاسعة مساء انطلقت زمارة الإنذار . ارتفعت الأصوات فى الشارع تنادى :

ـ اطفئوا النور ، اطفئوا النور .

صاح شريف قائلا :

ـ اطفئوا جميع الأنوار بسرعة وهيا إلى المخبأ .

بكت فريدة . احتضنت مريم فريدة وسامية . ظلت فريدة تبكى قائلة :

ـ أنا خائفة ، أنا خائفة .

ولاحظت مريم أن جسد فريدة يرتعد .

ـ ٧٩ ـ

ذات مساء ، بعد بضعة شهور ، فى نحو السابعة مساء كانت فريدة تطل من النافذة ، قالت لوالدتها :

ـ هل أخاف أم لا أخاف ؟!.

ـ لا تخافى يا حبيبتى ، انظرى ، لقد انتهت الحرب وسيعود النور للشوارع . هاهم يزيلون الطلاء الأزرق من فوق مصابيح الشوارع .

ثم قالت موجهة حديثها لشريف :

ـ أنا سعيدة لأن الفيلم الذى كتب مختار قصته سيعرض فى دور السينما والدنيا منورة . نريد مشاهدة هذا الفيلم .

ـ نذهب غدا لمشاهدته مع مختار ، لقد أثار ضجة فى الصحف .

قبل بدء عرض الفيلم قال مختار لشريف :

ـ هل قرأت روايتى الجديدة ؟.

ـ أجل ، قرأتها وقرأتها مريم أيضا .

ـ ما رأيكما فيها ؟.

ردت مريم قائلة :

ـ رائعة وممتعة . عندما بدأت قراءتها لم أستطع تركها إلاّ بعد الانتهاء منها .

قال شريف :

ـ أنت شخص موهوب يامختار . أنا دائما أقول لمريم إنك لو تفرغت للكتابة سيكون لك شأن عظيم . ترى

هل سافرت إلى القاهرة لتشاهد مسرحيتك التى تعرض فى دار الأوبرا ؟.

ـ لا ، لم أسافر بعد . سأسافر يوم الخميس القادم .

قالت مريم :

ـ ونحن سنسافر خصيصا لمشاهدتها .

ـ ٨٠ ـ

حصل شريف على درجة الأستاذية فذهب مختار إليه فى غرفته لتهنئته شاعرا وكأنه هو الذى حصل على هذه الدرجة . قال له شريف :

ـ عقبالك قريبا إن شاء الله .

ـ كانت الأمور على ما يرام إلى أن قفز فى الميدان رشاد زهدى الذى لم يكن فى الحسبان .

ـ لا تعره أىَّ اهتمام .

ـ هل تتصور أننى لم أره منذ تخرجنا فى كلية العلوم ؟.

ـ ولا أنا . كل ما أعرفه عنه أنه عيّن عقب تخرجه فى مدرسة ثانوية للبنات ، ثم سافر إلى إنجلترا على نفقته وحصل على الدكتوراه وعين فى المركز القومى للبحوث . فلنترك هذا الموضوع الآن . أنا ومريم ندعوك لتشريفنا بزيارتك فى بيتنا هذا المساء .

ـ هل من الممكن تأجيل هذه الزيارة إلى الغد ؟.

ـ لا ، هذا غير ممكن ، ولماذا تريد تأجيلها !.

ـ سأكون مشغولا الليلة بمراجعة رسالة ما جستير المراجعة النهائية ولا أود أن أكون سببا فى تأخيرها .

ـ لن تتأخر كثيرا لو أَجَّلْتَ تلك المراجعة إلى الغد . سننتظرك فى البيت هذه الليلة . أنا ومريم أعددنا لك مفاجأة ستعرفها عندما تحضر .

ظل مختار يفكر فى هذه المفاجأة حتى وجد نفسه يضغط على زر جرس باب شقة شريف . فتحت له الباب مريم وقالت عندما رأته :

ـ أهلا وسهلا دكتور مختار ، تفضل .

قال لمريم فى أثناء اتجاهه نحو غرفة الصالون :

ـ شريف يقول إنكمْ أعددتم لى الليلة مفاجأة ، ترى ماهى ؟.

أقبل شريف قائلا :

ـ ألا يذكّرك اليوم بأى شىء ؟.

قال مختار بعد تفكير عميق :

ـ يذكّرنى بشىء ! لا ، لا يذكّرنى بأى شىء .

ـ ألا ترى لهذا اليوم بالذات أية أهمية خاصة لديك ؟.

قال مختار بعد مزيد من التفكير :

ـ أهمية خاصة ؟ إنه يوم ككل الأيام . ما هى هذه الأهمية الخاصة ؟.

ـ ألا تتذكر أن اليوم هو عيد ميلادك ؟.

ضحك مختار وقال بسخرية :

ـ عيد ميلادى ؟ ظننته شيئا أهم من ذلك ، وما أهمية عيد ميلادى ؟ كل ما كان يشغل فكرى هو أن بدء الدراسة غدا . لم يحدث مطلقا أن تذكرت عيد ميلادى ، ولست أدرى لماذا يسمونه عيدا . من الواجب أن يحزن الإنسان لمرور سنة من عمره ولكن كيف عرفتم أن تاريخ مولدى اليوم ، إذ لم يحدث أن ذكرته لأحد .

ـ رأيته فى جواز سفرك ونحن قادمون من انجلترا ، منذ زمن بعيد ، من حوالى أربعة وعشرين عاما .

ـ ومازلت تذكره ؟.

ـ ولن أنساه .

قالت مريم :

ـ أبهذه السرعة مرت أربعٌ وعشرون سنة منذ عَوْدَتِنا من انجلترا ؟.

قام شريف متجها نحو غرفة المائدة المجاورة للصالون قائلا :

ـ هيا قم واطفئ الشموع .

قال مختار ضاحكا :

ـ أخشى أن تكونوا قد غرستم فى (التورتة) أربعا وخمسين شمعة .

ـ لاتخف ، وضعنا شمعة واحدة رمزية .

غنوا معا أغنية عيد الميلاد وأطفأ مختار الشمعة بنفخة واحدة ، ولاحظت مريم أن بعض الدموع ترقرقت فى عينيه .

ـ ٨١ ـ

فى ذلك اليوم ، أول أيام الدراسة ، امتلأ فناء الكلية بالطلبة . كان الإنسان بنظرة عابرة يمكنه تمييز الطلبة والطالبات الجدد ، فالطالبات يقفن فى مجموعات منفصلين عن الطلبة الذين تبدو عليهم الرهبة للانتقال من المدرسة الثانوية إلى الجامعة التى تبدو لهم كمعبد ذى طقوس غريبة لايعلمون عنها شيئا .

علم مختار أن محاضرته ستبدأ فى الثامنة صباحا مع طلبة السنة الأولى بمدرج « على إبراهيم » ، وأن عدد الطلبة نحو مائة منهم نحو عشرين من البنات والباقى من البنين .

حضر إلى الكلية فى نحو السابعة والنصف صباحا وكان حريصا ، كعادته ، على بدء المحاضرة فى موعدها ، إذ فى الثامنة تماما كان واقفا على المنصة وخلفه السبورة المستطيلة وأمامه المنضدة الممتدة بطول المنصة . ألقى نظرة سريعة على الطلبة والطالبات ، ولم يكن يراهم كأفراد بل كمجموعة ، لو رأى طالبا

أو طالبة منهم خارج المدرج لما عرفها. كان معتادا إلقاء محاضراته من الذاكرة دون الاستعانة بأية مذكرات أمامه، وبدأ محاضرته قائلا:

ـ يمكن تقسيم المملكة الحيوانية إلى مجموعتين رئيسيتين: المجموعة الأولى تضم الحيوانات وحيدة الخلية «بروتوزُوّا»، والمجموعة الثانية تضم الحيوانات عديدة الخلايا «مياتازُوّا». وتنقسم الحيوانات وحيدة الخلية إلى أربع طوائف...

غير معقول. أشعر بدوار. لابد أنني فى حُلم.

ـ تنقسم الحيوانات وحيدة الخلية، كما قلت، إلى أربع طوائف: طائفة السوطيّات الهدبيّات، وطائفة اللحميّات، وطائفة البوغيّات...

لا يمكن أن يكون هذا حلما. هذه البنت الجالسة فى الصف الأول هى بعينها، إنها درية، أجل، هى درية، لكن هذا مستحيل، لابد أن درية أصبحت الآن سيدة كبيرة السن، ودرية هذه التى أمامى صغيرة، لايزيد سنها على سبعة عشر عاما، كأننى عدت إلى الماضى ورجعت درية فتاة صغيرة كما رأيتها أول مرّة...

ـ وهذا التقسيم للحيوانات الأولية مبنى على طريقة الحركة.

هى درية بجميع ملامحها وشعرها وعينيها وابتسامتها ونظراتها. هل أعاد الله لى درية كما رأيتها أول يوم فى حديقة الأندلس مكافأة لى على صبرى وعذابى طوال هذه السنين؟ لايمكن أن يكون هذا حقيقة، أجل، لابد أننى فى حُلم، أو قد أكون مريضا أرى أشياء لا وجود لها....

ـ أنا متأسف. شعرت بتعب مفاجئ ولن أستطيع إتمام المحاضرة، سألقيها عليكم فى وقت آخر إضافى.

حدثت همهمة تحولت إلى ضجة بين الطلبة، وتمكنت أذن مختار من التقاط بعض كلمات مثل: «سلامتك يادكتور» و«لابأس عليك»، وغادر المدرج مطرقا للأرض.

قال شريف وقد بدأ يقلق على مختار:

ـ درية؟! ماهذا الذى تقوله؟ لقد حصلت درية على بكالوريوس العلوم منذ سنوات عديدة، فما الذى يجعلها تعيد الدراسة الآن وهى فى هذه السن؟.

ـ درية التى رأيتها لاتزيد سنها على سبعة عشر عاما. إنها هى بعينها لم تتغير عما كانت عليه يوم رأيتها أول مرة.

ـ هذا غير معقول:

ـ لست أدرى، قد أكون مريضا يا شريف وما رأيته مجرد هلاوس لا وجود لها. إذا كان الأمر كذلك فلابد من عرض نفسى على أحد الأطباء.

ـ على أية حال من الممكن التأكد من هذا الأمر.

ـ كيف؟.

ـ طلبة السنة الأولى عندهم الآن حيوان عملى . نذهب معا لأرى ما إذا كانت هذه البنت حقيقةً أم خيالا .

ـ لا مانع لدىَّ ، هيا إلى المعمل .

كان الطلبة والطالبات منهمكين فى رسم الشكل الخارجى للضفدعة أخذ شريف يمسح بعينيه جموع الطالبات باحثا عن تلك الفتاة . وجدها جالسة تبرى القلم الرصاص فغمغم قائلا بدهشة :

ـ هذا غير معقول ! إنها بالفعل صورة طبق الأصل من درية فى صباها ، شىء غريب يصعب تصديقه .

ـ إذا كان الأمر كذلك ، فلست مريضا ولم أكن أحلُم .

قال شريف بصوت خافت وكأنه يحدث نفسه :

ـ كأنها درية بُعثت من جديد ! هل تحب أن تكلمها ؟.

قال مختار بفزع :

ـ لا ، لا أريد التحدث معها . كلما أوشكت على نسيان الماضى يحدث ما يذكّرنى به ، حتى صورة درية التى ظننتها ضاعت عثرت عليها منذ أسبوع بين صفحات أحد الكتب . أصبح الأمر فوق احتمالى . أنا تَعِبٌ ياشريف ، هل من الممكن توصيلى إلى منزلى بسيارتك ؟ أشعر بدوار .

ـ حاضر ، لحظة واحدة ، سأحضر حقيبتى .

صعد شريف مع مختار إلى شقته للاطمئنان عليه ، وبحركة تلقائية شبه انعكاسية نظر إلى المكتبة ، قال :

ـ أين صورة درية ؟ أنا لا أراها فوق المكتبة .

ـ كنت أبعدتها عن عينى لأنساها ، فجاءت هذه الفتاة لتذكّرنى بالماضى كله .

ـ أحسنت صنعا بإخفاء صورة درية ، إذ لو رآها أحدٌ فسيعتقد أنها صورة هذه البنت التى رأيتها اليوم والتى لا أعرف اسمها حتى الآن .

ـ تكون مصيبة لو كان اسمها درية !.

ـ كنت تتمنى رؤية درية وكنت تراها فى أحلامك ، ها هى ذى قد أعادها الله إليك صغيرة ناضرة كالوردة كما كانت منذ سنوات عديدة .

ـ عندما رأيت هذه البنت خيل إلىّ أن الزمن رجع بى إلى الماضى وأننى مازلت صغير السن كما كنت عندما رأيت درية أول مرّة ، وبمجرد خروجى من المدرّج رأيت وجهى فى المرآة ...

ثم تهدج صوته وهو يكمل حديثه قائلا :

ـ فأدركت أن سنين عديدة مرت من عمرى .

ولم يستطع السيطرة على قطرات الدموع التى طفرت من عينيه . قال شريف :

ـ ماذا جرى لك يامختار ؟ كنت صغيرا وأصبحت الآن رجلا عظيما شهيرا يقدّرك ويحترمك الجميع ، ألا تشعر بذلك ؟.

مسح مختار دموعه بطرف إصبعه وقال :

ـ لا أشعر إلاّ بالحزن والألم .

ـ ٨٢ ـ

بعد نحو أسبوعين ، عقب انتهاء محاضرة السنة الأولى فى علم الحيوان ، زار شريف مختارا فى غرفته بالكلية وسأله :

ـ أما زلت تعانى من الاضطراب فى أثناء القاء محاضرات السنة الأولى ؟.

ـ اعتدت الموقف .. إننى أتحاشى النظر إلى هذه البنت . عندما تلتقى عيناى بعينيها ينتابنى شعور غريب . شعور يرعبنى .

ـ بماذا تشعر ؟.

ـ المكان الذى شغلته درية فى قلبى طوال هذه السنين بدأَتْ تحتله هذه الفتاة .

قال شريف وقد شعر بقلق شديد :

ـ لا يا مختار ، احترس . لابد من مقاومة هذا الشعور بكل قوتك وإرادتك . هذه الفتاة صغيرة السن ، وأنت الآن رجل كبير السن والمقام ، كل كلمة وأية حركة محسوبة عليك

ـ أجل ، لابد أن أقاوم . لا أريد أن تبعث درية لتعذبنى من جديد . لن أسمح بذلك أبدا .

قال شريف :

ـ هل عرفت اسمها ؟.

ـ أجل ، اسمها ياسمين .

ـ ٨٣ ـ

كان شريف جالسا فى غرفة مكتبه بالمنزل مستغرقا فى قراءة إحدى رسائل الدكتوراه التى يشرف عليها عندما دخلت مريم تحمل له فنجان قهوة ، قال دون أن ينظر إليها :

ـ شكرا .

قالت :

ـ أريد التحدث معك فى أمر هام لن يستغرق أكثر من دقيقة فى أثناء تناولك فنجان القهوة .

ـ تفضلى ، لقد تعبت من القراءة وأريد الاستراحة بعض الوقت .

ـ أمازالوا يعذبون الدكتور مختار حتى الآن ويماطلون فى ترقيته للأستاذية ؟.

ـ العميد ورئيس القسم متعاطفان معه ويرغبان فى ترقيته ، ولكن أحد زملائنا ورفيق دفعتنا ، رشاد زهدى ، الذى عاش معنا فى بيت واحد فى فترة الدراسة ، تقدم هو أيضا لشغل كرسى الأستاذية الذى تقدم مختار لشغله . وذلك قبل انتهاء الموعد المحدد فى الإعلان بيوم واحد ، فوضع الكلية فى موقف حرج .

ـ ألا تعرف عنوان رشاد زهدى هذا ؟.

ـ لا ، لا أعرف عنوانه ولا أريد رؤية خلقته .

ـ معرفة عنوانه ليس أمرا مستحيلا . أنا أقترح أن تذهب إليه فى بيته وترى خلقته من أجل صديقك مختار .

ـ وماذا أقول له ؟.

ـ ناقشه فى الموضوع وحاول إقناعه بسحب أوراقه لئلا ينافس مختارا فى الأستاذية .

ـ لا أظن أن مقابلتى له ستكون مجدية ، إنه شديد العناد .

ـ على أية حال إن لم تكن مقابلتك له ستفيد فإنها لن تضر .

ـ أحاول .

سافر شريف إلى القاهرة لهذه المهمة . كان يشعر وهو فى طريقه إلى منزل رشاد بقلق وانقباض وكأنه ذاهب إلى مأمورية الضرائب . أسرعت دقات قلبه وهو يضغط على زر جرس الباب . بدأ السرور على وجه رشاد بشكل لم يكن شريف يتوقعه . عانق شريفا بحرارة وقبله قائلا :

ـ أهلا وسهلا بالصديق العزيز . منذ سنين عديدة وأنا أتمنى رؤياك . كيف حال مختار؟ أنا مشتاق لرؤياه هو أيضا .

ـ مختار بخير والحمد لله ويهديك سلامه .

كان رشاد يرتدى جلبابا ناصع البياض ويمسك فى يده مسبحة صفراء قال شريف بسخرية :

ـ لم أكن أتخيل رؤية مسبحة بيدك ، هل تحملها للتسلية ؟.

ـ لا ، بل للعبادة .

بدت الدهشة على وجه شريف وقال :

ـ ماذا حدث للدنيا ؟ يبدو أنك تَغَيَّرْتَ كثيرا .

أطرق رشاد نحو الأرض فترة ثم رفع رأسه وفى عينيه دموع تترقرق وقال :

ـ غيّرتنى الليالى والأيام . لقد زهدت فى الحياة . إننى الآن أصلى جميع الصلوات فى مواعيدها وأصوم رمضان ، وذهبت مرتين لأداء فريضة الحج .

غمغم شريف قائلا وكأنه يحدث نفسه :

ـ كيف حدث هذا ؟.

ـ منذ وفاة ابنتى .

قال شريف بحزن :

ـ لم أكن أعلم ذلك . لو علمنا أنا ومختار لحضرنا خصيصا للعزاء .

أطرق رشاد للأرض قائلا :

ـ أنا متأكد من ذلك .

ثم رفع رأسه ونظر إلى شريف وقال :

ـ أشعر بأنك حضرت اليوم لأمر معين ، فهل يصدق حَدْسى ؟.

ـ أجل ، حضرت لأمر هام يتعلق بصديقنا مختار .

نظر رشاد بعينين مستطلعتين وقال :

ـ ماذا أستطيع أن أفعله من أجل مختار ؟.

ـ أنت تعلم أن مختارا تقدم لشغل كرسى الأستاذية بكلية علوم الإسكندرية التى يعمل بها ، وأنت نافسته فى شغل هذا الكرسى .

شحب وجه رشاد وقال :

ـ أقسم برحمة ابنتى أننى لو علمت أن مختارا تقدم لشغل هذا الكرسى لما تقدمت .

ـ أنا أصدقك . ولكن ما العمل الآن ؟.

ـ لابد أن أسحب أوراقى على الفور . أنا لا أسمح لنفسى بمنافسة شخص أكن له الحب والاحترام . غدا سأذهب إلى جامعة الإسكندرية وأسحب أوراقى .

ـ ٨٤ ـ

كان مختار جالسا فى غرفته بالكلية يقرأ كتابا عندما دخل الفراش وقال له :

ـ إحدى الطالبات تود الاستفسار من حضرتك عن شىء .

ـ فلتتفضل .

قالت الفتاة :

ـ صباح الخير .

دهش مختار عند رؤيتها وقال :

ـ صباح الخير .

شىء عجيب ، إنها ياسمين ! ما الذى دفعها للمجىء إلى غرفتى ؟.

ـ ما الشىء الذى تودين الاستفسار عنه ؟

قالت بخجل وارتباك وقد توردت وجنتاها :

ـ أخشى أن أكون سأعطل حضرتك عن عملك .

ـ لا ، لن تعطلينى عن أى شىء . تفضلى اجلسى يا ياسمين ، أليس اسمك ياسمين ؟.

ـ أجل ، اسمى ياسمين ، ولن آخذ من وقت حضرتك سوى دقيقة واحدة ، هل تسمح بكتابة أى شىء فى (الأوتوجراف) ؟.

ـ ماذا أكتب ؟.

ـ أى شيء تكتبه حضرتك ، ولو كلمة واحدة ، سيكون ذا تأثير كبير فى نفسى وعظيم القيمة فى نظرى .

أخذ منها الأوتوجراف وكتب بعض أبيات من شعر إيليا أبو ماضى التى تقول :

لـتـكـن حـيـاتـك كـلـهـا أملاً جـمـيـلاً طـيـبـا
ولتملأ الأحلام نـفـسك فى الـكـهـولـة والصـبـا
مـثـل الـكـواكـب فى الـسـمـاء وكـالأزاهـر فى الربى

وناولها الأوتوجراف . قرأت الكلمات التى كتبها وقد بدت الفرحة فى ملامح وجهها وقالت بلهفة :

ـ أنا متشكرة ، متشكرة جدا . أنا أسمع عن حضرتك من قبل مجيئى إلى الكلية . كل الناس تعرف حضرتك ، وكانت أمنيتى فى الحياة أن أرى حضرتك وأتحدث مع حضرتك . حضرتك مؤلف عظيم . قرأت كل كتبك وسمعت جميع إذاعاتك وقرأت جميع مقالاتك وشاهدت جميع مسرحياتك وأفلامك ، ومحتفظة بقصصك ومقالاتك التى نشرتها فى الصحف حضرتك فى نظرى أعظم إنسان فى العالم .

غمغم مختار قائلا بسخرية وعلى شفتيه ابتسامة زائفة :

ـ أعظم إنسان فى العالم ؟! وهل هذا معقول ؟.

ـ هذا هو شعورى . لايمكن أن تتصور حضرتك مقدار السعادة التى أنا شاعرة بها الآن وأنا جالسة معك أكلمك . كان حلمى الذى تمنيت تحقيقه .

تفاعلت فى ذهن مختار ذكريات وأفكار عديدة جعلته يقاوم رغبة فى البكاء اجتاحته . ذعرت ياسمين عندما لاحظت ذلك فقالت بلهفة :

ـ ما بك يادكتور مختار ؟ هل تشعر بتعب ؟.

قال وهو يجفف دموعه بمنديله :

ـ لا ، لاشيء . عيناى ملتهبتان قليلا منذ الصباح فطفرت منهما بعض الدموع .

ـ سلامتك . لابد أن تهتم بصحتك . حضرتك ثروة للبلد . لايوجد كثيرون مثلك . لايمكننى وصف السعادة التى شعرت بها عندما شاهدت حضرتك داخلا المدرج فى أول محاضرة . لقد عرفتك على الفور من الصور التى تنشرها لك الصحف . كنت أتمنى أن أراك مذ كنت فى المدرسة الثانوية ، وفكرت فى إرسال خطاب لحضرتك ولكننى خفت ألا يفهم الناس المشاعر الحقيقية ويقدّرونها . تفكير الناس فى بعض الأحيان بشع ، رهيب ، يفسد المعنى الحقيقى للمشاعر الجميلة .

ـ وماذا كنت ستكتبين فى الخطاب ؟.

ـ لست أدرى . فكرت فى إرسال الخطاب لحضرتك قبل أن أفكر فيما سأكتبه فيه . يخيل إلىّ أننى كنت سأكتب فيه أننى .. أننى معجبة بك إعجابا شديدا مهما وصفته لايمكننى التعبير عن حقيقته ،

والذى أتعبنى هو عدم استطاعتى إطلاع أى إنسان على شعورى هذا الذى أخفيته فى أعماق نفسى حتى لا يراه أحد .

ــ أشكرك من كل قلبى على هذه المشاعر الجميلة وأتمنى أن أكون جديرا بها .

ــ يبدو أن حضرتك لا تعرف قيمة نفسك . ألم يقل لك أحد غيرى هذا الكلام ؟ لابد أن كثيرين قالوه لك .

ــ أنت أول من أسمع منه هذا الكلام .

قالت بدهشة :

ــ هل هذا معقول ؟

ثم تجهم وجهها فجأة وهى تنظر إلى الدكتور مختار عندما رأت دموعه تسيل على خديه محاولا مسحها وقد أدار وجهه لئلا تراها فقالت بلهفة :

ــ هل أسأت لحضرتك بكلامى هذا ؟.

ــ لا ، بل على العكس ، أنت تبالغين فى إطرائى . ولكننى كما قلت لك أشعر اليوم بالتهاب فى عينىَّ ولذا فالدموع تتساقط منهما .

قالت باللهفة نفسها :

ــ لابد من الاهتمام بعينيك . أنا أعرف طبيب عيون ممتاز اسمه رشوان فهمى . عيادته فى محطة الرمل ، لابد أن تذهب إليه .

ثم أدركَت أن المسألة ليست تعبا فى العينين ، فلقد بدا لها بوضوح أنه يبكى . انتفضت واقفة وقالت بصوت متهدج :

ــ غير معقول ، حضرتك تبكى ، لايمكننى احتمال شىء كهذا . لا أستطيع رؤية دموع رجل عظيم .

وانخرطت فى بكاء عنيف .

ــ ٨٥ ــ

دق جرس التليفون فى منزل شريف فالتقط السماعة وسمع مختارا يطلب منه الحضور بأقصى سرعة . لم يسأل شريف عن السبب بل أسرع واستقل السيارة وانطلق بها نحو بيت مختار . فتح الخادم الباب وقال لشريف :

ــ الدكتور فى غرفة النوم .

كان مختار نائما فى سريره وعلامات الألم بادية على وجهه . سأله شريف :

ــ مابك ؟.

ــ لست على مايرام .

ــ كنت فى أحسن صحة عندما رأيتك فى الكلية ، ماذا حدث ؟.

ـ أشعر بمغص غير مريح من نوع غريب لم أشعر بمثله من قبل .

ـ سأحضر لك الطبيب .

عندما فحص الطبيب مختارا اكتشف التهابا فى الزائدة الدودية ، فأسرع إلى تليفون مختار وحجز مكانا بمستشفى المواساة .

فى اليوم التالى لإجراء العملية ذهب شريف ومريم لزيارة مختار فى المستشفى . فى أثناء وجودهما بغرفته دخلت إحدى الممرضات وقالت لمختار الراقد على السرير :

ـ بنت واقفة عند الباب منذ فترة طويلة تريد زيارتك يادكتور مختار .

قال مختار :

ـ ولماذا لم تدخل ؟ فلتتفضل .

ـ فوجئ مختار بدخول ياسمين وفى يدها باقة ضخمة من الأزهار تضمها لصدرها . قالت وقد بدا عليها خجل شديد :

ـ مساء الخير .

قال مختار :

ـ مساء النور .

همست مريم فى أذن مختار قائلة :

ـ لابد أنها ياسمين .

قال شريف :

ـ أجل ، إنها هى . وكيف عرفتِ ؟.

ـ إنها صورة طبق الأصل من درية .

قالت ياسمين وهى مطرقة للأرض فى خجل :

ـ أخشى أن أكون قد ضايقت حضرتك لمجيئى هنا لزيارتك .

ـ على العكس ، أنا أشكرك جدا على هذه الزيارة .

ـ ألم تغضب منى لمجيئ ؟.

ـ وهل من المعقول أن أغضب منك لزيارتى بالمستشفى ؟ أزهارك جميله جدا .

ـ متشكرة .

ـ كيف حال الكليّة ؟.

ـ ستكون الكلية على مايرام عندما تشفى وتعود إليها .

دخلت ممرضة وأعطت مختارا ترمومترا ، فوضعه فى فمه وخرجت الممرضة . فى أثناء ذلك قال شريف لياسمين :

ـ وكيف حالك فى الدراسة يا ياسمين ؟ هل تذاكرين دروسك جيدا ؟.

ـ أذاكر جيدا ، ولكن أكثر علم أهتم بمذاكرته هو علم الحيوان .

قال شريف مبتسما :

ـ ولماذا علم الحيوان بالذات ؟.

توردت وجنتاها وقالت :

ـ لست أدرى .

دخلت الممرضة وأخذت الترمومتر ونظرت إليه لمعرفة درجة الحرارة . قالت ياسمين بلهفة :

ـ كم الحرارة ؟.

قالت الممرضة :

ـ مرتفعة قليلا .

قالت ياسمين باللهفة نفسها :

ـ ولماذا ترتفع ؟ لابد من استدعاء الطبيب لفحصه .

قالت مريم وعلى فمها ابتسامة ماكرة :

ـ أخائفة أنت على الدكتور مختار يا ياسمن ؟.

ـ بكل تأكيد . كيف لا أخاف عليه ؟ إننى طوال النهار أصلى وأدعو له بالشفاء .

قال مختار :

ـ أشكرك يا ياسمين على هذا الشعور النبيل .

اتسعت عيناها دهشة وقالت :

ـ علام تشكرنى ؟ أنا لم أعمل ما أستحق عليه الشكر . ليتنى أستطيع عمل أى شىء .

قالت مريم والابتسامة مازالت على شفتيها :

ـ لماذا لم تلتحق بكلية الطب يا ياسمين ؟ شخصية رقيقة مثلك تصلح لأن تكون طبيبة مثالية .

انتفضت ياسمين قائلة :

ـ لا ، لايمكننى الالتحاق بكلية الطب . لا أستطيع رؤية الجثث وهى تُشرَّح . ولا رؤية الناس وهم يتعذبون .

ثم وقفت قائلة :

ـ عن إذنكم ، لا أحب أن أضايق الدكتور مختار .

وغادرت الغرفة مسرعة الخطى . غمغمت مريم قائلة وكأنها تحدث نفسها :

ـ هذا أعظم حب رأيته فى حياتى .

نظر إليها مختار وبدا كما لو أنه يود أن يقول شيئا ، ولكنه آثر السكوت .

- ٨٦ -

سافر مختار إلى القاهرة لمشاهدة مسرحيته التى تعرض فى أحد المسارح ونزل ضيفا على أخيه حلمى. وفرح عندما رأى شقيقته فاطمة التى كانت فى زيارة لحلمى فى ذلك الوقت. عندما سمعت أريحة صوت مختار أسرعت بالحضور وصافحته بحرارة.

طلب مختار من حلمى أن يقيس له ضغط الدم، فلقد بدأ يشعر منذ نحو شهر بصداع مستمر. وأصبح دائم التوتر بسبب متاعب الترقية إلى الأستاذية والأحزان التى ماكادت تهدأ حتى اندلعت من جديد بظهور ياسمين. وجد حلمى ارتفاعا فى الضغط لم يصل إلى درجة الخطورة. وطلب من مختار ألا ينزعج، فهذا الارتفاع مؤقت وسوف يزول بمجرد زوال أسباب الحزن والتوتر. قالت فاطمة لحلمى:

ـ ليتك تقيس لى الضغط أنا أيضا. أنا لم أقس ضغط دمى من قبل.

قاس حلمى ضغط دم فاطمة، فلاحظ مختار شحوب وجه حلمى. سألته فاطمة:

ـ ماذا وجدت.

ـ ضغطك معتدل جدا.

قالت فاطمة:

ـ الحمد لله.

ثم قالت لمختار:

ـ لماذا لم تنزل فى ضيافتنا يامختار؟ بيتنا والحمد لله واسع وبه غرف عديدة. وزوجى وولداى يرحبون بك ويحبونك.

ـ سأزوركم بكل تأكيد.

عندما اختلى مختار بحلمى قال:

ـ لاحظت شحوب وجهك عند قياسك لضغط دم فاطمة، فما هى حقيقة ضغطها؟.

ـ شىء غير معقول إطلاقا، ضغطها مرتفع بشكل مرعب. مائتان وثلاثون على مائة وعشرين! إننى أتعجب لبقائها على قيد الحياة.

قال مختار وقد شعر بحزن جديد يضاف إلى أحزانه:

ـ هذه مسألة خطيرة.

ـ منذ عرفتُ ضغطها وأنا فى غاية النكد. حياتها معرضة للخطر فى أية لحظة وهى لاتدرى شيئا عن ذلك ولاتتناول أى علاج.

غمغم مختار قائلا بحزن:

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله.

لاحظ مختار قدوم فاطمة مبتسمة بصحبة أريحة فهمس لحلمى قائلا:

ـ صه، فاطمة قادمة لاداعى للحديث الآن فى هذا الموضوع.

قال حلمى مغيِّرا مجرى الحديث :

ــ لقد شاهدنا مسرحيتك الجديدة . وشاهَدَتْها معنا فاطمة .

قال مختار :

ــ هل أعجبتك المسرحية يا فاطمة ؟.

ــ حلوة جدا ، ولكننى حزنت من أجل البطلة . لماذا جعلتها تموت ؟ لقد ظللت أبكى من أجلها حتى أحمرّت عيناى .

قال مختار :

ــ وهل أعجبتك يا أريجة ؟.

ــ إنها رائعة ، ربما تكون أجمل مسرحية رأيتها فى حياتى .

ــ وروايتى الجديدة ، ما رأيك فيها ؟.

ــ جميلة جدا ، قرأتها مرتين .

ــ لهذه الدرجة ؟.

قال حلمى :

ــ إنها رائعة حقيقةً .

قالت أريجة .

ــ كيف تكتب هذه الأشياء الحلوة ومتى تكتبها ؟.

ــ أكتبها فى الوقت الذى من المفروض أن أستريح فيه ، إذ أن راحتى فى هذه الكتابة .

قالت أريجة :

ــ أنا أتعجب ، من أين تحصل على هذه الأفكار ؟.

ضحك مختار وأشار إلى رأسه قائلا :

ــ من هذا الوعاء .

قالت فاطمة :

ــ ورأينا أيضا فيلمك الذى كان فى السينما .

قال مختار :

ــ ترى ، هل أعجبكم ؟.

قالت فاطمة :

ــ ماتكتبه يعجب كل الناس .

قالت أريجة :

ــ هل تُدرُّ عليك هذه المؤلفات أموالا كثيرة ؟.

ــ كل مايخرج من الذهن لاقيمة له فى بلادنا . هل تعرفين ، مثلا ، كم تقاضيت ثمنا لقصة هذا الفيلم الذى شاهدتموه ؟.

ـ عدة آلاف من الجنيهات .

ضحك مختار وقال :

ـ كل ما أخذته مائة جنيه لاغير.

شهقت أريجة وقالت :

ـ غير معقول ، مائة جنيه فقط ؟.

قال حلمى :

ـ مختار خجول ، وهم يستغلون خجله هذا شر استغلال .

قال مختار مبتسما بمرارة :

ـ هل تعلمون كم تكلف مشهد انقلاب عربة القطار الذى لم يستغرق عرضه على الشاشة أكثر من دقيقة ؟ تكلف مائة جنيه ، أى مايساوى أجر تأليف قصة الفيلم .

جلس مختار بين الجماهير لمشاهدة مسرحيته ، وعاد إلى الإسكندرية راضيا كل الرضا عن مستوى إخراجها فى حين أن الفيلم لم يعجبه ، والسبب فى ذلك هو أن المسرحية عرضت كما كتبها تماما ، بينما جرت تغييرات وإضافات وحذف فى قصة الفيلم شوهت فكرتها الأساسية .

ـ ٨٧ ـ

كان مختار جالسا فى غرفته بالكلية يراجع المحاضرة التى سيلقيها على طلبة السنة الثالثة عندما دخل الفراش وأخبره أن إحدى الطالبات تريد الاستفسار عن مسألة علمية فأذن لها بالدخول . دخلت ياسمين مبتسمة وقالت بصوت خافت :

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير يا ياسمين ، تفضلى اجلسى .

جلست ونظر إليها مختار فى انتظار ماترغب فى الاستفسار عنه قالت بعد أن أطرقت للأرض نحو عشر ثوان :

ـ لم أستطع فهم مرض النوم ، هل هو موجود هنا فى مصر؟.

ـ لا ، هذا المرض فى أواسط أفريقيا ولا يوجد فى مصر ، ويسبّبه حيوان أوّلى صغير الحجم يسمى « تريبانوسوما » ، وتنقل المرض إلى الإنسان ذبابة تسمى « تِسْى تِسْى » ، ويعيش الميكروب فى دم الإنسان ، وعندما يصل إلى المخ . يسبب مرض النوم .

أطرقت ياسمين وقالت دون أن تنظر إلى مختار :

ـ هل من الممكن أن تكتب لى حضرتك كلمة فى أوتوجراف ؟.

ـ ألم أكتب لك منذ أسبوعين؟.

ـ هل من الممكن أن تكتب لى مرَّةً أخرى ؟ لقد اشتريت الأوتوجراف خصيصا من أجل حضرتك ولن أسمح لأى إنسان آخر بالكتابة فيه .

قال مختار بدهشة :

ـ خصيصا من أجلى أنا ؟ أين هو ؟.

كان الاوتوجراف فى يد ياسمين فقدمته على الفور قائلة :

ـ تفضل .

كتب لها جملة فى الأوتوجراف وسلمه لها فأخذته مبتسمة وطوته ووضعته فى حقيبتها دون أن تقرأ مافيه وشكرت الدكتور مختار وغادرت الغرفة .

كان باب حجرة مختار مفتوحا كالعادة عند وجود أية طالبة معه . فاستطاعت طالبتان رؤية ياسمين ومختار فى أثناء حديثهما . كانت الطالبتان مرتكزتين على الدرابزين المحيط بالمنور الكائن وسط الصالة المطلة عليها أبواب حجرات بعض أعضاء هيئة التدريس . قالت إحداهن للأخرى :

ـ أرأيت ؟ ياسمين كانت فى غرفة الدكتور مختار .

ـ لابد أنها كانت تستفسر منه عن شىء لم تستطع فهمه فى أثناء المحاضرة .

ـ رأيته وهو يكتب لها فى الأوتوجراف .

ـ عديد من الطالبات يفعلن ذلك للذكرى .

ـ أنت لاتريدين أن تصدق .

ـ أصدق ماذا ؟.

ـ ياسمين تحب الدكتور مختار حبا جنونيا ، وهو أيضا يبادلها الحب هل تتصورين أنها عرفت مواعيد محاضراته فى جميع السنوات وتحرص على الذهاب لرؤيته فى أثناء المحاضرة من خلال نافذة المدرج ؟ ومنذ يومين ظلت واقفة أمام باب الكلية أكثر من ساعتين لمجرد رؤيته عند خروجه .

ـ هذا غير معقول . إنه فى سن أبيها .

ـ سوف ترين كل شىء بعينيك ، قريبا .

وحان موعد الدرس العملى فذهبتا إلى مكانيهما بالمعمل .

ـ ٨٨ ـ

من الأمراض النفسية المعروفة : الخوف من الماء والخوف من الأماكن الضيقة والأماكن الواسعة والأماكن المرتفعة والظلام وبعض الحيوانات ، وغيرها من أنواع الخوف النفسى . ولكن الشىء الذى لم يكن يعرفه مختار أو يخطر على باله هو ذلك النوع العجيب من الخوف المصاب به خادمه عطية . إنه يخاف من رنين التليفون . إذا سمع ذلك الرنين وهو وحده فى الشقة أصابه الهلع وأسرع بفتح باب الشقة وكأنه يستنجد بالناس لينقذوه من هذه الكارثة !.

ولذا ، فعندما دخل مختار منزله عقب عودته من الكلية فى ذلك اليوم المشئوم بادره عطية قائلا :
ــ سيدى مختار .
ــ نعم ياعطية . ماذا تريد ؟
ــ ليلة أمس ، وانت خارج البيت ، رن جرس التليفون ونسيت أن أقول لك .
ــ إياك أن تكون تركته يرن دون أن ترد عليه فى هذه المرة أيضا .
ــ أجل ، تركته يرن ولم أرد عليه .
ــ ولم تعرف إذن الذى طلبنى فى التليفون .
ــ لا ، لم أقترب من التليفون ، فكيف أعرف الذى طلبك ؟.
ــ ياخيبتك ، ستظل خائبا طوال حياتك .
وضع عطية يده فى جيبه وأخرج نقودا أعطاها لمختار فى صمت . عد مختار النقود ثم قال :
ــ ما هذه ؟.
ــ هذا ماتبقى من الفلوس التى أعطيتها لى أمس .
قال مختار بدهشة :
ــ لم يبق سوى هذا المبلغ ؟ لماذا ، بكم اشتريت اللحم ؟.
ــ الأقة بخمسة وأربعين قرشا .
ــ هذا غير معقول ، وبكم اشتريت البيض ؟.
ــ البيضة بقرش صاغ .
ــ البيضة الواحدة بقرش صاغ ؟ هل هى بيضة نعامة ؟ يبدو أنك تمد يدك للفلوس .
صاح عطية بانفعال :
ــ يارب أموت أو يفرمنى ترام أو أصاب بالعمى لو كنت مددت يدى لأى شىء .
ــ لاداعى لهذا ، انتهينا ، اسكت .
تذكر عطية شيئا فقال :
ــ سيدى .
ــ ماذا تريد ؟.
ــ منذ ساعة ، قبل حضورك ، وصل تلغراف .
قال مختار بلهفة وغضب :
ــ كان من الواجب تسليمى هذا التلغراف بمجرد دخولى البيت ، أين هو ؟.
وضع عطية يده فى جيبه وأخرج التلغراف وناوله لمختار قائلا :
ــ ها هو .

فض مختار مظروف التلغراف بسرعة ، وماكاد يقرأ السطر الوحيد المكتوب فيه حتى انسابت دموعه على خديه . سأله عطية وقد اصفرَّ وجهه خوفاً وقلقا :

ـ ماذا فى التلغراف ياسيدى مختار؟.

قال مختار بصوت مختنق بالبكاء :

ـ فاطمة أختى توفيت .

تفجرّت الدموع من عينى عطية وتكوّر على الأرض يبكى ويمسح دموعه بكم جلبابه . ثم دفن رأسه فى حجره وأحاطه بذراعيه وأخذ جسمه يهتز . تمتم مختار قائلا :

ـ إنها مازالت صغيرة يارب .

عندما سافر مختار كانت الجنازة قد شيعت قبل وصوله واستقرت شقيقته الجميلة فى مثواها الأخير ، وعلم من حلمى أنهم حاولوا الاتصال به تلفونيا مساء يوم الوفاة . ولكن جرس التليفون كان يرن ولا أحد يجيب فاضطروا لإرسال التلغراف .

قال مختار بصوت متهدج وكأنه يحدث نفسه :

ـ كانت طيبة ورقيقة كالنسيم ، تحملت عذابا وأحزانا كثيرة .

عند عودة مختار إلى الإسكندرية ظل شريف ملازما له عدة أيام فلم يكن يتركه إلا وقت النوم . كان مختار كلما رأى أية فتاة يتذكر فاطمة وتدور فى رأسه أفكار غريبة قائلا لنفسه : « لماذا تموت أختى ويبقى هؤلاء ؟» ، ولكن مرور الزمن أفضل علاج للهموم .

بعد نحو أسبوعين استدعى عميدُ الكلية الدكتور مختار وقال :

ـ لقد اخترناك يادكتور مختار لتكون رائد اللجنة الاجتماعية فى اتحاد الطلبة بالكلية ، فأنت محبوب من الطلبة ويخيل إلىّ أنك أقدر الأساتذة على حل مشكلاتهم ، فما رأيك ؟.

ـ لامانع لدىَّ ، وأرجو من الله أن يعيننى على تحمل هذه المسئولية .

تقع غرفة مختار بقسم علم الحيوان بالقرب من غرفة شريف ، وإذا ترك شريف باب غرفته مفتوحا فإنه يستطيع بسهولة رؤية مختار وهو فى طريقه إلى حجرته . فى ذلك اليوم ظل شريف ناظرا من باب غرفته منتظرا قدوم مختار ، وعندما رآه أسرع إليه وقال مشيرا نحو طالب واقف بالقرب من باب غرفة مختار :

ـ هذا الطالب فى انتظارك منذ الصباح الباكر . إنه فى إعدادى الطب .

قال مختار للطالب :

ـ خيرا يا ابنى ، هيا معى إلى الغرفة .

واتجها معا نحو غرفة مختار . ذهب معهما شريف الذى همس فى إذن مختار قائلا :

ـ هذا الطالب فى حالة غير طبيعية ، من الممكن أن يرتكب جريمة . سأحضر معكما أنا أيضا .

ـ تفضل .

جلس مختار خلف مكتبه وجلس شريف على كرسى أمام المكتب ، وطلب مختار من الطالب الجلوس فجلس على كرسى مقابل لكرسى شريف . قال الدكتور مختار :

ـ ماهى مشكلتك يا ابنى ؟.

قال الطالب بصوت مرتجف :

ـ أشكرك على المجهود الذى بذلته معنا هذا العام .
ـ هل ذاكرت علم الحيوان جيدا ؟
قال الطالب بسخرية :
ـ أذاكر ؟! كيف أذاكر وحضرتك سبب المصيبة التى حلت بى .
قال مختار وقد أذهلته المفاجأة :
ـ مصيبة ؟! هل أنا السبب فى مصيبة حدثت لك ؟ ماهى هذه المصيبة ؟.
ـ أجل ، أنت السبب فى كل ماجرى لى .
قال مختار بانفعال :
ـ ماهذا الذى جرى لك ؟ أنا لا أفهم شيئا .
ـ إنك تتظاهر بعدم الفهم ، ألا تعلم ماجرى لى ؟ ألست أنت السبب فى كل هذا ؟.
قال مختار وقد بدأ صبره ينفد :
ـ ماهو هذا الذى جرى لك ؟ تكلم
ـ أنت عملت لى عملاً فى منديل . عملته فى غرفتك هذه واشترك معك كل المعيدين ، لقد رأيتهم بعينى فى ذلك اليوم يدخلون غرفتك ويخرجون منها مرارا .
قال مختار وقد بدأ يدرك أن الطالب الذى أمامه مسكين :
ـ أنا عملت لك عملا فى منديل ؟.
ـ أجل ، أنت الذى أضعت مستقبلى . أنت آذيتنى . كل الناس يؤذوننى . إننى أرى الناس سائرين خلفى ، وعندما أنظر إليهم يتنكرون فى صورة أشخاص آخرين . أجدهم تنكروا على هيئة سائقى تاكسيات وعلى هيئة بائعين على الرصيف ، وعلى هيئة طلبة يحملون كتبهم . كلهم يريدون إيذائى . يريدون قتلى .
ثم أردف قائلا وهو يبكى :
ـ لست أدرى لماذا يريدون إيذائى .
قال مختار وقد شعر بحزن عميق :
ـ لاحول ولاقوة إلا بالله ، أظن يا شريف أنها شيزوفرينيا ، انفصام الشخصية .
قال شريف :
ـ هذا الطالب حاصل على مجموع قدره ثمانية وثمانون فى المائة فى الثانوية العامة .
ـ شىء محزن .
قال الطالب :
ـ أنت أستاذى يادكتور مختار وبذلت من أجلنا مجهودا هائلا ، وكلنا نحبك .
ثم أردف قائلا وهو يبكى :
ـ لكن ربنا أمرنى أن أقتلك ، وهذا أمر الله .
قال مختار بهدوء :

ــ ربنا أمرك أن تقتلنى ؟ وماهى جريمتى التى أستحق عليها القتل ؟ وهل يأمر الله بشىء قبيح كهذا ؟.
قال الطالب بصوت متهدج :
ــ لابد من تنفيذ أمر ربنا . وهل من المعقول أن أخالف أمر ربنا ؟.
همس شريف فى أذن مختار قائلا :
ــ احذر ، فمن الممكن أن يفعلها .
قال مختار بصوت خافت :
ــ لابد من علاجه فى أحد المستشفيات . إنه سيئ الحظ . أصيب فى أهم وأعز شىء فى الإنسان .
قال الطالب :
ــ أنا عطشان ، أريد أن أشرب .
قال مختار :
ــ سأحضر لك ماء على الفور .
وبينما يمد مختار يده ليضغط على زر الجرس لاستدعاء الفراش . قال الطالب بلهفة وخوف :
ــ عرفت لماذا تريد إحضار الماء لى على الفور ، لكى تضع لى فيه سماً لا . لا أريد أن أشرب . لا أريد أن أشرب .
همس شريف فى أذن مختار قائلا :
ــ سأذهب لاستدعاء حرس الكلية ، سأطلبهم بالتليفون الذى فى غرفتى ليعالج فى أحد المستشفيات . إنه فى حاجة لعلاج سريع .
عندما وصل الحرس حاول الطالب المقاومة وقد أطل من عينيه رعب شديد . ولكنهم أخرجوه من الغرفة بالقوة ونقلوه إلى المستشفى .

ــ ٨٩ ــ

كان اختيار مختار رائدا للجنة الاجتماعية سببا فى تدفق طوفان من الطلبة والطالبات إلى غرفته يستشيرونه ويستنيرون برأيه ويطلبون منه حل مشكلات غريبة لم تكن تخطر له على بال . وانكشفت له خفايا فى المجتمع لم يكن يعرف عنها شيئا .
ذات صباح طرقت باب غرفته طالبة أنيقة المظهر ، ولكن الحزن كان باديا فى ملامح وجهها . طلب منها مختار الجلوس ، فجلست ثم قالت :
ــ هل تأذن لى قبل أن أتكلم بإقفال باب الغرفة ؟.
سمح لها بذلك ، فقامت وأقفلت الباب وجلست ، قالت :
ــ لا أحب أن يسمعنى أحد سواك . لدىَّ مشكلة تحيرنى ، هل من الممكن أن أحكيها لحضرتك ؟
ــ ماهى مشكلتك ؟.

ـ أبي يرتشى . وعندما ألومه على ذلك يقول لى إن الأثواب التى أرتديها . من الرشوة . والبدل التى يرتديها إخوتى . من الرشوة . والطعام الذى نأكله . من الرشوة . وأنه لامانع لديه من التوبة عن الرشوة إذا أردنا أن نعيش عرايا وبلا طعام . والعجيب أن والدتى وإخوتى مرتاحون لهذا الوضع . أنا الوحيدة غير الراضية عن هذه الجريمة . فلا أريد أن أعيش تحت سقف هذا البيت . ولا مكان لى غيره . ولا أدرى أين أذهب .

ثم أردفت قائلة وهى مختنقة بالبكاء :

ـ اللقمة التى آكلها تلسعنى فى حلقى . والملابس التى أرتديها تكوينى . لست أدرى ماذا أفعل .

وعلم مختار أن للفتاة ثلاثة إخوه . أحدهم طالب بكلية الزراعة . والثانى بكلية الآداب والثالث فى كلية الصيدلة . وأن مرتب أبيها فى الشهر سبعة وثلاثون جنيها وخمسة عشر مليما ! استمرت المناقشة نحو ساعة ولم يستطع مختار التوصل لأى حل . لأن الحل ليس فى يده . بل فى يد المسئولين .

فى اليوم التالى . حضر إليه طالب يتعثر فى خطاه . لم يستطع مختار معرفة ما إذا كان ذلك من فرط الخجل أم من سوء التغذية . كان شاحب الوجه غائر العينين يبدو رأسه وكأنه جمجمة . طلب منه مختار الجلوس فجلس وظل صامتا مطرقا للأرض فترة طويلة فاضطر مختار أن يسأله عن السبب الذى جاء من أجله فقال :

ـ والدى موظف فى الحكومة ولى سبعة أخوة وأخوات جميعهم فى المدارس . أحضر إلى الكلية بهذا الحذاء الممزق وهذا السروال المرقع . هذا القميص الأزرق ارتديه صيفا وشتاء بدون فانلة تحته . ولقد عجزت عن شراء كراسة . أو حتى مجرد قلم رصاص . ومرتب والدى يُستنفد عن آخره فى الطعام الذى لايتعدى حد الكفاف . أنا فى شدة الخجل من زملائى وأفكر فى ترك الجامعة .

قال مختار :

ـ ستقرر لك الكلية منحة شهرية من صندوق خدمات الطلبة .

حاول الطالب أن يبتسم ولكن الابتسامة بدت وكأنها بكاء غمغم شاكرا الدكتور مختار وغادر الغرفة مطرقا للأرض .

ـ ٩٠ ـ

كانت من عادة مختار ألاّ يزور شريفا إلاّ بعد الاتصال به تليفونيا . ولكنه فى هذه المرة ذهب إليه مباشرة بلا سابق اتصال .

ـ حاولت الاتصال بكم تليفونيا ولكن تليفونكم ظل مشغولا بشكل مستمر فلم أطق صبرا وحضرت بدون إنذار !.

قال شريف :

ـ وهل أنت فى حاجة إلى إخطار قبل حضورك ؟ هل أنت ذاهب لمقابلة رئيس الوزراء ؟.

قالت مريم :

ـ يخيل إلىّ أن أمرا مهما يشغل بالك .

ـ أجل ، أمر عجيب لم يكن يخطر على بالى . اتصل بى وكيل الجامعة بالتليفون فى منزلى وسألنى إذا كنت أرغب فى السفر إلى أمريكا .

قالت مريم :

ـ وماذا قلت له ؟.

ـ قلت إننى لا أستطيع رفض عرض كهذا . وقال إن الجامعات رشحت نحو خمسين أستاذا ولم ترشح جامعة الإسكندرية سواى ، وسوف تحضر من الولايات المتحدة لجنة من اثنى عشر أستاذا من أعظم أساتذة أمريكا لاختيار أستاذ واحد من جميع المرشحين ، وسيسافر الأستاذ الذى يقع عليه الاختيار إلى الولايات المتحدة الأمريكية للقيام بالتدريس والبحث العلمى فى جامعاتها ويحل محله أستاذ أمريكى تنفيذا لمشروع يطلقون عليه « مشروع تبادل الأساتذة » .

قالت مريم :

ـ ليس هذا شيئا غريبا ، إنه شىء يدعو للفخر والفرحة ، وهذا يدل على أنهم يفكرون فيك ياذكتور مختار ويريدون مساعدتك وذلك لعدم سفرك إلى الخارج منذ مدة طويلة .

قال شريف :

ـ إنها فرصة ذهبية لتنسى أحزانك وتبتعد عن كل مايثيرها ، وربما قَصَد العميد ورئيس القسم أن يبعداك بعض الوقت عن مصدر الأحزان ، فهما على علم بمتاعبك فى الترقية .

ـ وهل من المعقول أن أختار أنا من بين جميع الأساتذة المرشحين ؟

قالت مريم :

ـ ربما ، من يدرى ؟.

قال شريف :

ـ وهل حددوا الجامعة التى سيذهب إليها من يقع عليه الاختيار من الأساتذة ؟.

ـ يمضى نصف المدة فى جامعة الينوى والنصف الثانى فى جامعة كاليفورنيا .

ـ إن مجرد اختيار الجامعة لك أنت وحدك شىء مشرف .

قالت مريم :

ـ ومتى ستسافر ؟.

ـ قال لى وكيل الجامعة إننى ، لو وقع علىَّ الاختيار ، يتحتم أن أكون هناك بعد شهر على الأكثر .

فى ركن منعزل من أركان حديقة قسم النبات بالكلية جلست ياسمين على دكة خشبية وبجوارها إحدى الطالبات . كانتا تراجعان محاضرة علم الحيوان وتحاولان استكمال الأجزاء الناقصة . بغتة ، انهمرت الدموع من عينى ياسمين . قالت لها زميلتها سلوى :

ـ مابك يا ياسمين؟ ماذا جرى ؟.

قالت ياسمين وهى تجفف دموعها :

ـ لاشىء .

ـ لماذا تبكين ؟.

ـ سَمِعْت من أحد المعيدين بقسم علم الحيوان خبرا أحزننى .

ـ ماذا قال ؟.

ـ قال إن الدكتور مختار سيسافر إلى أمريكا .

ـ وهل يحزنك سفر الدكتور مختار لهذه الدرجة ؟ قولى لى بالصراحة ، ماذا تريدين بالضبط من الدكتور مختار ؟.

ـ لست أدرى .

ـ الكلية كلها تتحدث عنكما .

ـ لا أنا ولا الدكتور مختار اقترفنا أى ذنب ، فماذا يقولون عنا ؟.

ـ يقولون إنك ملهوفة عليه . ويقولون إنه هو أيضا يحبك .

تمتمت ياسمين قائلة :

ـ هو أيضا يحبنى؟ هذا هو مالا أعلمه .

ـ ألم تلاحظى مايدل على وجود أية عاطفة منه نحوك ؟

ـ لا ، لم ألاحظ شيئا من ذلك . أنا التى ..

لم تكمل الجملة . أخرجت من حقيبتها ورقة وقالت :

ـ هل ترين هذه الورقة ؟كنت طلبت منه أن يشرح لى شيئا ادعيت أننى لم أفهمه مع أننى أفهمه جيدا ، فرسم لى هذا الرسم . هذه الورقة مازلت محتفظة بها منذ أكثر من شهر .

ثم أخرجت من حقيبتها علبة صغيرة من الورق المقوَّى فتحتها وقالت :

ـ وهذه الطباشيرة ، كان ممسكا بها ثم ألقاها على الأرض ، فأسرعت بالتقاطها دون أن يرانى أحد ومازلت محتفظة بها داخل هذه العلبة .

ـ لكن اسمحى لى يا ياسمين أن أقول لك إن هذا زائد عن الحد .

ـ هل تصدقين أننى أمكث فى بيتنا ساعات أفكر فيه والقلق يكاد يقتلنى . أشعر بالخوف عليه عندما يعبر الشوارع أو عندما يركب قطارا ، فكيف يمكننى احتمال سفره إلى أمريكا وركوبه طائرة ؟!.

ـ وكيف عرفتِ أنه سيركب طائرة ؟ قد يركب سفينة .
ـ سأقلق عليه فى هذه الحالة أيضا . لن أستطيع الحياة لو حدث له أى حادث .
ـ أمرك غريب يا ياسمين ، أريد أن أعرف ماتريدينه بالضبط من الدكتور مختار .
ـ لا أريد منه أى شيء على الإطلاق . كل ما أريده هو مجرد رؤيته . لا أريد أن يمرض أو يتعب أو يتعرض لأى خطر . أريد أن يكون سعيدا فرحانا . يعتريني الدوار عندما أتصور أننى سأظل طوال هذه المدة لا أراه .
ـ هل لديك فكرة عن المدة التى سيقضيها فى أمريكا ؟.
ـ لست أدرى . لايمكننى أن أمكث شهرا واحدا دون أن أراه . لكننى أعتقد أنه سيمكث أكثر من شهر . لقد رأيته ليلة أمس فى الحلم .
قالت سلوى بسخرية :
ـ هل تحلمين به أيضا ؟
ـ أنا أراه كثيرا فى أحلامى .
ـ وماذا حلمتِ أمس ياترى ؟.
ـ حلمت أننى واقفة على رصيف محطة سيدى جابر . ولكن المحطة فى الحلم كانت أكبر من حجمها الحالى ، وسمعت صفير قطارات . رأيت قطارا مقبلا بسرعة ثم وقف فى المحطة ونزل منه الدكتور مختار واضعا يده على صدره ، فاندفعت نحوه بلهفة وقلت له : « مابك يادكتور مختار ؟» قال : « بنت طعنتنى فى قلبى فى محطة القاهرة » ثم رأيت عربة إسعاف واقفة وسمعت جرسها . فأخذته داخل السيارة . ووجدت نفسى مرتدية زى الممرضات ومنهمكة فى تضميد جرحه .
كانت سلوى مصغية باهتمام لحديث ياسمين ، ثم قالت :
ـ حلم عجيب . هل تحلمين أحلاما كثيرة من هذا النوع ؟.
ـ أجل ، حلمت أحلاما كثيرة رأيته فيها مصابا . أنا خائفة عليه .

ـ ٩٢ ـ

كان شريف يقود سيارته عائدا من الكلية وبجواره مختار لتوصيله إلى منزله . قال شريف :
ـ هل أنهيت إجراءات السفر ؟.
ـ أتممت جميع الإجراءات واستلمت تذكرة السفر .
ـ متى ستسافر ؟.
ـ يوم الخميس القادم .
ـ سأسافر معك لتوديعك فى المطار .
ـ لاداعى لهذا التعب .

ـ لن يتعبنى وداعك .
قال مختار بعد فترة تردد :
ـ توجد مسألة تضايقنى .
ـ أعرفها ، لابد أنها ذات صلة بياسمين .
ـ أجل ، سأسافر وأنا حزين . هل من المعقول أن تعود لى درية فى صورة ياسمين فأتركها وأسافر إلى أمريكا ؟ هذه المسألة تسبب لى تعبا نفسيا شديدا .
ـ لقد حذرتك يامختار ونصحتك بمقاومة العاطفة التى نشأت بينك وبين ياسمين . ولذا فإننى أعتقد أن سفرك لأمريكا جاء فى الوقت المناسب . هل سيسافر معك أحد من الأساتذة الذين أعرفهم ؟.
ـ سيسافر معى أستاذ مساعد بكلية الزراعة اسمه محمود داود حصل على منحة لإجراء بعض البحوث العلمية وسيكون معى فى الجامعة نفسها . وسأجد هناك أيضا ابنة عمى سهير وهى فى بعثة من جامعة القاهرة للحصول على الدكتوراه فى علم الحشرات يرافقها زوجها .
ـ ستجد إذن من يؤنس وحدتك . أتعشم أن تنسيك هذه الرحلة ياسمين ودرية .
غمغم مختار قائلا وكأنه يحدث نفسه :
ـ لا أظن أننى سأنسى .

وصلت السيارة إلى منزل مختار ، فغادرها واتجه نحو منزله وواصل شريف سيره .
عندما وصل شريف ومختار إلى مطار القاهرة كان محمود داود فى انتظار مختار . قدّم مختار كلا منهما للآخر فتصافحا .

لم يصدق شريف عينيه وتمتم قائلا :
ـ هذا غير معقول إطلاقا .
قال مختار :
ـ ماهو غير المعقول هذا ؟.
ـ أليست هذه ياسمين ؟! .
أقبلت ياسمين تلهث من أثر الجرى وقالت بصوت متقطّع :
ـ ضاع منى وقت طويل فى البحث عن تاكسى . كدت أيأس من الحضور قبل إقلاع الطائرة .
كانت ماتزال تلهث عندما قال مختار :
ـ ما الذى أتى بك إلى المطار يا ياسمين ؟ هل ستسافرين للخارج ؟.
ـ لا ، حضرتك الذى ستسافر . لقد حضرت لأقول لحضرتك : مع السلامة .
قال مختار بدهشة :
ـ تحضرين من الإسكندرية إلى القاهرة خصيصا لذلك ؟.
ـ لو كان الأمر بيدى لسافرت مع حضرتك إلى أمريكا . متى ستعود إلينا ؟.
ـ بعد سنة واحدة .

قالت بحزن ويأس :
ـ سنة بأكملها ؟
ـ الأيام تمر بسرعة .
قالت بصوت متهدج وهى تقاوم البكاء :
ـ ليس فى كل الأحيان بعض الناس تمر عليهم الدقيقة وكأنها سنة .
ولم تستطع الاستمرار فى المقاومة فانخرطت فى البكاء .

ـ ٩٣ ـ

تعجب مختار من وجود جامعة كبيرة مثل جامعة كاليفورنيا فى قرية صغيرة تسمى « بيركلى » . ولكنه اكتشف فيما بعد أن معظم جامعات أمريكا لاتوجد فى المدن الكبرى . بل فى قرى يستطيع الإنسان أن يجول فى جميع أنحائها دون حاجة إلى مواصلات .

قال مختار لداود :
ـ أنا أحب الجمبرى . ويقولون إن كاليفورنيا تشتهر بأجود أنواعه . فما رأيك ؟
ـ عرفت مطعما هنا متخصصا فى الحيوانات البحرية . هيا بنا .

تناثرت فى أنحاء المطعم فتيات جميلات يرتدين أردية زرق ومراول ناصعة البياض وعلى رءوسهن أغطية تشبه إلى حد كبير يضعنه الممرضات على رءوسهن فى المستشفيات . نادى داود إحداهن فأقبلت مسرعة ، طلب جمبريا . بعد نحو خمس دقائق أقبلت الفتاة وفى كل يد من يديها صينية من الفضة عليها غطاء ووضعت أمام كل واحد منهما صينية . عندما كشفا الغطاء وجدا فى كل صينية كمية كبيرة من الجمبرى والأرز . وبعد قليل عادت الفتاة ومعها سلة بها خبز وطبق ضخم يشبه القارب مليء بجمبرى كبير الحجم بدون أرز .

همس مختار لداود قائلا وهو يلتهم الجمبرى :
ـ لانعرف حتى الآن ثمن هذه الوجبة ، أخشى ألاّ يكون معنا من المال مايكفى .
ـ استمتع الآن بالأكل ولاتنكّد على نفسك بمثل هذه الأفكار السود .
ثم أردف داود هامسا لمختار :
ـ انظر إلى الركن فى أقصى اليمين ، هل ترى الرجل الجالس هناك ؟.
التفت مختار باحثا عن الرجل وقال :
ـ أين هو ؟.
ـ الرجل ذو الوجه المنتفخ والعينين الحمراوين .
ـ ما به ؟.

ـ لاحظت أنه كان يسير خلفنا وكأنه يتعقبنا . وعندما دخلنا المطعم دخل خلفنا . ومنذ جلسنا وهو لا يرفع بصره عنك !.

قال مختار بدهشة :

ـ لم يرفع بصره عنى أنا ؟ ولِمَ لا يكون ناظرا إليك أنت ؟.

ـ لا ، إنه لم يتوقف عن النظر إليك أنت بالذات ، هاهوذا قد انتقل من مكانه ليجلس بالقرب منا ، وما زال ناظرا إليك وفى عينيه الشر هل تعرف هذا الرجل !.

ـ لا أعرفه ولم تسبق لى رؤية خلقته

ـ شيء عجيب . إذن ماذا يريد منك ؟.

قال مختار وقد بدا مضطربا :

ـ لست أدرى ، هيا ندفع الحساب ونغادر هذا المكان .

تعجب مختار عندما علم أن ثمن هذه الوجبة الهائلة أربعة دولارات فقط .

دفع الحساب وقال وقد أسرعت دقات قلبه :

ـ هيا نغادر هذا المطعم بأسرع ما يمكن .

قاما واتجها مسرعيْن نحو باب الخروج ، فإذا بذلك الرجل البدين يقوم هو أيضا ويسير خلفهما . تمتم مختار قائلا :

ـ يبدو أنه مجرم . أدعو الله أن يرجعنا من هذه البلاد سالمين .

كان بيت محمود داود أقرب إلى المطعم من منزل مختار ، فاقترح داود أن يذهبا معا إلى منزله لاختصار الطريق خوفا من هذا الرجل الغريب الذى يتعقبهما ، ولكن الرجل مد الخطى وأمسك بذراع مختار بقوة قائلا :

ـ أخيرا عثرت عليك . منذ أسبوعين وأنا أبحث عنك فى كل مكان .

استجمع داود كل قوته وسدد إليه ضربة قوية ألقته على الأرض وانطلق هو ومختار يعدوان فى الشارع الذى بدا شبه خال حتى وصلا إلى بيت داود .

ـ ٩٤ ـ

جلست ياسمين مع صديقتها سلوى فى فترة الغداء فى نادى الكلية لتناول بعض الشطائر . كانت تنبعث من راديو النادى أغنية أم كلثوم «بعيد عنك حياتى عذاب» بدت ياسمين منصتة للأغنية بكل جوارحها وقد غفلت عن الشطيرة الموضوعة أمامها منذ نحو نصف ساعة ، وعندما وصلت الأغنية إلى الفقرة التى تقول : «كنت باشتاق لك وأنا وأنت هنا بينى وبينك خطوتين ، شوف بقينا ازاى أنا فين يا حبيبى وأنت فين» ترقرقت الدموع فى عينى ياسمين . قالت لها سلوى :

ـ كلى شطيرتك بسرعة يا ياسمين لنلحق حصة العملى .

قالت ياسمين وذهنها شارد فى الأغنية :

ـ لا أشعر برغبة فى الأكل

ثم أردفت قائلة :

ـ طالت مدة غياب الدكتور مختار فى أمريكا وأنا قلقة من أجله .

ـ ولماذا تقلقين من أجله ؟ هل هو طفل صغير ؟.

ـ أحلُم فى هذه الأيام أحلاما مزعجة .

فى هذه اللحظة دخل شريف النادى لتناول شطيرة . قالت ياسمين :

ـ ها هوذا الدكتور شريف ، سأسأله عن عنوان الدكتور مختار .

أسرعت ياسمين إلى الدكتور شريف تاركة زميلتها ناظرة إليها فى ذهول . قالت للدكتور شريف :

ـ ألا تعرف حضرتك متى سيعود الدكتور من أمريكا ؟.

ـ كل ما أعرفه أن المدة كلها سنة ، مضى منها الآن نحو ستة شهور .

قالت ياسمين بحزن :

ـ هذا يعنى أنه لن يحضر قبل ستة شهور .

ـ اعتقد ذلك .

ـ هل تعرف حضرتك عنوانه فى أمريكا ؟.

ـ ولماذا تطلبين عنوانه ؟.

ـ أريد أن أرسل إليه خطابا .

ـ ولماذا تفكرين فى إرسال هذا الخطاب ؟.

ـ لأطمئن عليه .

ـ إذا كان هدفك الاطمئنان عليه فأنا أُطمئنك ، فلقد وصلنى منه خطاب منذ أسبوع واحد ، وهو على ما يرام وفى صحة جيدة والحمد لله .

قالت ياسمين وقد حسدت شريفا على الخطاب الذى تلقاه من مختار :

ـ أرسل لحضرتك خطابا ؟ هل من الممكن أن تخبرنى عن عنوانه ؟.

ـ ألم تقولى إن هدفك الاطمئنان عليه ؟ لقد طمأنتك فما الداعى إذن لإرسال الخطاب ؟.

ـ لا أدرى ، ولكننى أرغب فى إرسال خطاب إليه .

ـ لا يا ياسمين ، لا داعى لذلك ، لا يليق أن ترسلى أية خطابات إليه .

قالت بصوت متهدج :

ـ إذا لم تخبرنى حضرتك عن عنوانه فسأسافر إليه فى أمريكا وأبحث عنه فى كل مكان ! ضحك الدكتور مختار وقال بسخرية :

ـ تسافرين إلى امريكا وتبحثين عنه هناك ، هل لديك فكرة عن مساحة أمريكا ؟.

ـ أنا أعلم أنه فى ولاية كاليفورنيا . سأذهب إلى جامعة كاليفورنيا وأسأل عنه . لقد رأيت حلما مزعجا أقلقنى عليه .

ظن داود أن مطاردة الرجل البدين له عقب خروجه هو وداود من المطعم لم تكن سوى حادث عابر ، ولكن عند مغادرتهما إحدى دور السينما بعد ثلاثة أيام فوجئا بذلك الرجل فى انتظار مختار بالقرب من باب السينما مختبئا خلف لوحة عليها إعلان عن الفيلم الذى يعرض بالدار مرفوعة على حامل . ضرب داود بقدمه بكل قوته تلك اللوحة فانقلبت على الرجل ووقع على ظهره وأسرعا بالابتعاد عن المكان .

ذهب الدكتور داود إلى البوليس وشكا من ذلك الرجل الغامض الذى يطارده .

قال رجل البوليس :

ـ هل تعرف اسم هذا الرجل ؟.

ـ لا ، لا أعرف عنه شيئا .

ـ هذه مسألة خاصة ينبغى أن نتدخل فيها ، وعليك أنت حل تلك المشكلة بالتراضى والتصالح مع هذا الشخص .

خرج مختار من مكتب البوليس يائسا قرر العودة إلى مصر . بعد نحو أسبوع . وصله خطاب غريب قرأه عدة مرات وقرز أن يعرف رأى الدكتور داود فى هذا الموضوع . قال داود :

ـ من مرسل هذا الخطاب ؟.

ـ إحدى طالباتى فى الكلية ، تلك التى رأيتها فى المطار عندما جاءت تودعنى .

ـ ماذا تقول فى خطابها ؟.

ـ تقول : «أستاذى العزيز الدكتور مختار . ترددت كثيرا قبل أن أرسل لحضرتك هذا الخطاب ، ولقد عرفت عنوانك من الدكتور شريف بعد عناء شديد وعدة محاولات ، ولا أدرى لماذا لم يعطنى العنوان بسهولة ، والذى دفعنى لكتابة هذا الخطاب أننى منذ أيام أحلم أحلاما مزعجة جعلتنى أقلق من أجلك وأخاف عليك من الخطر الذى يهددك فى هذه الأحلام ، فأرجو أن تحتاط لنفسك جيدا ، أنا مشتاقة إليك شوق تلميذة لأستاذها الذى تحمل له كل حب وإجلال واحترام . لاتسخر منى إذا أخبرتك أننى فى حالة عدم التمكن من معرفة عنوانك كنت عازمة على السفر إلى أمريكا للاطمئنان عليك . أنا أصلّى وأدعو لك . تلميذتك المخلصة ياسمين» . ما رأيك فى هذا الخطاب ؟.

قال الدكتور داود بدهشة :

ـ خطاب عجيب .

ـ أنا قررت العودة لمصر .

حاول داود إقناع مختار بعدم السفر ولكن مختارا كان قد اتخذ قرارا لا رجعة فيه . فذلك الرجل المجنون الغامض يهدده هنا بلا سبب ، وترقيته إلى الأستاذية ما زالت معلقة وتحتاج لمتابعة واهتمام ، وفى أعماقه شوق جارف لرؤية ياسمين .

جلس فى استراحة المطار مع داود . وبينما هما يحتسيان القهوة فى انتظار موعد ركوب الطائرة ،

وقفت رشفة القهوة فى حلق مختار عندما رأى على بُعد أمتار ذلك الرجل الغامض واقفا ينظر إليه بعينين مفترستين ، ثم أقبل نحوهما بخطوات سريعة . قال داود :

ـ هذا الرجل أمره غريب ، إنه كاللعنة التى تطاردك .

قال مختار شاعرا بحزن ويأس قاتل :

ـ لقد تعبت من لعبة الاستغماء هذه . سأواجهه مواجهة حاسمة ، إما أن أقتله أو يقتلنى وأستريح .

وقفا أمام بعضهما لا يفصل أحدهما عن الآخر سوى بضعة سنتيمترات . قال الرجل لمختار :

ـ هل نويت السفر لتهرب منى ؟ لن تفلت من يدى . سأقتلك قبل أن تسافر .

ـ قال مختار بهدوء :

ـ اسمع ، لم يعد لدىَّ مانع من أن أموت فلقد قرفتنى ومرَّرت حياتى ، ولكن قبل أن تقتلنى أريد أن أعرف السبب الذى ستقتلنى من أجله ، فأنا لا أعرفك ولم تسبق لى رؤيتك قبل ذلك اليوم الذى رأيتك فيه فى المطعم .

قال الرجل ناظرا إلى مختار بطرف عينه نظرة ساخرة :

ـ ألا تعرف السبب ؟.

ظل مختار يفتش فى ثنايا عقله عن سبب لهذا الغضب فلم يهتد إلى أى سبب ، فقال للرجل :

ـ أقسم لك أننى لم تسبق لى معرفتك ولا أعرف عنك شيئا ولم أُسئ إليك فى حياتى .

ظل الرجل ناظرا بضع ثوان بعينه الحمراوين إلى عينى مختار وكأنه ينوّمه تنويما مغناطيسيا ، ثم قال وكأنه أحد رجال النيابة يواجه متهما بتهمة خطيرة :

ـ منذ نحو شهرين وقفْتَ تشرب كوكاكولا الساعة السابعة مساء فى محل معين ، هل تذكر الفتاة التى ناولتك الكوكاكولا ؟.

ـ لا ، لا أتذكر أية فتاة ، ولا أذكر أننى شربت كوكاكولا فى أى محل من المحلات .

ـ هذه الفتاة التى ناولتك الكوكاكولا هى فتاتى ، صديقتى ، لقد رأيتها تبتسم لك وأنت ابتسمت لها ، وتحدثتما معا ، ولكننى لم أستطع سماع حديثكما ، فلقد كنت أراقبكما من بعيد دون أن يشعر أحد منكما بوجودى ، وفى اليوم التالى هَجَرَتْنى ، كنت قد اتفقت معها موعد فلم تحضر، ومن المؤكد أنها تركتنى من أجلك ، فلقد كانت ابتسامتها لك تحمل معنى الحب . لابد أنك كونت معها علاقة وأصبحت صديقتك .

ثم أردف قائلا بصوت متهدج على وشك البكاء :

ـ من أجل هذا أهملتْنى ولم تعد تهتم بى . أنت سبب تعاستى .

قال مختار بذهول وقد بدأ يتذكر شيئا كان مغلّفا بضباب النسيان :

ـ فتاة ؟! كوكاكولا ؟! أقسم لك أننى لا أذكر أى شىء عن ملامح الفتاة التى أخذت منها الكوكاكولا ، ولم أرها بعد ذلك على الإطلاق ، ولو رأيتها لما عرفتها . أنت تعلم أن البائعات عندكم يبتسمن لجميع الزبائن ابتسامات زائفة لا تدل على شىء .

ـ هل أنت متأكد من هذا الذى تقوله ؟.

ـ أقسم لك أننى لم أقل سوى الحقيقة . إننى أحب فتاة فى مصر ، ولا علاقة لى هنا بأية أنثى ، ولا صديقات لى فى بلادكم .

لأول مرة منذ رآه مختار وجد الرجل يبتسم ابتسامة عريضة وقد بدت علامات الراحة النفسية فى ملامح وجهه ، ثم ضحكك وقال :

ـ أنا متأسف ، متأسف جدا . فلنكن أصدقاء ، أنا اسمى جون .

قال مختار :

ـ لم تعد هناك فرصة للصداقة فلقد وصَلَت الطائرة وهاهم ينادون على ركابها ولن يرى أحدنا الآخر مرَّة أخرى ، وداعا .

ودّع داودا واتجه نحو الطائرة وظل يلوّح له بيده وداود يلوح له ، وأخرج جون هو أيضا منديله وأخذ يلوح به لمختار حتى ركب الطائرة . وبمجرد جلوس مختار على مقعد الطائرة قفزت فى ذهنه صورة ياسمين ، فأخرج خطابها من جيبه ، كما أخرج صورة درية ، وأخذ يعيد قراءة الخطاب ناظرا من آن لآخر إلى صورة درية .

ـ ٩٥ ـ

كانت مفاجأة لشريف مشوبة بالدهشة عندما فتح الباب ووجد أمامه مختارا ، فصاح قائلا :

ـ مَنْ ! مختار؟ غير معقول ، أهلا وسهلا .

أهلا بك .

ـ لماذا لم تخبرنى بموعد وصولك لأستقبلك فى المطار؟ متى وصلت ؟.

ـ منذ يومين ، زرت جميع أفراد العائلة واطمأننت عليهم ووصلت إلى الإسكندرية أمس قرب منتصف الليل ، ولم أشأ أن أخبر أحد بموعد وصولى .

بعد خمس دقائق من جلوسهم فى بهو المنزل أقبلت مريم التى رحبت بمختار ، ثم أقبلت سامية بصحبة فريدة ، صافحتا مختارا وجلستا بالقرب من والدتهما . شعر مختار بمرور الزمن عندما رآهما ، لقد تخرجت سامية فى كلية التجارة وأصبحت فريدة فى الرابعة عشرة من عمرها . كانتا تتمنيان دائما زيارة مختار لمنزلها لاشتياقهما لسماع حديثه واستمتاعهما بالقصص التى يرويها لهما . فتح حقيبة كانت معه وأخرج منها هدايا لجميع أفراد الأسرة . قالت مريم :

ـ نتعشم أن نهنئك قريبا بالأستاذية .

قال مختار بحزن :

ـ تعبت من التفكير فى هذا الموضوع .

قال شريف :

ـ اتركها على الله ولا تشغل بالك .

دعا شريف مختارا للعشاء مع العائلة وظلوا يتحدثون معا حتى منتصف الليل . علم مختار أن سامية تمت خطبتها لأحد المعيدين بكلية العلوم . عندما عاد إلى بيته فى تلك الليلة أحسَّ بقسوة الوحدة . وعندما وضع رأسه على الوسادة استعدادا للنوم طفرت من عينه دمعة .

ـ ٩٦ ـ

بعد نحو أسبوع دق جرس التليفون فى بيت شريف . سمع مختارا يقول بصوت ضعيف :

ـ لست أدرى ماذا جرى لى ياشريف ، أنا فى منتهى التعب . لا رغبة لى فى الحركة أو المشى وفقدت شهيتى للطعام . ينتابنى شعور غريب لم أشعر بمثله من قبل .

ـ سأحضر فورا وأنقلك إلى مستشفى الجامعة فى الشاطبى .

قال شريف للطبيب بعد أن انتهى من فحص مختار وغادر الغرفة :

ـ ماذا به يادكتور ؟.

ـ إنها حالة اكتئاب ، وهو مرض نفسى شديد القسوة .

ـ وما سبب إصابته بهذا المرض ؟.

ـ يحدث المرض من تراكم الأحزان ، ويصيب فى الغالب المثقفين الأذكياء ذوى الشعور المرهف .

بعد يومين ، بينما كان مختار وحده فى غرفته بالمستشفى ، سمع طرقا خفيفا على الباب ، قال :

ـ ادخل .

فتحت ياسمين الباب وأطلت برأسها ، ثم دخلت وفى يدها باقة من الأزهار . قالت بلهفة لمختار :

ـ عرفت أن حضرتك هنا فى المستشفى فجئت لأطمئن عليك .

ـ أشكرك يا ياسمين على هذا الشعور الجميل . تفضلى اجلسى .

وضعت الأزهار على المنضدة وجلست على حافة الكرسى متوترة الأعصاب . قالت :

ـ كيف حال صحة حضرتك الآن ؟.

ـ الحقيقة ، أنا أشعر بتعب .

ـ يبدو أن حضرتك ترهق نفسك . ينبغى أن تهتم براحتك وبصحتك . حضرتك ثروة للبلد . ثروة للمجتمع البشرى كله .

قال مختار محاولا الابتسام :

ـ أنت تبالغين فى مدحك لى يا ياسمين حتى أو شكت أن أصدق كلامك .

قالت بحماس : .

ـ تأكد حضرتك أننى لا أبالغ . إننى أقول الحقيقة التى أومن بها . لا تظن حضرتك أننى لا أفهم

لأننى مازلت صغيرة ، لا ـ أنا أعرف قيمة الناس وأعرف كيف أقيمهم تقييما سليما . أى إنسان لديه قدر من الإدراك لابد أن يعرف قدرك . أنا رأيت حضرتك فى الحلم أمس .

قال مختار بدهشة :

ـ رأيتنى فى الحلم ؟! .

ـ أجل ، إننى أراك كثيرا فى أحلامى .

ـ وماذا رأيت هذه المرّة ؟.

ضحكت وقالت :

ـ رأيت شيئا غريبا .

ـ ما هو ؟

قالت وهى مطرقة للأرض :

ـ حلم عجيب ، رأيت نفسى وسط حفل ضخم فى غرفة فسيحة ، وهذا الحفل مقام لشىء غريب لا يخطر على البال .

ثم ضحكت وقالت وهى ما زالت مطرقة للأرض :

ـ إنهم يحتفلون بتتويجى ملكة . ورأيت حضرتك واقفا فى يدك تاج ، ثم ركعتُ أمامك ، وحضرتك وضعت التاج فوق رأسى والموسيقى تعزف ألحانا جميلة لم يسبق لى سماعها .

ثم قالت وهى تضحك :

ـ أول مرّة أحلم فيها أننى أصبحت ملكة ! ثم وجدت والدتى قادمة نحوى ورفعت التاج من فوق رأسى ولا أدرى لماذا فَعَلتْ ذلك . أردت أن أسألها عن السبب فلم أستطع .

ـ ولماذا لم تستطيعى سؤالها ؟.

ـ لأننى صحوت من النوم .

خرجت ياسمين ، وبعد فترة قصيرة دخلت إحدى الممرضات وقالت :

ـ الآنسة التى كانت عندك الآن ، هل هى أختك ؟.

ـ لا ، إنها طالبة فى الكلية .

ـ شىء غريب .

ـ وما وجه الغرابة فى ذلك ؟.

ـ أوصتنى بالاهتمام بك ، وقالت إنها كانت تتمنى أن تكون ممرضة فى هذا المستشفى بدلا منى لكى تعتنى بك . يبدو أنها لا تثق فينا . هل شكوت لها من شىء ؟.

ـ لا ، لا يوجد هنا ما أشكو منه .

تم شفاء مختار وعاد إلى منزله وذهب شريف لزيارته . استلفت نظره وجود صورة درية فوق المكتبة . فقال :

ــ ألم أوصيك يا مختار بعدم وضع صورة درية فوق المكتبة أو فى أى مكان ظاهر ؟ من يرى هذه الصورة سيعتقد أنها صورة ياسمين

ــ ياسمين رقيقة كالملاك ، كانت تزورنى فى المستشفى . وفى كل مرة تحضر لى معها أزهارا . كان مرضى فى منتهى القسوة ، ولكن يخيل إلى أن زيارة ياسمين أسهمت فى علاجى .

ــ لقد حذرتك يا مختار . أريد أن أسألك سؤالا وتجيب عنه بكل صراحة : هل توجد عاطفة بينك وبين هذه البنت ؟.

ــ ماذا تقصد بالضبط ؟.

ــ أقصد : هل تحب ياسمين ؟.

ــ سأجيب عن سؤالك بكل صراحة : أحبها من كل قلبى حبا عنيفا .

ــ هل صارحتها بحبك ؟.

ــ لا يمكننى بطبيعة الحال مصارحتها بشىء كهذا . لقد بُعِثَتْ درية من جديد فى صورة أروع من الصورة القديمة .

ثم أردف قائلا بحزن :

ــ لكن بعد فوات الأوان . عندما رأيت درية كنت فى عنفوان الشباب ولم تكن تشعر بأية عاطفة نحوى ، ولما جاءت ياسمين بعاطفتها القوية كنت قد أصبحت عجوزا محطما . فى كل مرّة أجد أمامى حاجزا مرتفعا لا أستطيع تخطيه .

ــ وهل طغى حبك لياسمين على حبك لدرية ؟.

ــ درية وياسمين فى نظرى نسختان لصورة واحدة .

ــ أنصحك يا مختار ، ولك الخيار فى قبول نصيحتى أو رفضها ، وأنت تعلم مقدار حبى وإعزازى لك .

ــ ما هى هذه النصيحة ؟.

ــ ابعد بقدر الإمكان وفى أسرع وقت عن ياسمين . لقد أفسدت درية حياتك ، وستكون ياسمين سببا فى تلويث سمعتك التى ظلت على مدى السنين والأعوام كالبلّور الخالى من أى خدش .

ــ وستظل سمعتى كالبلّور الخالى من الخدش إلى أن أموت يا شريف . وإذا أحببت فحبى طاهر نقى .

ــ يا مختار لقد تجاوزت الخمسين ، وياسمين لا تزيد سنّها على ثمانى عشرة سنة ، وعلى الرغم مما رأيته وسمعته منها ومنك لا يمكننى تصديق حبها لك كما تتصور .

قالت ياسمين لسلوى :

ـ أحبه من كل قلبي .

ـ وما ثمرة هذا الحب ؟ هل ستتزوجينه ؟ ليس من المعقول يا ياسمين أن تتزوج بنت فى سنك رجلا كبير السن مثل الدكتور مختار . كم عام ستعيشين معه قبل موتة ؟.

قالت ياسمين بانفعال غاضب :

ـ يموت ؟! ما هذا الكلام الفظيع الذى تقولينه ؟ كيف تفكرين فى موت الدكتور مختار ؟.

ـ كلنا سنموت . كل الناس سيموتون . ولابد أن الدكتور مختار سيموت فى يوم من الأيام ويتركك أرملة فى الخامسة والعشرين أو الثلاثين على الأكثر.

ـ أليس من المحتمل أن أموت أنا قبله ؟ وعلى أية حال فإننى أفضل الحياة مع الدكتور مختار خمس سنوات على الحياة مائة عام مع شاب تافه . أريد أن أكون جنبه فى السنوات الحرجة من حياته . السنوات التى يكون الإنسان فيها محتاجا لقلب يعطف عليه . إذا سهر أكثر من اللازم أنبهه لينام ، وإذا مرض أكون أنا ممرضته . أراه وهو يكتب ، أراه وهو يقرأ ، أراه وهو يفكر ، هل توجد فى الدنيا متعة أكثر من تلك ؟ مثلك يا سلوى لا يستطيع إدراك قيمة شخص مثل الدكتور مختار .

ـ وماذا يقول الناس عنه عندما يجدونه قد تزوج من بنت هو فى سن أبيها ؟ هل تحبين له أن يصبح أضحوكة بين الناس ؟.

ـ لن أعبأ بما يقولون ما داموا أغبياء لا يفهمون . يخيل إلىَّ أن الدنيا لا يوجد بها سوانا نحن الاثنين .

ـ فلتتخيلى ما تريدين . ولكن الحقيقة هى أن الدنيا مليئة بالناس ، وكل واحد من هؤلاء الناس له عينان مفتوحتان ولسان طويل يتكلم .

حدث ما كان يخشاه شريف وما توقعته سلوى . لقد انتشر الخبر فى الكلية . بدأ همسا بين الطالبات والطلبة ، ثم أخذ يعلو كما يرتفع صفير قطار يقترب بأقصى سرعته .

ـ ٩٨ ـ

بعد ثلاثة أيام ، عندما عاد شريف من الكلية فى نحو الثامنة مساء ، كانت مريم فى انتظاره ببهو المنزل مشغولة بعمل (بلوفر) له وقد استبد بها القلق لتأخره عن موعده المعتاد .

اطمأنت عندما سمعت حركة المفتاح فى قفل الباب . قالت :

ـ لماذا تأخرت ؟.

تجاهل سؤالها وقال :

ـ عندى لك خبران ، أحدهما مفرح والآخر محزن .

ـ قل الخبر المفرح أولا .

ـ مختار حصل على كرسى الأستاذية .

فرحت مريم ولكن فرحتها كانت مشوبة بالقلق فى انتظار الخبر المحزن . قالت :

ـ هذا أحسن خبر سمعته فى حياتى ، ولكن ما هو الخبر المحزن ياترى ؟.

ـ قرر أن يتزوج من ياسمين .

قالت وقد طغى حزنها على فرحتها :

ـ غير معقول ، كيف يتصرف تصرفا كهذا ؟ ماذا تقول الناس عنه ؟ إنها كارثة . ألم تستطع منعه من ارتكاب هذه الحماقة ؟.

ـ هذا هو سبب تأخيرى حتى الآن . مكثت معه فى بيته أكثر من ساعتين محاولا إقناعه بالعدول عن قراره هذا ، فإذا بدموعه تسيل على خده ويقول : «هل يرضيك أن أظل طوال حياتى وحيدا بائسا ؟ لماذا تستكثرون علىَّ هذه السعادة ؟ ليس ذنبى أنَّ درية عادت إلىَّ فى صورة ياسمين بعد بلوغى هذه السن» .

ـ إنها أصغر من ابنتنا سامية .

ـ أجل ، بكل أسف . العجيب فى الموضوع أن البنت تحبه حباً أسطورياً لم يرد له مثيل . تكاد تعبده .

ـ ٩٩ ـ

فى الصباح الباكر وقف مختار فى غرفته ينظر من خلال النافذة المطلة على فناء الكلية . رأى ياسمين منهمكة فى القراءة فى إحدى كراساتها تحت إحدى الأشجار الضخمة . هبط إليها واقترب منها وقال :

ـ ياسمين .

فوجئت بسماع صوته ، فنظرت إليه بعينين مبتسمتين وقالت :

ـ أفندم .

ـ أريد التحدث معك فى أمر هام .

قالت وقد سرت فى جسدها فرحة غامضة :

ـ تفضل .

ـ ما هو عنوان منزلكم ؟.

أسرعت دقات قلبها وهى تقول :

ـ سبعة وثلاثون شارع كفر عبده بجى رشدى فى فيلا من دورين ، لونها أبيض .

ولم تستطع إخفاء فرحتها عندما قالت :

ـ هل ستزورنا حضرتك فى البيت ؟.

ـ أجل ، سأحضر لمقابلة والدك .

ـ والدى متوفى .

ـ أنا متأسف . مع من تعيشين ؟.

ـ مع والدتى .
ـ سأحضر اليوم لزيارتكم الساعة السابعة مساء
قالت بلهفة وفرحة :
ـ حضرتك تزورنا ؟ أهلا وسهلا .
ثم صعد إلى غرفته وتركها تحت الشجرة تحلُم بهذه الزيارة .

ـ ١٠٠ ـ

عندما ضغط على الجرس ، فتحت ياسمين الباب على الفور وكأنها كانت واقفة خلفه فى انتظار قدوم مختار . صاحت عندما رأته قائلة :
ـ أهلا وسهلا ، تفضل .
قادته إلى غرفة الجلوس وقالت :
ـ والدتى ستحضر حالا .
بعد بضع ثوان أقبلت والدتها . قالت ياسمين مقدمة كلاًّ منهما للآخر :
ـ والدتى . الدكتور مختار أستاذى .
غمغم مختار قائلا بدهشة :
ـ درية !؟.
تصافحا وجلسا وجلست ياسمين بالقرب من باب الغرفة . أطرق مختار للأرض وساد الصمت لحظات . ثم قالت درية :
ـ ألم تكن تعلم أن ياسمين ابنتى يا دكتور مختار ؟.
قال مختار وهو لا يزال مطرقا للأرض :
ـ لا . لم أكن أعرف ذلك ، ولكننى أدركت الآن سبب التشابه الشديد بينكما .
ـ ياسمين جاءت صورة طبق الأصل منى . منذ سنوات لم أرك يا دكتور مختار .
قال مختار بصوت خافت :
ـ سنين عديدة ، طويلة .
ـ خطوة عزيزة .
قالت ياسمين للدكتور مختار وقد وجدت نفسها فى مواجهة لغز يصعب حلُّه :
ـ حضرتك كنت تعرف والدتى ؟.
ظل مختار مطرقا للأرض ، فقالت درية :
ـ أنا كنت تلميذته فى الكلية كما أنت تلميذته الآن . أينا كان أكثر تفوقا فى الدراسة يا دكتور مختار ، أنا أم ياسمين ؟.

قال مختار وقد جرفته أمواج الذكريات :

ـ أفندم ؟ نعم ؟.

قالت درية مبتسمة :

ـ فيم كنت تفكر ؟.

ـ فى أشياء كثيرة ، ذكريات بعيدة .

قالت درية :

ـ اذهبى يا ياسمين احضرى لنا الشاى .

ـ حاضر يا ماما .

واختفت ياسمين داخل البيت . قالت درية :

ـ عندما رأيتك يا دكتور أدركت أننى أنا أيضا لابد أن أكون تغيرت . قد لا يشعر الإنسان بأنه تغيّر إلاّ عندما يرى إنسانا آخر لم يره من مدة طويلة . الزمن يغير كل شىء .

قال مختار ناظرا نحو باب الغرفة وكأنه ينتظر عودة ياسمين :

ـ هناك أشياء لا تتغير .

ـ مثل ماذا ؟.

قال مختار بعد فترة تردد :

ـ بعض الأشياء ، مثل الحزن .

ـ ألم تكن سعيدا طوال هذه الفترة يادكتور مختار ؟.

ـ مرضت بالاكتئاب فترة من الزمن ، ولا أعتقد أن الإنسان يصاب بالاكتئاب من فرط السعادة .

ـ الشىء الوحيد الذى أعيش من أجله الآن ، هو ياسمين . لقد قاسيت وتعذبت كثيرا . لم أشأ أن أتزوج بعد وفاة زوجى لأكرّس حياتى لها .

قال مختار وكأنه يحدّث نفسه :

ـ كنا إذن نتعذب نحن الاثنين طوال هذه السنين .

ثم أردف قائلا بصوت متهدج :

ـ لماذا يا ربى تركتنا نتعذب كل هذا العذاب ؟.

قالت درية وقد ومضت فى ذهنها ذكريات عديدة .

ـ قد يرتكب الإنسان خطأ واحدا فى حياته يظل يكفّر عنه طوال عمره . لقد اعتزلت الدنيا وعشت مع ابنتى ياسمين لا نزور ولا نزار . لقد أخطأت عندما رفضت إنسانا رقيقا أحبنى كل هذا الحب الكبير . ومن التى تزوجتها ؟.

ترقرقت فى عينى مختار بعض دموع وقال وهو مطرق للأرض :

ـ لم أتزوج .

قالت درية بدهشة ممزوجة بالحزن والندم .

ـ لم تتزوج حتى الآن ؟.

ـ لم أشأ أن أرتكب خطأً أندم عليه . ولكننى أخيرا قررت الزواج .

ـ ومن سعيدة الحظ التى اخترتها هذه المرَّة ؟.

قال وهو مطرق للأرض وقد احمرَّ وجهه :

ـ أنا فى الحقيقة ... حضرت لأخطب ياسمين .

صاحت درية بدهشة :

ـ غير معقول . ياسمين الصغيرة هذه ؟ إنها ما زالت طفلة .

أقبلت ياسمين فى هذه اللحظة تدفع أمامها عربة الشاى فتوقفا عن الحديث حتى صبَّت الشاى لمختار ولوالدتها وقدمت الفطائر وذهبت إلى غرفتها وانفجرت تبكى . فلقد سمعت آخر جملة قالتها والدتها وهى « ياسمين الصغيرة هذه ؟ إنها ما زالت طفلة » .

قال مختار :

ـ عندما رأيتها خيل إلىَّ أن الزمن رجع بى أكثر من ربع قرن وعادت لى درية .

قالت درية :

ـ هل تحبها ؟

ـ أحبها بكل قلبى . بكل خلية فى جسدى .

ـ يخيل إليك .

ـ يخيَّل إلى ؟ كيف يتخيل الإنسان أنه يحب ؟.

أطرقت درية بضع لحظات ثم نظرت للدكتور مختار وقالت :

ـ تقول إنك عندما رأيت ياسمين شعرت كأنك ترانى عندما كنت فى سنّها . لأنها صورة طبق الأصل منى .

ـ أجل . هذا ما شعرت به بالضبط .

ـ إذن أنت لم تحب ياسمين .

ـ لم أحب ياسمين ؟! كيف ؟.

ـ أجل ، لقد أحببتنى أنا . للمرة الثانية . رأيتنى مرة أخرى فى صورة ياسمين فأحببتنى لثانى مرَّة . لقد أحببت ياسمين لأنها تشبهنى . وحرام أن يتزوج واحد فى سنك فتاة صغيرة مثل ياسمين . من المفروض أن تكون أباها ، لا زوجها .

قال مختار وقد ملأ الحزن قلبه :

ـ هذا صحيح . أنا الآن لست مختارا المعيد الصغير السن الذى كان . سنوات عديدة مرَّت .

ـ وياسمين مازالت فى ربيع عمرها ، فهل من الممكن أن يلتقى الربيع بالخريف ؟.

قال بصوت متهدج :

ـ لا لوم على إنسان فى خريف عمره إذا أحب زهرة سبق له أن حاول قطفها فى ربيع عمره و...

قاطعته درية قائلة وقد لمعت الدموع فى عينيها :

ــ أرجوك يا دكتور مختار لاداعى لهذه الذكريات . يكفى أن هذه الزهرة ظلت طوال هذه المدة تكفّر عن ذنبها حتى ذبلت ، ولا نريد للزهرة الأخرى أن تذبل قبل ملأوان

قال مختار وهو مطرق للأرض :

ــ كل ما يهمنى الآن هو سعادة ياسمين . أتمنى لها شابا فى ربيع عمره يحبها وتحبه .

ثم أردف قائلا باذلا مجهودا كبيرا لئلا يبكى .

ــ وعلى الأخص بعد أن عرفْتُ أنها ابنتك عن إذنك .

قام ومد يده إليها مودعا . فأبقت يده فى يدها وقالت :

دكتور مختار ، كنت أتمنى أن أعوضك عن كل ماقاسيته من أحزان ، ولكن الوردة ذبلت .

سحب يده من يدها ببطء ، واتجه نحو باب البيت . فتحت له درية الباب . وسار متجها نحو منزله دون أن ينظر خلفه . وأخرج منديلا مسح به دموعا طفرت من عينيه ليستطيع رؤية الطريق .

(تمت)

الإسكندرية عام ١٩٧٢

رقم الإيداع : ١٧٩١ / ١٩٨٩
الترقيم الدولى : ٨ - ٢٩٩ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة. ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت. ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

الغلاف للفنان حلمي التوني



لاتلوموا الخريف

كانت أسراب العصافير ترتفع ثم تهبط على الأشجار وكأنها ألعاب نارية . والأحبة يتهادون ويتهامسون فى نشوة وقد تشابكت أيديهم . والأشجار التى جردها الخريف من أوراقها بدأت تدب فيها الحياة . كان كل شيء فى حديقة الأندلس على شاطئ النيل فى ذلك اليوم من عام ١٩٣٨ يحتفل بمقدم الربيع . وانطلق طفل يعدو فى إحدى يديه قوس وفى الأخرى سهم .

فى مهرجان الربيع هذا بدأ مختار بدر الدين الطالب بكلية العلوم وكأنه نغمة نشاز . فهو جالس بمفرده منزويا فى ركن منعزل من أركان الحديقة على مقعد خشبى تظلله شجرة عجوز محفور على جذعها قلب تخترقه سهم وقد أدار ظهره للربيع كما أدارت له ظهرها زهرة كبيرة صفراء واتجهت نحو قرص الشمس . وفى يده كتاب « علم الحيوان » يحاول أن ينقل إلى مخزن ذاكرته كل ماهو مدوّن فى صفحاته . فهو لم يحضر للحديقة للنزهة وطلب المتعة كغيره من خلق الله . ولكنه اعتاد زيارتها من آن لآخر ليذاكر دروسه . كان هو الإنسان الوحيد فى الحديقة الذى لايشعر بمتعة الربيع . الحياة فى نظره معمل ومحاضرة وكتاب .

© دار الشروق
القاهرة : ١١ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧١٥ ـ ٨١٧٢١٣